

**مسيرة المجهاد الأسلامي  
ضد الصليبيين في عهد الظاهر**

« ١٤٢٣ - ١٢٥٠ / ٦٤٨ - ٥٢٢ »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى  
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



طار النفائس  
للتثثير والتوزيع

الأردن - عمان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس  
هاتف : ٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٦٩٣٩٤١ - ص.ب : ٢١١٥١١

**مسيرة الجهاد الإسلامي  
ضد الصهيونيين في عهد المماليك**

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٥١٢ م «

تأليف

عزمي عبد محمد أبو عليان



**دار النفائس**  
للنشر والتوزيع - الأردن

٩٥٦، ٠٧١

عزم عزمي عبد محمد أبو عليان

مسيرة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك  
٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

رؤوس الموضوعات :

- ١ - المماليك - تاريخ
- ٢ - الحروب الصليبية

رقم الاريداع : ( ٧٩٨ / ٨ / ١٩٩٤ م )

( تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية )

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى شهداء الأمة الإسلامية الذين  
ارتقوا إلى جنان الخلد إعلاءً لحمة  
الله تعالى، ورفعاً لراية الإسلام  
خفاقةً عاليه.



عهداً ووفاءً



- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ -

«المقدمة»

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على إمام المرسلين والمجاهدين، وصفوة الخلائق أجمعين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد: فلقد كان الشرق الأدنى الإسلامي في العصر الوسيط يعيش انقساما داخلياً عنيفاً من الناحيتين السياسية والدينية، فمن خلافة عباسية سنية في بغداد إلى خلافة فاطمية شيعية في القاهرة، وبسبب هذا الانقسام عاشت بلاد الشام صراعا عسكرياً مريضاً بين الخلافتين، وفي خضم هذه الأحداث وفي غفلة من العباسيين، وتغافل من الفاطميين - في بداية الأمر - تمكن الأوروبيون بدعوة من البابوية من احتلال مدينة بيت المقدس وجميع الساحل الشامي من أقصاه إلى أقصاه.

وجاء الاحتلال الأوروبي هذا تحت ستار ديني، وكان الصليب هو شعارهم الذي رفعوه في حروفهم أمام المسلمين، ومن هنا جاءت تسمية تلك الحروب بالحروب الصليبية.

وقد شكل الاحتلال الأوروبي الصليبي تحدياً خطيراً للأمة الإسلامية، ليس على الأرض فقط، ولكن في معتقداتها الدينية، إذ أن هدف الصليبيين الظاهري والمعلن كان هدفاً دينياً شعاره الصليب.

وأمام هذا التحدي، هب الرأي العام الإسلامي بكلوعي وحماس، ونادي بالتغيير في واقعه الداخلي، وبالتصدي للمعتدي المحتل تحت شعار: (الوحدة والجهاد). وظل الرأي العام الإسلامي يتفاعل إلى أن قيض الله تعالى للأمة الإسلامية من حمل رايته ونذر نفسه له، فكان عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وكانت الوحدة الإسلامية بين مصر وبلاد الشام يحققها صلاح الدين، وجاء الوعد الحق ﴿إِن تُنْصِرُوهُمْ فَإِن تُنْصِرُوا اللَّهُ يُنْصِرُكُمْ وَيُثْبِتُ أَقْدَامَكُم﴾، وانتصر صلاح الدين في حطين وحرر بيت المقدس وغيرها من المدن والواقع من براثن الاحتلال الصليبي.

على أن رأية الوحدة والجهاد قد تذبذبت بعد صلاح الدين بين الارتفاع والانخفاض، ووصلت إلى مرحلة الإسقاط في بعض الأحيان، وظللت على تذبذبها إلى

أن قامت دولة المالیک فی مصر، فعادت الراية إلی الارتفاع والارتفاع من جديد حتی بلغت الذروة، فكانت الوحدة بین مصر وبلاد الشام من جديد وکان الجھاد الإسلامي ضد الصليبيین فی أجل وأبھی صوره حتی تم التحریر والتظھیر الشامل بعون الله تعالی وفضله، فسقطت الحروب الصليبية وسقط شعارها معها، وظللت راية الوحدة والجھاد مرفوعة خفاقة بأيدي المالیک لمحابھة کل من يتجرأ على الأمة الإسلامية وديارها .

وعندما حاولت أوروبا والبابویة تجدد الحروب الصليبية بالاعتداء على سواحل مصر وبلاد الشام على أمل أن يؤدی ذلك إلى إعادة احتلال بيت المقدس، هب المالیک يدافعون عن أمتهم الإسلامية، ولما ازدادت هذه الاعتداءات حدة نقل المالیک المعركة إلى عقر دار الصليبيین فی جزر حوض البحر المتوسط، فداسوا شعلتها بأقدامهم.

ولما حاول الصليبيون الالتفاف على ديار الإسلام من الجنوب عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر، انبرى لهم المالیک على الرغم من الإعیاء الشديد الذي أصابهم، وتمكنوا من حماية مدخل البحر الأحمر منهم.

وهذا الكتاب هو عرض ودراسة للدور الهام والكبير الذي لعبه المالیک في حركة الجھاد الإسلامي ضد الصليبيین، بإسلوب مبسط وموثق، مبني على أهم المصادر المعاصرة للأحداث، وعلى المراجع ذات الصلة الوثيقة بال موضوع.

وأرجو الله سبحانه وتعالی أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، إنه نعم المولى ونعم النصیر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على إمامنا الأمين سیدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعین.

والله من وراء القصد

المؤلف

## **الباب الأول**

### **تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي**

**الفصل الأول: قيام دولة المماليك.**

**الفصل الثاني: المعاقل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك.**

**الفصل الثالث: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان**

**الظاهر بيبرس.**

**الفصل الرابع: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان**

**المنصور قلاون.**

**الفصل الخامس: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان**

**الأشرف خليل بن قلاون.**



## الفصل الأول

### قيام دولة المالكية

عقب وفاة السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله سنة ١١٩٣ هـ / ٥٨٩ م<sup>(١)</sup> انفرط عقد الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام كدولة موحدة، وانقسمت بلاد الشام إلى مالك متعددة، في حين احتفظت مصر بطابعها كملكة قائمة بذاتها. ومن خلال هذا الانقسام دب النزاع بين ملوكبني أيوب الذين كانوا يحكمون تلك المالك، فضلاً عن استمرار النزاع الذي كان قائماً بينهم وبين أبناء البيت الزنكي في الموصل، ولذلك فقد حرص أولئك الملوك على أن يكون كل منهم عصبة لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بملكه، ولتحقيق هذه الغاية فقد عمدوا إلى الإكثار من شراء المالك - أو الرقيق الأبيض - فاشتروا منهم أعداداً كبيرةً وعنوا بتدريبهم ليكونوا لهم عدة وسداً.<sup>(٢)</sup>

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي تولى الحكم في مصر ٦٤٧-٦٤٩ هـ / ١٢٤٧-١٢٤٩ م قد فاق غيره من ملوكبني أيوب في هذا المجال، فقد استكثر من شراء المالك وبخاصة المالك الترك، وفي ذلك قال الذهبي: «اقتني الصالح أيوب من الترك ما لم يشتره ملك، حتى صاروا معظم عسكره ورجالهم على الأكراد وأمر منهم وجعلهم بطانته والمعيطين بدھليزه».<sup>(٣)</sup>

وعرف المالك الترك بالمالك البحري، وعن سبب هذه التسمية قال الذهبي عند حديثه عن السلطان الصالح: «وسماهم البحري، قلت: لكون التجار جلبواهم من البحر من بلاد القفقاق»<sup>(٤)</sup> وأعطى ابن خلدون رأياً آخر فقال: «ومنهم البحري نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل أذا، المقياس بما كانوا حاميتها».<sup>(٥)</sup>

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج ٨، ص ٢٢٥.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبين والماليك، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٩٢.

(٤) م.ن، ج ٢٣، ص ١٩٢.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٠٦.

ودعم المقرizi رأي ابن خلدون حين قال عند حديثه عن السلطان الصالح: «وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسماهم البحريه».<sup>(١)</sup>

### وصول المماليك البحريه إلى سدة الحكم:

نبع الخوارزمية<sup>(٢)</sup> في تحرير مدينة بيت المقدس من براثن الاحتلال الصليبي سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م<sup>(٣)</sup> (للمرة الثالثة)، وتبع ذلك تمكن السلطان الصالح نجم الدين أيوب من إعادة وحدة مصر والشام كما كانت في عهد السلطان صلاح الدين.<sup>(٤)</sup>

ولقد أفرج ذلك أوروبا والبابوية فرعاً عنها، فقدان بيت المقدس وقيام وحدة إسلامية جديدة سيكونان المقدمة نحو تدمير العاقل الصليبي في بلاد الشام تدميراً شاملًا، ولما كانت البابوية حرثة على استمرار الوجود الصليبي في الشرق لكونه العامل الذي يبقى على زعامتها لأوروبا، فقد سارعت إلى إرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق وهي المعروفة بالحملة السابعة على رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع، وجعلت وجهتها الأولى مصر لتحطيمها عسكرياً والعبور من بوابتها إلى بيت المقدس، لكونها ثقل الأمة الإسلامية في ذلك الحين، والمجدار المنيع الذي يحمي بيت المقدس وببلاد الشام. وقد رست الحملة قبلة الشواطئ المصرية، ثم ما لبثت أن احتلت دمياط سنة ٥٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م، مما جعل السلطان الصالح يسرع بالتصدي لها، إلا أنه توفى في أثناء ذلك بعد اشتداد مرضه في ١٤ شعبان ٢٢٥٦٤٧ هـ تشرين ثاني ١٢٤٩ م<sup>(٥)</sup> فقامت زوجته شجر الدر بتدبير أمور الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين

(١) المقرizi، الموعظ والاعتبار، ج٣، ص١٧٣.

(٢) الخوارزمية: نسبة إلى خوارزم، وقد فرت أعداد كبيرة منهم من وجه التتار ودخلوا في خدمة سلاجقة الروم وملوك الأيوبيين، إلى أن عاثوا فساداً في بلاد الشام واجتاحتوا معظم مدنها، فقضى عليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب كفراً عسكرياً فتفرقوا في البلاد في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، (انظر ابن واصل، مندرج الكروب، ج٥، ص٣٤-٣٣٩).

(٣) ابن واصل، مندرج الكروب، ج٥، ص٣٤-٣٣٩.

(٤) سعيد عاشور، مصر والشام، ص١٠٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٧٨-١٧٩.

صفوف المسلمين، وفي الوقت ذاته أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه في حصن كيفا (بلدة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، مشرفة على دجلة) داعية إياه للقدوم إلى مصر لتولي عرش السلطنة ومواجهة الصليبيين.<sup>(١)</sup>

وما أن عاد تورانشاه حتى ألحق الهزيمة بالصليبيين وتمكن من أسر الملك الفرنسي لويس السابع، وذلك في أوائل المحرم ٦٤٨هـ / نيسان ١٢٥٠م، غير أن الأمر لم يستقم لتورانشاه، فقد قُتل بأيدي المالك البحري في آخر الشهر نفسه، بسبب موقفه العدائي منهم.<sup>(٢)</sup>

ولمّا لم تكن الأوضاع مهيأة بعد لأن يتولى أحد المالك منصب السلطنة فقد أجمع أمراؤهم الرأي على تقليد شجر الدر زوجة السلطان الصالح عرش السلطنة، على أن يكون الأمير المملوكي عزال الدين أيوب التركمانى أتابكاً للعساكر.<sup>(٣)</sup>

وقد واجهت شجر الدر في بداية عهدها مشكلة وجود الفرنسيين في دمياط، التي ظلت في قبضتهم على الرغم من هزيمتهم وأسر ملوكهم لويس التاسع، ولذلك سارعت إلى استكمال المفاوضات التي كانت قد بدأت مع الملك لويس في عهد تورانشاه، فتم الاتفاق معاً على أن يتم اطلاق سراحه مقابل تسليم دمياط، ودفع فدية مالية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدماً، ثم أبحر الملك لويس بأهله وأصحابه إلى عكا تاركاً قواته في الأسر ريثما يدفع بقية الفدية.<sup>(٤)</sup>

وإذا كانت شجر الدر قد نجحت في إخراج الفرنسيين من مصر، إلا أنها جوهرت بمعارضة داخلية عنيفة بسبب توليها السلطنة، وقد هذه المعارضة شيخ العصر آنذاك عزال الدين بن عبدالسلام الذي كتب «كتاب حول ما قد يبتلى به المسلمين بولاية امرأة»<sup>(٥)</sup>

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص ٧٧٤-٧٧٥.

(٢) المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ص ٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٩-٢٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٨٣.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٣٤.

وازدادت هذه المعارضة حدة عندما استولى الملك الأيوبي الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق وغيرها من مدن الشام دون قتال ثم مواصلته الزحف جنوبا نحو مصر.<sup>(١)</sup>  
وحاول الماليك احتواه، هذه المعارضة بمحاولة نيل تأييد الخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله لسلطان شجر الدر في مصر، إلا أنَّ ردَّ الخليفة جاء مخيباً لآمالهم، فقد أرسل إليهم قائلاً: «إنْ كانت الرجال عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير اليكم رجالاً»<sup>(٢)</sup> عندئذ أجمع أمراء الماليك رأيهم على أن تتزوج شجر الدر من الأمير عزالدين أبيك وتتنازل له عن السلطة، فوافقت شجر الدر على هذه الخطوة وخلعت نفسها وتزوجت من الأمير عز الدين وذلك في أواخر ربيع الآخر ٦٤٨هـ/تقویز ١٢٥م بعد أن حكمت ثمانين يوماً.<sup>(٣)</sup>

غير أن هذه الخطوة لم تكن لتنهي معارضة الأيوبيين في بلاد الشام لحكم الماليك، فلجأ هؤلاء إلى لعبة سياسية في محاولة منهم لإسكات الصوت الأيوبي، فقد أتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبي يدعى الأشرف موسى بن مسعود وأقاموه شريكاً مع المعز أبيك، وكان ذلك في جمادى الأول ٦٤٨هـ/آب ١٢٥م.<sup>(٤)</sup>

ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين في بلاد الشام، فزحفوا باتجاه مصر بقيادة الناصر يوسف والتقوا مع الماليك في معركة قرب العباسة في السنة ذاتها، إلا أنَّ الأيوبيين منوا بالهزيمة<sup>(٥)</sup>. مما شجع المعز أبيك على محاولة استثمار انتصاره بالزحف على بلاد الشام والقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية فيها، فدفع ذلك الملك الناصر إلى طلب المساعدة العسكرية من الملك الفرنسي لويس التاسع مقابل التنازل له عن بيت المقدس، بيد أنَّ الملك الفرنسي لم يستجب له، فقد وجد نفسه مقيداً بصلح دمياط، فضلاً عن أنه ترك وراءه في مصر عشرة آلاف أسير صليبي سيتعرض مصيرهم للخطر إنْ هو أخلَّ بشروط الصلح كما لم يكن واثقاً من جدية هذه العرض.<sup>(٦)</sup>

وقد سار المعز أبيك على ذات النهج الذي سار عليه الناصر يوسف، فقد اتصل

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨٦، العيني، عقد الجمان ج١، ص ٣٢-٣٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٦٨. (٣) م.ن، ص ٣٦٨.

(٤) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ١٣.

(٥) بيبرس الدواداري، زينة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٦) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة الماليك البحري، ص ٥٣.

بدوره بالملك الفرنسي وطلب منه المساعدة العسكرية ضد الأيوبيين مقابل التنازل له عن بيت المقدس أيضاً.<sup>(١)</sup>

واستغل الملك الفرنسي هذا العرض من الملك المعز فطالب به بشروط أخرى إلى جانب تسلیمه بيت المقدس وهي:

١. الالتزام بسياسة التسامح مع النصارى في مصر وبلاد الشام.
٢. إطلاق سراح جيشه المأسور في مصر.
٣. التنازل عن بقية الفدية المطلوبة منه.

تكون البلاد والغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في بلاد الشام مناصفة بينهما. ولما كان المعز توافقاً لسحق الأيوبيين فقد وافق على هذه الشروط، فتم عقد الاتفاق الجديد سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٢ م.<sup>(٢)</sup> وتنفيذًا لذلك اتفقا على الالقاء على أرض فلسطين تهديداً لشن هجوم مشترك على قوات الأيوبيين، غير أن الملك الناصر يوسف فوت عليهمما هذه الفرصة عندما أرسل قواته إلى غزة قبل وصول القوات المملوكية إليها، ليس غيرةً على بيت المقدس ولكن حنقاً على المالكين والصلبيين معاً.<sup>(٣)</sup>

واستمر العداء قائماً بين المالكين والأيوبيين حتى سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م، حين تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله للصلح بينهما، ونجح مبعوثه الشيخ نجم الدين البادرائي في التوفيق بين المعز والناصر فعقدا اتفاقاً نصّ على ما يلي:-

١. أن يكون للملك المعز الديار المصرية وغزة وبيت المقدس ونابلس والساحل كله إلى نهر الأردن.
٢. أن يكون للملك الناصر يوسف ماوراء ذلك.
٣. أن يطلق الملك المعز جميع الأسرى من الملوك والأمراء الأيوبيين الذين وقعوا بيده في أعقاب معركة العباسة.<sup>(٤)</sup>

وبهذا الاتفاق تفرغ المعز لتدعيم سلطانه في مصر، فقتل أكبر منافسيه الأمير

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٤، العيني، عقد الجمان، ج١، ص٨٠.

(٢) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المالكية البحرية، ص٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٨١، المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٨٥-٣٨٦، الصفدي، الواقي بالوفيات، ج٩، ص٥٤٧٢ العيني، عقد الجمان ج١، ص٦٦-٦٥.

فارس الدين أقطاي، وعزل الملك الأشرف موسى، مستقلاً بالملك دونه وذلك سنة ١٢٥٤هـ/٦٥٢م.<sup>(١)</sup>

وكانت نتيجة مقتل أقطاي أن فرّ أعرانه من كبار المالكية البحريية إلى بلاد الشام، عند ملوك البيت الأيوبية في دمشق والكرك، وكان على رأس المالكية آنذاك الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سيكون له شأن عظيم في مواجهة الصليبيين.<sup>(٢)</sup>

وقد أقلق وجود هؤلاء المالكية في بلاد الشام الملك المعز، إذ أن ذلك سيزيد من خطر الأيوبيين عليه، ولذلك أرسل الملك الناصر يحذره من غدرهم وغائلتهم ويخوّفه عاقبة شرهم، فاستغل الناصر هذا الموقف وطالبه بإعادة ما أخذه من بلاد فلسطين ليقيم فيها هؤلاء المالكية لأنها كانت من أقطاعاتهم، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر.<sup>(٣)</sup> فأجابه المعز إلى ما طلب ولكنه في الوقت ذاته تحرك على رأس قواته وعسكر بالقرب من العيادة خشية أن يكون موقف الناصر خديعة ومكرًا، ولم يرجع إلى القاهرة إلا بعد أن توصل إلى عقد صلح جديد معه بواسطة الشيخ البادري

سنة ١٢٥٣هـ/٦٥٣م. ونص على ما يلي:-

١. أن يكون الشام جميعه للملك الناصر يوسف.
٢. أن تكون الديار المصرية للملك المعز.
٣. أن يكون الحد الفاصل بينهما بشر القاضي وهو ما بين الوركدة والعرיש.
٤. ألا يأوي الملك الناصر عنده أحداً من المالكية البحريية.<sup>(٤)</sup>

ويسبب هذا الصلح سوء العلاقة بين الناصر والمالكية الذين عنده إلى أن غادروا دمشق سنة ١٢٥٥هـ/٦٥٥م، وتوجهوا إلى الكرك داخلين في طاعة صاحبها الأيوبية الملك

(١) بيبرس الدواداري، زينة الفكر، ورقة ٤٨-٤٧، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٩٠، الصندي، الواقفي بالوفيات، ج٢، ص٤٧٢، العيني، عقد الجمان ج١، ص٦٦-٨٥.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٦، وليم موير، دولة المالكية في مصر، ص٣٤.

(٣) القريري، السلوك، ج١، ص٣٩٣، العبادي، قيام دولة المالكية الأولى، ص١٣٥.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٩. أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٩٠.

المغيث عمر.<sup>(١)</sup>

أما في مصر فقد أقدمت شجر الدر على قتل زوجها المعز أبيك في السنة ذاتها، مما جعل ماليكه يقومون بقتلها ويقيمون في السلطنة ابنه المنصور نور الدين علي،<sup>(٢)</sup> وكان له من العمر خمس عشرة سنة، وجعلوا الأمير سيف الدين قطز أتابكا له.<sup>(٣)</sup> ويتطور هذه الأوضاع في مصر، حرض المالك البحري الملك المغيث عمر صاحب الكرك على مهاجمة مصر وتلكلها، على أن يتوارزوه في ذلك، فأخذ برأيهم وهاجم مصر مرتين الأولى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. والثانية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. إلا أنه هزم في كلاًّ منهما من قبل سيف الدين قطز.<sup>(٤)</sup>

وكانت هذه الأحداث تجري في مصر وبلاد الشام في الوقت الذي كان فيه المغول (التتار) بقيادة هولاكو يزحفون على الدولة العباسية ويحتلون بغداد ويقتلون الخليفة العباسي المستعصم بالله منهين بذلك الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ثم واصل المغول زحفهم باتجاه بلاد الشام، عندئذ قام قطز بعزل الملك المنصور علي واعتلى سدة الحكم ليتسنى له مواجهتهم.<sup>(٥)</sup>

أما المالك البحري الذين كانوا في الكرك فقد غادروها عائدين إلى مصر بعد أن أمنهم السلطان سيف الدين قطز، هذا في الوقت الذي واصل فيه المغول زحفهم حتى وصلوا إلى غزة، ومن هناك أرسل زعييمهم هولاكو كتاباً إلى السلطان قطز يأمره فيه بالتسليم.<sup>(٦)</sup>

ولكن هيباتا فقد ردَّ قطز على هولاكو ردَّاً عملياً، بأن قتل رسleه وعلق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة، ثم انبرى لقتالهم، فدارت ملحمة عسكرية بين الطرفين في عين جالوت على أرض فلسطين في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٢٠١٠ أيلول ١٢٦٠م. انتهت بهزيمة

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٩.

(٢) بيبرس الدواداري، زينة الفكر، ورقة ٦١-٦٠، وليم موير، دولة المالك في مصر، ص٣٤، الصندى، الواقى بالوفيات، ج٩، ص٤٧٣، العينى، عقد الجمان، ج١، ص١٤٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٥٧.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٨٩-١٩٩، ٢٠٣.

(٥) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص٤٧، العينى، عقد الجمان، ج١، ص٢٣٤.

المغول ومقتل قائدتهم كتبغانيين وأسر ابنه (وكان هولاكو قد عاد إلى خراسان قبل ذلك).<sup>(١)</sup>

وبهذا الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون أصبحت الطريق ممهدة إلى دمشق، فسار إليها السلطان المظفر قطز واستردها من المغول، وأنفذ في أثرهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري على رأس قوة عسكرية، فلما حق لهم حتى ظهر شمال الشام منهم.<sup>(٢)</sup> وبذلك بسط المالك سلطانهم على بلاد الشام وباتوا القوة الإسلامية الوحيدة التي قدر الله تعالى لها أن تقاتل عدوين في آن واحد: المغول الذين كانت معركة عين جالوت أولى الحلقات من سلسلة الواقع اللاحقة معهم، والصلبيين الذين كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام على امتداد الساحل.

وفي طريق عودة السلطان المظفر قطز إلى مصر، انقلب عليه الأمير ركن الدين بيبرس ومؤيدوه من المالك بعد أن رفض قطز تعيينه نائباً على حلب، فضلاً عن العداء الذي كان قد وقع بينهما عند مقتل أقطاى، فقتله في الطريق ما بين الغرابي والصالحية، ودخل بيبرس القاهرة سلطاناً وتلقب بالملك الظاهر في السنة ذاتها ١٢٦٥هـ / ١٢٦٠م.<sup>(٣)</sup>

واجهت بيبرس في بداية عهده ثورة قادها الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق فقد رفض هذا الأمير الاعتراف بسلطنته، ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق وتلقب بالملك المجاهد، إلا أن بيبرس استطاع سحق هذه الثورة.<sup>(٤)</sup>

ووفق بيبرس في السنة التالية ١٢٦٩هـ / ١٢٦١م، باتخاذ خطوة على جانب كبير من الأهمية في التاريخ الإسلامي ألا وهي إحياءه للخلافة العباسية، إذا استقدم أحد أبناء البيت العباسي من الشام وأقامه خليفة في القاهرة، فثبتت بيبرس بذلك دعائم

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٥-٦٦، البانعي، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٤٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٦، القرماني، كتاب أخبار الدول وآثار الأول، ص ١٩٧.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٦، الصندي، الوافي بالوفيات، ج ١، ص ١٣٣ العيني، عقد الجمعة، ج ١، ص ٢٥٣.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٩٩. البانعي، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٤٩. الصندي، الوافي بالوفيات، ج ١، ص ٣٢٢.

حكمه من خلال التقليد الذي قلده إياه الخليفة الجديد.<sup>(١)</sup> فقد جاء في كتاب التقليد: «وأمير المؤمنين يشكر الآن هذه الصنائع ويعرف أن لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الرافع، وقد قلدك الديار المصرية، والبلاد الشامية، والديار البكرية، والجزيرية والمحازية والفراتية مع سائر ما يتجدد من الفتوحات غوراً ومجداً، وفوض أمر جندها ورعايتها إليك».<sup>(٢)</sup>

ويذلك تفرغ بيبرس لواجهة أعداء الأمة والدين من صليبيين ومغول، وتتابع طريقه المنصور قلاوون والأشرف خليل حتى تم تحرير بلاد الشام تحريراً نهائياً من براثن الاحتلال الصليبي.<sup>(٣)</sup>

#### **انتقال الحكم إلى الماليك البرجية:**

استمر حكم الماليك البحريية حتى سنة ٦٧٨٤هـ / ١٣٨٢م حين حل محلهم الماليك البرجية الذين يرجع أصل تكوينهم كفرقة جديدة إلى أوائل حكم السلطان المنصور قلاوون، فقد سعى هذا السلطان إلى تكوين فرقة جديدة من الماليك من غير العناصر التركية ليكون إخلاصها له ويكون اعتماده عليها دون الفرق المملوكية السابقة<sup>(٤)</sup> وفي ذلك قال المقريزى: «وكان قد أفرد من مالike ثلاثة آلاف وسبعمائة من الأص والجركس، جعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية».<sup>(٥)</sup> ويعود هؤلاء في أصولهم إلى منطقة تقع بالجزء الجنوبي من شبه جزيرة القرم.<sup>(٦)</sup>

وقد سار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على سنته أبيه، فقد استكثر من شراء الماليك الجركس، حتى أنه رغب في زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك، فاشترى

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٩، الباقعى، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٥١.

(٢) ابن أبيك الدوادوى، الدرة الزكية، ص ٧٥.

(٣) القرماتى، كتاب أخبار الدول وأثار الأول، ص ١٩٧-١٩٩.

(٤) حكيم أمين، قيام دولة الماليك الثانية، ص ١١٠-١٢٠.

(٥) المقريزى، السلوك، ج ١، ص ٧٥٦.

(٦) محمد مصطفى زيادة، حاشية السلوك، ج ١، ص ٧٥٦.

في مدة حكمه القصير حوالي الفي مملوك من أسواق ثغر كافا بالقرن.<sup>(١)</sup>  
وبدأ حكم المالiks البرجية عندما اعتلى سدة الحكم الأمير برقوق اليلبغاوي  
الجركسي وتلقب بالملك الظاهر بعد خلعه للسلطان الصالح حاجي بن شعبان آخر سلاطين  
المالiks البحريّة سنة ١٣٨٤هـ/٧٨٤م.<sup>(٢)</sup>

وإذا كان المالik البحري قد سجل لهم التاريخ تحرير بلاد الشام من الصليبيين  
فإن المالik البرجية قد أضافوا صحفاً مشرقة في سجل التاريخ الإسلامي عندما  
دافعوا عن ديار الإسلام أمام تجدد المزروع الصليبية، ثم تحولهم من مرحلة الدفاع إلى  
مرحلة الهجوم عندما بدأوا يدكّون قواടع الصليبيين في عقر دارهم، كما سنبيّن في  
الباب الثاني.

واستمر حكم المالik البرجية حتى سنة ١٥١٧هـ/٩٢٣م حين هزموا من قبل  
الدولة العثمانية التي استولت على بلاد الشام ومصر، منهية بذلك حكم المالik  
الذي استمر لأكثر من قرنين ونصف.<sup>(٣)</sup>

---

(١) حكيم أمين، قيام دولة المالik الثانية، ص ١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ٣، ص ٨٦. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢١،  
ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ٤٤٥.

(٣) ابن طولون، مفاكهمة الخلان في حوادث الزمان، ق ٢، ص ٤٧، القرماتي، كتاب أخبار الدول وأثار الأول  
ص ٤٢.

## الفصل الثاني

### المعاقل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك

تقن الصليبيون في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وأواسط القرن السادس / الثاني عشر الميلادي من احتلال الساحل الشامي على طول امتداده من قيليقية شمالاً وحتى غزة جنوباً، ويعمق داخلياً متفاوت في عرضه امتد من الرها شمالاً وحتى أيلة جنوباً.

وشكل الصليبيون في هذه المنطقة أربع وحدات سياسية هي:

١. إمارة الرها: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حين أرسل أميرها الأرمني «ثورس» إلى الأمير بدلوين أحد الأمراء الصليبيين يدعوه للحضور إلى الرها لمساعدته ضد السلاجقة، فلبّى بدلوين دعوته، وما ثبّت أن دبر هذا مؤامرة ضد ثورس حتى قتلها ونصب نفسه أميراً على الرها.<sup>(١)</sup>
٢. إمارة انطاكية: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حين احتل الصليبيون المدينة، وكانت تحت حكم الأمير السجلوني ياغي سيان، وانتصب الأمير بوهمند أميراً عليها<sup>(٢)</sup>.
٣. مملكة بيت المقدس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م حين احتل الصليبيون مدينة بيت المقدس، وكانت تحت حكم الفاطميين، واقيم الأمير جودفري بوابيون ملكاً عليها.
٤. إمارة طرابلس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م حين احتلها الصليبيون وكانت تحت حكم الفاطميين - بعد أخذها من حاكمها ابن عمار - وانتصب الأمير برتران أميراً عليها.<sup>(٣)</sup>

وقد أحدث الاحتلال الصليبي هذا رد فعل قوي في العالم الإسلامي، فبرزت

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٠٤، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٤، ١٣٧ محمد العمروسي، الحروب الصليبية في الشرق والمغرب، ص٥٦-٥٧.

(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥، ابن الأثير، الكامل، ج٨ ص١٨٦، محمد العمروسي، الحروب الصليبية، ص٥٧، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص١٥٧، ١٦٧.

(٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٣، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص٣٠٨، ٢٠٣.

حركة جهاد قادها عماد الدين زنكي أتابك الموصل، وتمكن هذا المجاهد من فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ مـ، فسقطت بذلك أول أمارة صليبية نشأت في المشرق<sup>(١)</sup>  
ثم قاد حركة الجهاد من بعده ابنه نور الدين محمود، فاستعاد العديد من المدن والقرى من أيدي الصليبيين.<sup>(٢)</sup>

تم ما لبست حركة الجهاد أن أخذت بعدها أكثر قوة وتنظيمًا، وذلك عندما استطاع السلطان صلاح الدين الأيوبي توحيد جهود مصر ولاد الشام تحت قيادته، بعد أن عاد بمصر إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد منهاً بذلك حكم الخلافة الفاطمية في القاهرة، وقد شن حرباً طاحنة ضد الصليبيين تجعّل خلالها في استعادة بيت المقدس والكثير من مناطق بلاد الشام في اعقاب معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ مـ<sup>(٣)</sup>. ويفتح بيت المقدس خسر الصليبيون عاصمة مملكتهم، فاتخذوا من عكا عاصمة لهم، وذلك بعد أن أعادوا احتلالها للمرة الثانية سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ مـ.<sup>(٤)</sup>

وقد تأرجحت حركة الجهاد بعد صلاح الدين بين مد وجزر، فلم يكن بعض من تولى الحكم من بعده يستواه القيادي، أو يستوي حرصه على متابعة الجهاد والحفاظ على مقدسات المسلمين، كالسلطان الكامل الذي سلم بيت المقدس سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ مـ<sup>(٥)</sup>، وبعد أن حررها الملك الناصر داود (ملك الكرك) سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ مـ<sup>(٦)</sup>.  
هذا السلطان الصالح اسماعيل (ملك دمشق) حذى السلطان الكامل فأعاد تسليم بيت المقدس - ومناطق أخرى في بلاد الشام - إلى الصليبيين من جديد وذلك سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ مـ<sup>(٧)</sup>، ويقيس بيت المقدس بأيديهم إلى أن حررها الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ مـ<sup>(٨)</sup>.

ثم عادت حركة الجهاد ضد الصليبيين تقوى وتشتد حتى بلغت الذروة عندما حمل

(١) ابن الأثير، الكامل ج٩، ص.٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص.١٧، ٢١، ٣٢...، محمد العمروسي، المروءة الصليبية، ص.٦٩-٧١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص.١٧٧-١٧٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص.٢١٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص.٢٤١-٢٤٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص.٢٤٦.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص.٣٣٢-٣٣٧.

رأيتها المماليك الذين تمكنوا من تحرير بلاد الشام من براثنهم. وكانت المعاقل الصليبية عند قيام الدولة المملوكية سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م. تمت على طول الساحل الشامي من قيليقية شمالاً وحتى يافا جنوباً، ويعرض متفاوت، وتشكلت من وحدتين سياسيتين هما:

١. مملكة بيت المقدس: وعاصمتها عكا، ولم تكن هذه العاصمة تتمتع بسلطة مركزية بحيث تهيمن على جميع المعاقل الصليبية داخل نطاق حدود المملكة، إذ أن النظام الذي كان يسودها هو النظام الإقطاعي المبني على نفط النظم الإقطاعية التي عرفها الصليبيون وعاشوها في غرب أوروبا قبل مجئتهم إلى الشرق، ولذلك فقد تألفت مملكة بيت المقدس من عدة إمارات إقطاعية، كيافا وأرسوف وقيسارية وصور وبيروت إلى جانب عكا ذاتها، وفضلاً عن حصون وقلاع، كالقرى وتبنيں والشقيف وغيرها خاصة بفرق الصليبيين العسكرية والدينية وأهمها فرقتا الداوية<sup>(١)</sup>، والاسبارتارية<sup>(٢)</sup> وكانت هذه الفرق تتمتع بالاستقلال عن الملكية وتتبع للبابوية مباشرة<sup>(٣)</sup>.

(١) الداوية: (جمعية فرسان المعبد) فرقة دينية عسكرية، أسسها الفارس هيو باتز سنة ١١١٨م، عندما رفض الملك بلهدين الأول ملك بيت المقدس الصليبي السماح له ولرفاقه النزول في جناح من اجنحة القصر الملكي في ساحة المعبد - المسجد الأقصى - ثم أصبحت طائفة مستقلة اتخذت من الصليب الأحمر شارة لها، وقد تألفت من ثلاثة طبقات هي: الفرسان، والأجناد، ورجال الدين، واشتركت في جميع الأعمال الحربية التي قامت بها مملكة بيت المقدس. (رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) الاسبارتارية: فرقة دينية عسكرية، أسسها جيبار أحد الفرنج الغربيين في بيت المقدس سنة ١٠٧٠م، وقد تأسست أولاً في نزل يعود لحجاج الفرنج ليأوي إليه الحجاج الفقرا، وبعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس، تحول القائمون على هذا النزل إلى طائفة مستقلة تتبع البابا مباشرة، وخصص لها رجال الكنيسة عشر دخلهم، وبعد أن توفي جيبار مؤسساًها الأول سنة ١١١٨م. تولى أمرها الفرنسي ريموند لي بويه فتقرر في عهده أن تتحول إلى طائفة من الفرسان لتعال المسلمين واتخذوا من الصليب الأبيض شارة لهم (رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤٨).

(٣) عمر توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص ٨٤.

أما عن الأحداث السياسية التي عاشتها هذه المملكة عند قيام الدولة المملوكية، فبدأت منذ وصول الملك الفرنسي لويس التاسع إلى عكا سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٤٨ م قادماً من مصر على أثر الاتفاق الذي كان قد عقده مع شجر الدر، وقد أجمع الصليبيون على الاعتراف به حاكماً فعلياً لمملكة بيت المقدس، وكان الحكم قبل وصوله من حق كنراد إمبراطور المانيا، وكانت تتمثل في الوصاية على عرشها الملكة اليis ملكة قبرص، وبوفاتها، انتقلت الوصاية إلى ابنها هنري الذي عين ابن عمه يوحنا سيد أرسوف نائباً عنه في إدارة مملكة بيت المقدس، فسلم يوحنا هذا عن طيب خاطر زمام الحكومة إلى الملك لويس، وإن لم يتحدد مطلقاً ما كان له من وضع قانوني، لأن الاعتراف به حاكماً أعلى لم يتم إلا أثناء غياب كنراد، الذي استمر الحكم من حقه من الناحية الشرعية بالنسبة لهم<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر فإن الملك لويس عمل على تحصين مدن عكا وحيفا وقيسارية وصيدا، تحسباً لأى هجوم قد تشنّه عليهما القوات الإسلامية، ثم دخل في تحالف مع الملك المعز أبيب ضد الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، إلا أن هذا التحالف مالبث أن انهار من أساسه بعد الاتفاق الذي تم بين المعز أبيب والناصر يوسف - كما ذكرنا في الفصل السابق<sup>(٢)</sup> - وقد أعطى ذلك فرصة لانتقام الملك الناصر يوسف من الملك لويس فوجه قواته للإغارة على معاقل الصليبيين عند يافا وارسوف وعكا وصيدا، بحجة عدم وجود صلح أو مهادنة بينه وبين الصليبيين، فردّ الملك الفرنسي بالإغارة على نابلس، علماً بأنها كانت من نصيب المالك في الاتفاقية التي عقدت مع الملك الناصر، وقد عزا الدكتور سعيد عاشر هذا الاعتداء إلى استياء الملك الفرنسي من موقف المالك بعد اتفاقهم مع الملك الناصر<sup>(٣)</sup>. على أن الملك الفرنسي نجح في عقد هدنة مع الناصر يوسف سنة ١٢٥٤هـ / ١٢٥٢ م مدتها سنتان وستة أشهر وأربعين يوماً، ثم عاد بعد ذلك عكا عائداً إلى فرنسا بعد أن ترك وراءه «جفرى مارجينس» ليكون ممثلاً له<sup>(٤)</sup>.

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج. ٣، ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج. ٣، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) سعيد عاشر، العصر المالكي في مصر والشام، ص ٥٦.

(٤) رنسيمان، م.ن، ج. ٣، ص ٤٨٤-٤٨٥، سعيد بر جاري، الحروب الصليبية في الشرق، ٥٨٠-٥٨١.

وفي أعقاب رحيله عقد يوحنا ابلين كونت يافا والوصي على مملكة بيت المقدس باسم ملك قبرص هدنة مع الملك الناصر مدتها عشر سنين، ولم تدخل فيها يافا في بداية الأمر بسبب رفض الناصر لذلك، ثم دخلتها في السنة التالية ١٢٥٣هـ / ١٢٥٥م في أعقاب تعرض قوات الناصر في بيت المقدس للهزيمة من قبل كونت يافا وممثل الملك لويس في عكا<sup>(١)</sup>.

وتطورت الأحداث سريعة في عكا بعد ذلك فقد جرت فيها حرب أهلية بين الجنوية والبنادقة سنة ١٢٥٤هـ / ١٢٥٦م، وما زاد في حدتها انضمام البيازنة وأمير صور والإسبتارية إلى جانب الجنوية، فيما انضم أمير أنطاكية - طرابلس والداوية وفرق صليبية أخرى إلى جانب البنادقة، وامتدت الحرب على طول الساحل الشامي الذي يسيطر عليه الصليبيون براً وبحراً، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م.<sup>(٢)</sup>

## ٢. إمارة أنطاكية - طرابلس:

وكانت كل منها إمارة مستقلة، وعندما توفي الأمير ريموند أمير طرابلس سنة ١١٨٣هـ / ١٢٥٤م. ولم يترك ولداً، خلفه في حكم طرابلس الأمير بوهمند ابن أمير أنطاكية بوهمند الثالث<sup>(٣)</sup>، وعندما توفي بوهمند الثالث سنة ١٢٠١هـ / ١٢٩٨م انتصب ابنه بوهمند الرابع أميراً على أنطاكية وطرابلس معاً<sup>(٤)</sup> إلى أن توفي سنة ١٢٣١هـ / ١٢٢٣م فخلفه ابنه بوهمند الخامس<sup>(٥)</sup>، وظل يحكم حتى وفاته سنة ١٢٥٢هـ / ١٢٥٢م فخلفه ابنه بوهمند السادس وهو الذي عاصر أهم الأحداث مع الدولة المملوكية، ثم تلاه ابنه بوهمند السابع، ثم ابنته لويساً - ابنة بوهمند السادس -.

أما النظام السياسي في هذه الإمارة، فهو النظام ذاته الذي عُرف في مملكة بيت المقدس (عكا) فقد تألفت من مدن اقطاعية كجبيل واللاذقية والسويداء وطرطوس وغيرها وكذلك من حصون وقلاع للداوية والاسبتارية كغراس والأكراد وعكا وصافيتا

(١) رنسيمان، المصدر نفسه، ج١، ص٤٨٥، سعيد بر جاوي، الحروب الصليبية في الشرق، ص٥٨١.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٦٢، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٩٠.

(٣) سعيد بر جاوي، الحروب الصليبية، ص٤٠٣.

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، ج٣، ص٢٤٢.

(٥) رنسيمان، المصدر نفسه، ج٣، ص٣٦٠.

واللد، والمرقب، وغيرها علاوة على أنطاكية وطرابلس ذاتهما.  
وإلى جانب المعاقل الصليبية هذه في بلاد الشام كانت هناك مملكة أرمينية  
الصغرى في إقليم قيليقية بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وامتدت حتى حدود  
أنطاكية، وقد تحالفت هذه المملكة النصرانية مع الصليبيين في بلاد الشام ضد  
المسلمين، مما جعل المالك يعاملونها كمعاملتهم للصليبيين.”

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٥.

### الفصل الثالث

## مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس

أضحت سلطنة المماليك بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة من قبل السلطان الظاهر بيبرس في صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة بسيادتها، مما أضاف إليها الصفة الشرعية وأكسبها أهمية كبيرة في نظر المسلمين كافة<sup>(١)</sup>، وغدا السلطان الظاهر بيبرس الزعيم الذي أنيط به حمل لواء الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية. فقد جاء في كتاب تقليد الخليفة العباسي الجديد المستنصر بالله، له: «وما يجب أيضا تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحت على الأمة فرضا، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحف مبيضا، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي (لا لغو فيها ولا تأييم)<sup>(٢)</sup>». وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضا، اسرعت في سواد الحساد، وعرفت منك عزيمة هي أمضى مما تحبنيه ضمائر الأغمام، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان حمى الإسلام من أن يبتذل، ويعزمه حفظ على المسلمين نظام هذه الدولة وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول، فايقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبعا لا تابعا، وأيد كلمة التوحيد فما تجده في تأييدها إلا مطينا ساما...»<sup>(٣)</sup>.

ولما كان الصليبيون لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، ومغول فارس بزعامة هولاكو يعتقدون على حدود الدولة الإسلامية عبر بوابتها الشرقية والشمالية في ذات الوقت، فقد وضع السلطان الظاهر بيبرس -حاملاً لواء الجهاد- نصب عينيه مواجهة هذين العدوين في آن واحد، وفي سبيل ذلك سعى إلى تأمين موقفين على جانب كبير

(١) سعيد عاشر، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٣.

(٢) سورة الطور، الآية ٢٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الظاهر، ص ١١٧-١١٨، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٥-٣٠٦.

من الأهمية، الأول داخلي بحيث يقيم جبهة داخلية مترادفة تتحدد فيها جهود المسلمين في مصر وبلاط الشام، ولما كان الملك الأيوبي المغيث عمر صاحب الكرك لم يزل يشكل خطراً على نظام حكمه - وبخاصة بعد أن أضحي المغيث الزعيم الأيوبي الوحيد الذي ظل متخفياً للانقضاض على مصر، بعد وقوع الناصر يوسف صاحب دمشق في أسر المغول - فقد عمل على التخلص منه أولاً. أما الثاني فهو تأمين موقف خارجي يستطيع من خلاله إحكام الحصار حول الصليبيين في بلاد الشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلكم من الشرق أو الغرب، هذا فضلاً عن مساعدته على الوقوف في وجه مغول فارس. فاتجه منذ سنة ١٢٦٣هـ إلى عقد سلسلة من الأخلاق والاتفاقات مع الملوك المجاورين وغير المجاورين.

فيبدأ بعقد حلف دفاعي مع الإمبراطور البيزنطي «ميخائيل باليلوجنس» لعلمه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين في بلاد الشام، وعندما اعتنق برقة خان زعيم مغول القفجاق الإسلام مع قبيلته، سارع بيبرس بعقد حلف معه ضد مغول فارس للحيلولة دون قيامهم بالاعتداء على حدود دولته أو تقديم المساعدة للصليبيين، كذلك عقد بيبرس اتفاقاً مع الملك «مانفره هونتيشتافن» ملك صقلية ونابلي يقضي بتعهد مانفره بعرقلة سبيل أية حملة صليبية جديدة تحاول الخروج من أوروبا وتنبيه السلطان عن أي نشاط صليبي يظهر في أوروبا بقصد مساعدة الصليبيين في بلاد الشام، كما عقد اتفاقاً مع دولة السلاجقة بآسيا الصغرى التي كانت على عدا مع مغول فارس وملكة أرمينية الصغرى.<sup>١١</sup>

على أن السلطان بيبرس لم يكن لينتظر تحقيق هذه المواقف حتى يبدأ جهاده ضد الصليبيين - موضوع دراستنا - بل بدأ مرحلة عسكرية أولى معهم أثناء سعيه ذاك، مال فيها إلى مهاونتهم على بعض الجبهات وشن هجمات عسكرية على جبهات أخرى، وبعد أن حقق ما كان يصبو إليه بدأ مرحلته الثانية معهم وهي مرحلة الحرب الشاملة.

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٣، مصر في عصر دولة المماليك البحريية، ص ٦١-٦٢.  
مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٠.

## مرحلة المهدانات والهجمات العسكرية الأولى:

بدأت هذه المرحلة عندما توجه السلطان الظاهر إلى بلاد الشام سنة ١٢٦٩هـ / ١٢٦١م. إذ لما نزل بمنطقة العرجا في جنوب فلسطين، أسرع أمير يافا «سيرجوان دبلين» بانفاذ رسالته يسأل الأمان للحضور بين يديه، فرحب السلطان بذلك وأرسل له أتابكه كي يرافقه في حضوره، فلما حضر تلقاه باحتفاء وتكريم، ثم كتب له منشوراً بالبلاد التي كان يحكمها ورده سالماً إلى يافا.<sup>(١)</sup>

وقد شجع هذا الموقف بقية حكام الصليبيين، فحضر إليه عندما وصل إلى دمشق رسول من جهة عكا يسأله أماناً للرسول المتوجهين إليه من كافة المعاقل الصليبية، فاستجاب السلطان لذلك، وكتب إلى واليه على بانياس يأمره بتمكينهم من الحضور، فحضر أكابرهم والتمسوا الصلح وسائله إعادة العسكر الذي كان قد انفذه للإغارة على بلادهم من جهة بعلبك في وقت سابق، ولما كان السلطان قد اتخذ سياسة المهدنة معهم في هذه المرحلة فضلاً عن غلاء الأسعار في بلاد الشام في تلك السنة، هذا في الوقت الذي كانت فيه معاقلهم مصدراً لجلب كثير من السلع، فقد وافق على الصلح وعقد مهدنات مع أمرائهم في عكا ويافا وبيروت «فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية (الناصر صلاح الدين) وإطلاق الأسرى من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة (أي من سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م - ٦٥٩هـ / ١٢٦١م). وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم»، وكانت النتيجة أن أمنت السبل وكثُرَ الجلب.<sup>(٢)</sup>

ولكي يضع السلطان الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ شرع في جمع أسرى الصليبيين ثم انفذهم إلى مدينة نابلس تمهيداً لمباولتهم بالأسرى المسلمين الذين في أيدي الصليبيين، إلا أن الصليبيين أخذوا ياطلون في تسليم الأسرى المسلمين، مطالبين بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضاً مطالبهم: «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية (عشر ضياع) من مرج عيون، وقايستم صاحب تبنيين بواضع، والمقايسة في أيديكم فكيف تطلبون العوض مرتين؟ فإن

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٧-١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧.

كنتم باقين على العهد، وإنما لنا شغل إلاّ الجهاد» ولما طال الأمر معهم دون نتيجة أمر بإعادة الأسرى من نابلس إلى دمشق واستخدامهم في العمائر.<sup>(١)</sup>

لقد جاء هذا الموقف السلبي من جانب الصليبيين لكي لا يطلقوا سراح أسرى المسلمين لاعتمادهم الكبير عليهم، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهراً، وكان السلطان مدركاً ل موقفهم ذاك، وقد واجههم بحقيقة وعنفهم لعدم تمكين أسراه من العودة إليهم قائلاً لهم: «ولم ترحموا أهل ملتكم من الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم».<sup>(٢)</sup>

ويفشل المفاوضات معهم، انفذ السلطان الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم وعلى العرب الزيديين الذين كانوا يساعدونهم.<sup>(٣)</sup>

ثم تطلع السلطان للانتقام من بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس بسبب تحالفه مع المغول ضد المسلمين، ولما ارتكبه من أعمال عدوانية في شمال بلاد الشام، فأرسل إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي - الذي كان قد انفذه على رأس قوات عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي اصابتها - يأمره بالتوجه إلى انطاكية ومهاجمتها، وانضم إليه لتنفيذ هذه المهمة صاحب حمص وحmate فنازلها شمس الدين وسيطر على مينائها، وأحرق المراكب الراسية فيه بعد أن استولى على ما بها من حواصل، وكادت انطاكية تقع في يده لو لا تدخل هيشوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذي استنجد بالمغول، مما جعل الأمير شمس الدين ينسحب عنها<sup>(٤)</sup>، ويتجه إلى مدينة السويداء التابعة لها، فحاصرها ثم دخلها عنوة بالسيف وقتل عدداً من الصليبيين فيها، ثم عاد إلى القاهرة - بعد عودة السلطان إليها - ومعه أكثر من مائتين وخمسين أسيراً من الصليبيين.<sup>(٥)</sup>

وعاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام مرة أخرى سنة

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨-١١٩، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧..

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٠، ابو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٣٣، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٥١-٥.

١٢٦٣هـ/١٢٦١م، وقد استمر في اتباع سياسة المناورة مع الصليبيين إذ لم يكن قد انتهى بعد من أمر الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وتطبيقاً لهذه السياسة، استقبل وفداً منهم جاء لتهنئته بالسلامة، وقد تعلل أعضاء الوفد عن تأخرهم عنه بقولهم له: «ما عرفنا بوصول السلطان»، فرد عليهم السلطان رداً أشعرهم فيه بقوة جيشه ليزدادوا هلعاً ورعباً قائلاً لهم: «إن من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحش في الفلاة، والحيتان في المياه، من كثرة هذه العساكر التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكتس منه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر، ولعل وقع سبابكها قد أصمَّ أسماع من وراء البحر من الفرج، في مرغان من القتار، إذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرُون فَأَيْ شَيْءٍ تَعْلَمُونَ؟»

كما استقبل نواباً من يافا وأرسوف وتقبل هداياهم تطبيباً لهم وتسكيناً لقلوبهم وقد أصدر أوامره إلى قواته العسكرية بعدم النزول في زروعهم أو التعرض لها أو رعي خيولهم بها أو التعرض لمواشيهم، كما أمرهم الرفق بفلاحيهم، لعل ذلك يعيدهم عن الغي الذي هم فيه.

وكان الصليبيون قد بلغ من صلفهم أن «كانت كتبهم قبل توجه السلطان مضمونها طلب فسخ الهدنة والندم عليها، وصارت عند قرب السلطان ترد كتبهم بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذیال المواثيق».<sup>(١)</sup>

واستمر السلطان يحتمل موقفهم هذا إلى أن تمكن من إلقاء القبض على الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعندئذ اتخذ منهم موقفاً صارماً، فقد أحضر رسليم و قال لهم: «ما تقولون؟ فقالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا، فرد عليهم: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان؟» وبعد أن ذكرهم بسوء أفعالهم، اشترط عليهم شرطاً جديداً لاستمرار الهدنة معهم وهو رد المعاقل التي كانوا قد أخذوها صلحًا من الملك الصالح اسماعيل سنة ١٢٤٠هـ/١٢٣٨م، وهي صندوق الشقيق وما يتبعهما من بلاد لأنهم قد حصلوا عليها مقابل نجدة الصالح اسماعيل ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب.<sup>(٢)</sup>

فلما سمعوا قوله هذا بهتوا، إذ كانوا يسعون من خلال عقد هذه المهدادات إلى

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٦، ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ص ١٤٦، ١٥٩.

ترسيخ أقدامهم في بلاد الشام والحصول على مكتسبات جديدة ظنا منهم أن السلطان يهادنهم لضعف فيه، ففوجئوا والحالة هذه بأن السلطان يسعى إلى سحب البساط من تحت أقدامهم، ولذلك رفضوا رد العاقل التي بآيديهم مكتفين بالموافقة على تبادل الأسرى فقط.

وأذا، هذا الرفض أمر السلطان بطرد رسلهم من حضرته، وأصدر من فوره أمراً بهدم كنيسة الناصرة، وأنفذ لهذه المهمة الأمير عز الدين طيبرس في قوة عسكرية، فهدمها وسوّاها إلى الأرض، ثم أنفذ الأمير بدر الدين الأيدمرى في قوة عسكرية إلى عكا لهاجمتها، فنازلها وهاجم أبوابها واستنقاك الكثير من مواشيه وعاد إلى مخيم السلطان -قرب جبل الطور-.<sup>(١)</sup>

ولم يكتفى السلطان بهذه الغارة، بل خرج بنفسه على رأس فريق من فرسانه للاستيلاء على عكا<sup>(٢)</sup>، فهاجمها وحرق أشجارها وزرروعها إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها فاكتفى بما حققه وعاد أدراجه إلى القاهرة بعد أن زار بيت المقدس، وقد عين قبل رحيله الأمير ناصر الدين القيمي نائباً للسلطنة بالفتحات الساحلية.<sup>(٣)</sup>

ولم تغفر العلامات معهم بعد عودة السلطان إلى القاهرة، بل استمرت على الأسلوب ذاته ففي سنة ٥٦٢هـ/١٢٦٤م، سأل الصليبيون في المنطقة الساحلية من فلسطين ومنها قيسارية، نواب السلطان إذن لهم بزراعة البلاد وتقويتها من أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلات، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد.<sup>(٤)</sup>

وفي السنة ذاتها أغارت قوة عسكرية إسلامية بأمر من السلطان على جهات أنطاكية فغنت وقتلت وأسرت، كما أغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير ناصر الدين القيمي على عكا، وأغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير عز الدين الشجاعي على منطقة الخيط (وهي جزء من الغور الأعلى في الشمال الشرقي من

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٦-١٥٨، أبو النداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٧، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٦.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٦٢.

(٤) م.ن، ص ١٨٧.

فلسطين كانت تحت الاحتلال الصليبي).<sup>(١)</sup>

وفي محاولة للحد من الهجمات الإسلامية أخذ الصليبيون يشنون الهجمات المعاكسة على المعاقل الإسلامية، فقد أغارت قوة منهم من فرسان الداوية والاسبارارية في عكا على إقليم عسقلان<sup>(٢)</sup>، فرداً الأمير ناصر الدين القيمرى بالإغارة على عثليث وقيساريه<sup>(٣)</sup>، وهاجم الصليبيون منطقة بيسان ونهبوها وعادوا إلى عكا محملين بالغنائم<sup>(٤)</sup>، واعتدى الصليبيون الذين هادنوا الأمير ناصر الدين القيمرى على جماعة من المسلمين وأسرموا عدداً منهم واستولوا على أموالهم ومواشيهم، فسير إليهم الأمير ناصر الدين يتهددهم بقوله لهم: «نحن هادنكم كما سألتم المدة التي طلبتموها، وهذه الأخيرة كانت في مدة الهدنة»، فأرسلوا وزير قيسارية ليتحدث في الأمر، فما كان من الأمير ناصر الدين إلا أن أمسكه عنده، ولم يطلقه إلاً بعد أن رد الصليبيون جميع ما أخذوه.<sup>(٥)</sup>

#### مرحلة الحرب الشاملة:

حقق السلطان الظاهر بيبرس مقصده من المرحلة الأولى بنجاح كبير، فقد تمكن من تأمين سلامة الجبهة الداخلية، كما أمن موقفاً خارجياً مؤيداً له ضد الصليبيين، ولذلك لم تعد المرحلة الأولى هذه ذات نفع أو أهمية، فقرر الانتقال إلى مرحلة الحرب الشاملة، وهي مرحلة التصفية والتحرير.

#### فتح قيسارية:

بينما كان السلطان الظاهر بيبرس يصطاد في جهات العباسة سنة ٦٦٣هـ /

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٧٨.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٤٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٧٨.

١٢٦٥ م وصلته الأخبار بهجوم المغول على بلاد الشام عبر حدودها الشمالية، فأسرع بالعودة إلى القاهرة لجمع قواته وإعدادها تمهيداً للخروج على رأسها لصدّهم، وكانت قواته العسكرية متفرقة في البلاد المصرية، فيما كانت الخيول قد أرسلت إلى المراعي. الواقع أن الصليبيين كان لهم دور كبير في حث المغول على القيام بهذا الاعتداء إذ أنهموهم بأن عساكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركة، غير أن السلطان بفضل تنظيمه للبريد قد نجح في جمع قواته بوقت قياسي «وما علموا أن لإسلام ملكا يحمل النفس على المشاق، وإذا ساق إلى جهة يخيل أنه ركب على البرق أو البراق». ويتكمّل أعداد قواته خرج بها في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٣ هـ / مستهل ١٢٦٥ م. وعندما دخل فلسطين وصلته الأخبار بتمكن قواته المراقبة في البيرة في شمال الشام من صد المغول، عندئذ قرر مهاجمة الصليبيين في المنطقة الساحلية مستفيضاً من استعداد قواته للقتال، فبعد أن قطع بجيشه نهر العوجا حط رحاله قريباً من غابة أرسوف مظهراً التلهي بالصيد، ويسريّة تامة ساق في قوة عسكرية إلى أرسوف ثم قيسارية فكشف منطقتهما تمهيداً لهاجمتهم، ثم عاد مسرعاً إلى معسّكه وكتب من فوره إلى القلاع الإسلامية القرية بطلب المجانق والصناع والمحاربين، كما أمر الصناع في معسّكه بصناعة المجانق والسلام. ويتكمّل تجهيزاته تحرك بالجيش إلى أن وصل قريباً من عيون الأسوار، وعند حلول الظلام أمر الجيش بلباس آلة الحرب والاستعداد في أقصى درجاته، ويسريّة تامة تحرك قبيل الفجر إلى قيسارية، فوافاها على حين غفلة من أهلها بكرة نهار يوم الخميس ٩ جمادى الأول / ٢٨ شباط من السنة ذاتها. وبعد أن ضرب حصاره حولها من جهاتها البرية ونصب عليها المجانق شرع في مهاجمتها.

وفي أثناء ذلك قام بإنفاذ الأمير شهاب الدين القميри على رأس قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلته الصليبيين فيها لمنعهم من تقديم أية مساعدة لقيسارية.<sup>(١)</sup> وتمكن جموع المجاهدين من تجاوز خنادق قيسارية واعتلاء أسوارها باقتدار كبير رافقه رفع الأعلام فوقها وسط ذهول الصليبيين وفزّعهم. وعbeschا حاولوا المقاومة، فقد تمكّن المجاهدون من إحرق أبواب المدينة والاندفع إلى داخلها في نفس يوم الخميس<sup>(٢)</sup>،

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢٢-٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨-٨٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨، أبو شامة، الدليل على الروضتين، ص ٢٣٣، ابن شداد، الأعلاق الخطير، ص ٢٥٢.

فما كان من الصليبيين الا أن هربوا إلى قلعتها وتحصنوا بداخلها ، وكانت هذه القلعة التي عرفت بالخضراء ، تمتاز بالحصانة والمنعة فضلاً عن وقوعها على حافة البحر ، فزحف السلطان بقواته وحاصرها ، ونصب عليه المجانق ، كما استخدم الدبابات ذات العجلات ، والزحافات في هجومه عليها ، وكمنت وحدة من رماة النشاب فوق كنيسة قبالة القلعة لمنع الصليبيين من اعتلالها ، وبلغت مرحلة القتال ذروتها عندما خاض السلطان عباب البحر على رأس كوكبة من فرسانه لشل حركتهم " وأخذ في بعض الأيام في يده ترسا وقاتل ومارجع الا وفي ترسه عدة سهام "<sup>(٢)</sup> وتحت وطأة الحصار والرمادية الشديدة اضطر الصليبيون إلى الهرب من القلعة باتجاه عكا بحرا ، فدخلتها القوات الإسلامية في يوم الخميس منتصف جمادى الأولى / ٤ آذار من السنة ذاتها ، وأذن عليها الصلاة فجر يوم الجمعة.<sup>(٣)</sup>

وبعد هذا الفتح المؤزر شرع السلطان بهدم المدينة والقلعة بعد أن قسم ذلك على عساكره وماليكه ، وقد شارك بنفسه في عمليات الهدم ، ثم ملك سائر أعمالها للأمراء الذين حضروا حصارها والغابرين عنه بالبيرة الذين صدوا المغول.<sup>(٤)</sup>

و قبل أن يفرغ من هدم المدينة وقلعتها سير الأمير سنقر الألفي والأمير سيف الدين المستعربي في قوة عسكرية إلى الملوحة بالقرب من حيفا لهدم قلعة للصلبيين هناك ، وكانت قلعة عاتية عاصية ، فهدمت ودكت إلى الأرض.<sup>(٥)</sup>

ثم سير الأمير سنقر الألفي مرة أخرى في قوة عسكرية إلى حيفا فهاجمها ودخل قلعتها «فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر وأحضرت الأساري والرؤوس وأخرجوها المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها وجعلوها خاوية على عروشها». وفي الوقت ذاته كان السلطان ينطلق بنفسه على رأس قوة عسكرية إلى عثليث

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١-٢٣٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٩، ابو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢، ابو شامة، الدليل على الروضتين، ص ٢٣٣، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٢٥٤، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٦٧.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٠٧، المقرizi، السلوك، ج ١، ص ٥٣٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤، المقرizi، السلوك، ج ١، ص ٥٢٧-٥٢٨.

فأغار عليها «وأمر بتشعيشها وقطع أشجارها، فقطعت جميعها وخربت ابنيتها في ذلك النهار» ثم عاد إلى قيسارية لاستكمال هدم قلعتها.<sup>(١)</sup>

### فتح أرسوف:

ما أن انتهى السلطان الظاهر من تدمير قيسارية حتى تحرك في أوج انتصاره الكبير وبسرعة تامة صوب أرسوف جنوباً، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م وضرب حصاره على امتداد جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق.<sup>(٢)</sup> وقد اتبع السلطان خطة عسكرية محكمة لاقتحامها، وصفها المقريзи بقوله: «نقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالمجبال الشاهقة وعمل منها ستائر وحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقفه بالأخشاب، وسلم أحدهما للأمير سنقر الرومي... وسلم الآخر للأمير سيف الدين قلاون... وعمل السلطان طريقاً من الخندقين إلى القلعة وردمت الأحطاب في الخندق، فتحليل الفرنج وأحرقوها كلها، فأمر السلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر، وعمل سروباً تحت الأرض يكون حائطاً خندق العدو ساتراً لها، وعمل في الحائط أبواباً يرمي التراب منها وينزل في السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق، وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك، وولى أمره للأمير عز الدين أبيك الفخرى، فاستمر العمل، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده في الحفر وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار، أسوة غيره من الناس وكان يشي بفرد وفدي يده ترس، تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرمي مراكب الفرنج، وكان يجر في المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها، ورمي في يوم واحد ثلاثة سهم بيده...».<sup>(٣)</sup>

وذكر ابن عبد الظاهر من الذين شاركوا في هذا الفتح بقوله «وحضر العباد والزهاد والفقهاء إلى هذه الغزوة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش، بل النساء الصالحات يسكنين الماء في وسط القتال ويجرن في المجانيق».<sup>(٤)</sup>

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤، وليم مور، دولة المالكية في مصر، ص ٤٥.

(٢) المقريзи، السلوك، ج ١، ص ٥٢٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٨.

واستمر المجاهدون يحاصرون المدينة حتى انهارت كل مقاومة كانت لدى حاميتها من فرق الاسبارية إلى أن سقطت المدينة في يوم الخميس ٨ رجب/ ٢٦ نيسان من السنة ذاتها، عندئذ طلب الصليبيون الذين تحصنوا بداخل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم وأمر بجمع سيوفهم، كما أمر بنقل المصابين منهم إلى يافا.<sup>(١)</sup>

"ولما لم يبق بأرسوف أحد من الفرنج أباح القلعة لل المسلمين بما فيها من غلال وذخائر ومال، وكانت بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها إلا لما اشتراه بالله، وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة، وأخذت قيودهم قيد بها الفرنج".<sup>(٢)</sup>

ثم شرع السلطان بتقسيم أراضيها على الأمراء لهدمها، وأمر بأن يتولى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار، فهدمت بأيديهم.<sup>(٣)</sup>

وكتب السلطان إلى قسطنطين يافا كتاباً بأن يكتب إلى صاحبه (أمير يافا)، (بأننا لا نتحمل الهضيمة، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها تلة مرتفعة، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا الفا من المقاتلة لابسة السلاح، وإذا هدموا جداراً هدمنا أسواراً والسيف في يد الضارب، والجود عنانه في قبضة الراكب، ولنا يد تقطع الاعناق، ويد تصل الأرزاق، ومن تحرش فعن تجربة، ومن أراد شيئاً من الأشياء، فهذه الأمور له مرتبة).<sup>(٤)</sup>

وقد حرص السلطان على إبلاغ حلفائه نباء انتصاراته هذه، كملك صقلية وأمبراطور الدولة البيزنطية، وبركة خان زعيم المغول القفجاق، وجمهورية جنوا، الذين ربطتهم به رابطة العدا والكراهية للصليبيين.<sup>(٥)</sup>

ولدى عودته إلى القاهرة أخذ معه الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب

(١) م.ن، ص ٢٤١-٢٤٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٩-٩٠، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٣٢، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٨-٥٢٩.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٧، وليم موير، دولة المالكية في مصر، ص ٤٥.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤٣.

(٣) م.ن، ص ٢٤٣، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٣٢، وليم موير، دولة المالكية في مصر، ص ٤٦.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤٣.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٥.

ليزين بهم موكبه اثناء دخوله القاهرة وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة.<sup>(١)</sup>

#### فتح قلاع حلب وعرقا والقليلعات:

قضى السلطان الظاهر بيبرس فترة قصيرة في القاهرة ثم عاد إلى بلاد الشام في منتصف سنة ١٢٦٤هـ / ١٢٦٤م لمواصلة جهاده ضد الصليبيين وفتح المزيد من معاقلهم، وكان الأمير بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس قد تحرك في أوائل السنة ذاتها للإغارة على حمص بمساعدة فرسان الداوية والاسبارتارية، غير أنه ارتد عنها مهزوماً بعد أن تصدى له نائبها الأمير علم الدين الباشقردي.<sup>(٢)</sup> وأزا، هذا الاعتداء، جرد السلطان عندما وصل إلى غزة قوة عسكرية على رأسها الأمير جمال الدين أيدغudi والأمير سيف الدين قلاون إلى حمص أولاً لرد أي اعتداء قد يشنها بوهمند من جديد ثم أمرهما بالتوجه إلى طرابلس للإغارة على بلادها الساحلية فتحرکا من فورهما إلى أن وصلا قريبا من حمص ثم ارتدوا إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغروا على معقل قریب منه «فأقاموا عليه يوما واحدا، وأخذوه وأسروا به جماعة»، وكان بقلعة حلب جماعة، فهربوا وأخلوها، ودخل العسكر إليها وكسروا منها شيئاً كثيراً... ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلواهم وأخذوا نسائهم، «ولما شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى في حلب نجوا بأنفسهم»، «وما زالت العسكر حتى أخربت القلعتين المذكورتين، ونزلوا على حصن يعرف بالقليلعات، وهو حصن عظيم وتسلمه في رابع شهر رمضان بالأمان، وهدمت أيضاً».

وفي أثناء عودة هذه العسكر كمن الأمير سيف الدين قلاون بالقرب من القليلعات وسير كشافة لمراقبة تحركات الصليبيين، فوجد خمسين منهم قد توجهوا من صافيتا إلى حصن الأكراد لنجدته، فقتلتهم جميعاً وأحضر رؤوسهم إلى السلطان عند عودته، كما أفشل غارة قام بها فرسان الداوية على بعض أفراد قواته، فقتل منهم عدداً وأسر عدداً آخر.

وكان قد انضم إلى العسكر الإسلامية في هذه الغزوة الفارس من الأعراب على

(١) ولهم موير، دولة المعاليلك في مصر، ص ٤٦.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الناهر، ص ٤٥، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٣، رنسيمان، تاريخ المروءات الصليبية، ج ٣، ص ٥٥٢.

رأسمهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وقد أصيب شرف الدين هذا بجرحين فيها. وبالسيطرة على هذه القلاع الثلاث حلباً وعرقاً والقليلات التي كانت تؤلف خط دفاع محكم يحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي لإشرافه على المنفذ الذي يوصل بين طرابلس وحمص، أصبح الطريق مفتوحاً للقوات الإسلامية كيما تضيق الخناق على طرابلس ذاتها تمهيداً لتحريرها من أيدي الصليبيين.

وقد شجعت هذه الانتصارات السلطان الظاهر، فجدد عدداً من الأمراء على رأس قوات عسكرية للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول الساحل الشامي وكانت على نحو ما يلي:

الأمير علاء الدين البندقداري والأمير عز الدين أوغان إلى صور.

الأمير سيف الدين أتامش إلى صيدا.

الأمير بدر الدين بيسرى إلى جهة حصن القررين.

الأمير ناصر الدين القيمي إلى عثليث.

فيما اتجه السلطان على رأس بقية جيشه إلى عكا، ثم إلى قلعة القررين، ولما وجدهما محصنتين، ألقع عنهما باتجاه صفد، فكشف منطقتها ثم عاد إلى معسركه.<sup>(١)</sup> وقد عممت الهجمات الإسلامية بلاد الفرنج من حدود طرابلس شمالاً وحتى المناطق القريبة من أرسوف جنوباً. وغنم المسلمين فيها غنائم كثيرة «وتواتت المكاسب حتى لم يوجد للأبقار والجحوميس من يشتريها» وما كانت هذه الهجمات قد أثرت في الصليبيين تأثيراً كبيراً فقد أرسل مقدم الاستبار بعكا إلى اتابك السلطان لكي يسعى في الصلح. غير أن الجواب الذي أرسل إليه كان يتضمن التهديد والتخويف.<sup>(٢)</sup>

#### فتح صفد:

كان السلطان قبل أن يتحرك إلى صفد قد أنفذ إليها الأمير فخر الدين الشهابي في قوة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة لها، كما أنفذ الأمير فخر الدين الفائز

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٣-٢٥١، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥، King, The Knights Hospitallers in Holly Land, P260.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٣-٢٥٤، المقريзи، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥.

إلى قلعة الشقif في مظاهرة عسكرية لصرف النظر عن وجهته الحقيقة، ولمنع الصليبيين من تقديم أي عون لصفد عند محاصرتها.<sup>(١)</sup>

ووصل السلطان إلى صفد في ٨ رمضان ١٢٦٤هـ / ١٣ حزيران ١٢٦٦م وشرع من فوره بضرب حصاره حولها، وفي اثناء ذلك قدم عليه رسل من قبل أمراء صور وبيروت ويافا يتتمسون موادعته، بيد أن السلطان زجرهم وأنكر على أمرائهم امسوا تنقض العهد معهم، ومن ذلك أنه كان قد اتفق مع أمير صور على أن يشارك الجنوية بحرا في محاصرة عكا (خلافات كانت بين الجنوية والصليبيين في عكا) اثناء هجومه عليها من ناحية البر، إلا أن أمير صور لم ينفذ ذلك، بل أعاد فرقة من الصليبيين للإغارة على بانياس، وقتل غلاما له (السلطان) داخل إمارته.

وأما أمير بيروت فرد على رسوله: «إن صاحبكم الذي كان متفقا معنا قد هلك»، وأنكر عليهم تعرضهم لمركب من مراكب أحد قواده، إذ غدروا بأهله وأخذوه، وأما أمير يافا، فأنكر عليه نصبه المجانيف على قلعة يافا مع أنه في صلح، فعاد الرسل دون تحقيق الهدف الذي قدموا لأجله.<sup>(٢)</sup>

وما أن وصلته المجانيف التي كان قد طلبها من دمشق (في ٢١ رمضان / ٢٦ حزيران) حتى نصبها حول صفد، وأول ما بدأ به قصف بيت مقدم الداوية فيها. ويتکامل عودة قواته التي أنفذها للإغارة على معاقل الصليبيين شرع بشن هجومه الأول عليها في ٢ شوال / ٧ تموز مستخدما السهام والرماح المشتعلة بالنقط، وقد وعد المغاربة «أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة». واشتد القتال عليها ليلاً، وقاد السلطان بنفسه هجوما على خندق الباشورة (سد ترابي) إلا أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، فيما حقق فقط احداث نقوب في أسوارها.

ونتيجة لكثره المراجع التي حدثت بين صفوف مقاتليه، فقد أمر بنصب خيمة جعل فيها الحكماء والجرائحة لمداواتهم.

ثم شن هجوما ثانيا في ٨ شوال / ١٣ تموز فلاقى ذات المصير، إلا أنه نجح في

(١) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٠٨، King, op, cit, p260.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٥، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٦.

عمل جسر اقامه على باب القلعة، وشن بعد ذلك هجوما ثالثا في ١٦ شوال / ١٢٥٣ ولكنه أخفق ايضاً.<sup>(١)</sup>

وتعود أسباب هذا الفشل المتكرر إلى منعه القلعة وقوتها، فقد جددت استحكاماتها من قبل فرسان الداوية قبل خمس وعشرين سنة -قبل تاريخ حصارها- كما أن الحامية فيها كانت وفيرة العدد.<sup>(٢)</sup>

وبإصرار السلطان على اقتحامها قام بشن هجوم رابع في ١٤ شوال / ١٢٥٣، واستمر طوال الليل وحتى صباح اليوم التالي ١٥ شوال / ٢٠ تموز، وتمكن خلال ذلك من الاستيلاء على أسوار البашورة ورفع أعلامه عليها، بعد دحر الصليبيين الذي اندفعوا إلى القلعة وتحصنت بها، واستمر السلطان يناصبهم الحصار ويناهزهم القتال.<sup>(٣)</sup> وأعلن في الوقت ذاته بأنه سيمنح العفو لكل من يستسلم له منهم<sup>(٤)</sup>. عندئذ أرسل الصليبيون -بعد أن تقطعت الأسباب بهم- إلى السلطان يطلبون الأمان، فاشترط عليهم «أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيّات، ولا يؤذوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم» واستمرت المفاوضات معهم إلى ما بعد صلاة يوم الجمعة ١٨ شوال / ٢٣ تموز، حين تمت الموافقة على هذه الشروط، «فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب. وطلعت الصناجق (الأعلام) وكانت ساعة مشهودة ووقف السلطان راكبا على باب صفد ونزل الفرنج أولاً فأولاً، وصاروا جميعاً في يديه، وفي اثناء تفتيشهم وجد بأنهم قد نقضوا شروطه، اذا اصطحبوا معهم أسلحة وبعض أسرى من المسلمين على أنهم نصارى، فأمر السلطان بضرب رقابهم، فضررت على تل قريب من صفد.<sup>(٥)</sup> وكانوا زهاء الفي فارس.<sup>(٦)</sup>

وقد ذكر بعض المؤرخين بأن السلطان الظاهر لم يحل لأهل صفد عندما عرض

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) رنسيمان، تاريخ الغروب الصليبي، ج ٣، ص ٥٥٠-٥٥١.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٩.

(٤) رنسيمان، تاريخ الغروب الصليبي، ج ٣، ص ٥٥١.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٦) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١١٨، وليم مور، دولة المماليك في مصر، ص ٤٧.

عليهم الأمان وإنما أجلس مكانه أحد الأمراء ويدعى «كرمون أناالتري» فجعل لهم  
وهم يظلونه السلطان.<sup>(١)</sup>

وعندما علم أهل عكا بقتل هذا العدد في صفد، أرسلوا إلى السلطان يطلبون  
جثث القتلى قائلين له: «تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل  
البركة بهم، فترك السلطان رسولهم في مخيمه، ثم أخذ كوكبة من الفرسان وساق في  
أول الليل إلى عكا فما أصبح إلا وهو على بابها. فلما فتح الصليبيون الباب وخرجوا  
لقضاء حواتجهم ساق عليهم فقتل منهم عدداً كبيراً وعاد من فوره إلى صفد، فلما دخل  
إلى خيمته طلب رسول عكا وأعاد إليه الرسالة قائلاً له: «عود «عد» إليهم. فقد  
عملنا عندهم شهداً، وكفيناكم مؤونة النقل وكلفته». <sup>(٢)</sup>

واتخذ السلطان الظاهر من مدينة صفد بعد تحريرها مركزاً لنهاية جديدة من  
نيابات الدولة المملوكية في الشام، وولى الأمير عزالدين العلاتي نائباً لها، كما ولّى  
الأمير علاء الدين أيونجي مقدماً لعسكرها، والأمير مجد الدين الطوري نائباً لقلعتها  
وحمل إليها الذخائر والسلاح، كما استدعى الرجال من دمشق للإقامة بها، وقرر نفقة  
رجالها مبلغ ثمانين ألف درهم في الشهر، كما استخدم الأمراء على أعمالها التي  
تشكلت منها في ذلك الحين.<sup>(٣)</sup>

وجاء هذا الفتح المؤزر مكسباً كبيراً للمسلمين، إذ كان هذا المعلم مصدر خطر  
 دائم هدد الصليبيون من خلاله القوات الإسلامية وال فلاحين المسلمين على امتداد عرض  
 فلسطين شمالاً، نظراً لموقعه الحربي المتوسط في قلب الجليل. فضلاً عن منعنه وارتفاعه  
 وقد عبر ابن عبد الظاهر عن سبب اهتمام السلطان بأمر صفد بقوله «لأنها الغصة في  
 حلق الشام والشجا في صدر الإسلام». <sup>(٤)</sup>

(١) البيونبي، ذيل مرآة الزمان، ج. ٢، ص. ٣٣٨، ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص. ١١٧، الكتبى، عيون التواریخ، ج. ٢، ص. ٣٣٦، أبو المحاسن، التحوم الزاهرة، ج. ٧، ص. ٨.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص. ١١٨.

(٣) الكتبى، عيون التواریخ، ج. ٢٠، ص. ٣٦٠، المقريزى، السلوك، ج. ١، ص. ٥٤٧-٥٤٨.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص. ٢٥٤.

## **فتح طبرية وبلاطها وهونين وتبينين والرملة واللد:**

بعد فتح صفد توجه السلطان الظاهر إلى طبرية فاستولى عليها وعلى بلادها المجاورة لها وذلك في الشهر ذاته (شوال / قوز) كما (استولى في شهر ذي القعدة، أواخر آب) على هونين وتبينين ودمريهما بحيث لم يبق لقلاعهما أثراً. ثم استولى في الشهر ذاته على الرملة واللد،<sup>(١)</sup> وانفذ قوة عسكرية إلى حيفا، فقطعت أشجارها، ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى دمشق، وأمر جيشه بعدم دخولها بل التوجه إلى مملكة أرمينية الصغرى مباشرة لتدميرها.<sup>(٢)</sup>

## **تدمير مملكة أرمينية الصغرى:**

كان الملك هيئوم ملك أرمينية الصغرى قد دخل في حلف مع هولاكو زعيم مغول فارس ضد المسلمين، كما دخل في حلف مع الصليبيين في بلاد الشام، وزاد من صلبه أنه اتبع سياسة جديدة ضد المالك في مصر وهي فرض حصار اقتصادي عليهم. وذلك بنع تصدير الأخشاب والمدحيد من آسيا الصغرى إليهم، وقد هدف من وراء ذلك إلى حرمان المالك من إنشاء قوة بحرية، إذ كانت أخشاب الأنماضول تدخل في صناعة السفن الحربية المملوکية. أذاه ذلك ظل السلطان الظاهر بيبرس ينتظر الفرصة المناسبة للانتصاف على مملكة أرمينية وتدميرها، وكان انشغال أبيها ابن هولاكو وخليفته في حكم مغول فارس - بالحرب ضد مغول القفقاق المسلمين من ناحية ومغول التركستان من ناحية أخرى، قد أتاح للسلطان الظاهر الفرصة التي كان ينتظرها،<sup>(٣)</sup> فجهز جيشاً كثيفاً جعل قيادته للأمير سيف الدين قلاوون وللملك الأيوبي المنصور الثاني ملك حماه، للزحف على مملكة أرمينية الصغرى وتدميرها، وبالقرب من دريساك (قلعة حصينة قرب أنطاكية) دارت معركة كبرى بين الجيشين الإسلامي والأرمني في شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ / آب ١٢٤٦م، هزم فيها الجيش الأرمني شر هزيمة وقتل في المعركة الأمير توروس ابن الملك هيئوم الأول، فيما وقع الأمير ليوبولد الآخر أسيراً في أيدي

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص. ٥٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص ٢٦٧.

(٣) سعيد عاشور، المركبة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٧، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣،

السلمين، أما الملك نفسه فكان متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة مغول فارس.<sup>(١)</sup>

وبعد هذه المعركة انقسم الجيش الإسلامي إلى فرقتين، فرقة قادها الأمير سيف الدين قلاوون وتوجه بها إلى مدن أرمينية الرئيسة وهي المصيصة، أذنه، طرسوس، اياس، فهاجمها ودمراها دون مقاومة تذكر. أما الفرقة الثانية فقادها الملك الأيوبي المنصور الثاني وتوجه بها إلى سپس عاصمة أرمينية، فاستولى عليها دون مقاومة أيضاً، وبعد أن نهبتها أشعل النيران فيها.

وبعد أن مكث الجيش الإسلامي مدة عشرين يوماً في أراضي مملكة أرمينية عاد إلى الشام ومعه أربعون ألف أسير وغنائم كثيرة لا تحصى، وغنم العساكر ما لا يُعد ولا يحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين، ولا يوجد من يشتريه، وكانت ذبائح العسكر في كل يوم جملة من البقر والجاموس والأغنام.<sup>(٢)</sup>

وعندما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى السلطان الظاهر، اتجه مسرعاً من دمشق إلى أقامية لاستقبال قواته هناك، ثم عاد على رأسها إلى دمشق.<sup>(٣)</sup>

وكان السلطان في أثناء توجهه للتقى عساكره قد نزل على بلدة قارا الواقعة بين دمشق وحمص، وكان أهلها من النصارى، فشكى إليه أنهم يعتدون على المسلمين في الضياع المجاورة ويبعيون من يقع إليهم للصليبيين في عكا ببيع الرقيق دون أن يراعوا حرمة في ذلك طالما أنهم يعتبرون من رعايا الدولة، فأمر السلطان بنهب أهلها وقتل كبارهم وسبى النساء والأولاد، كما أمر بتحويل كنيستها إلى جامع، ونقل إليها رعية من المسلمين ورتب فيها خطيباً وقاضياً.<sup>(٤)</sup>

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص. ٢٧١-٢٧٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج. ١٣، ص. ٢٤٧، ولهم موير، دولة المماليك في مصر، ص. ٤٨٤، رنسيمان، تاريخ الغزوات الصليبية، ج. ٣، ص. ٥٥٣-٥٥٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص. ٢٧٧-٢٧٠، أبو الفداء، المختصر، ج. ٤، ص. ٣-٤، المقريزي، السلوك، ج. ١، ص. ٥٥٣، العيني، عقد الجمان، ج. ١، ص. ٤٢٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص. ٢٧١.

(٤) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص. ١٢٠، المقريزي، السلوك، ج. ١، ص. ٥٥٣، أبو المحاسن، التنجوم الظاهر، ج. ٧، ص. ١٤٠، العيني، عقد الجمان، ج. ١، ص. ٤٢٥.

أما الملك هيشوم الأول، فلما عاد إلى مملكته ومعه جماعة صغيرة من المغول ألغى ولـي عهده الأمير ليو أسيرا، وعاصته خراباً، وبلاـدـه بـأـكـمـلـهـاـ مـسـتـبـاحـةـ،ـ وـلـمـ تـنـهـضـ مـلـكـتـهـ بـعـدـ ذـلـكـ مـطـلـقاـ مـنـ هـذـهـ الـكـارـثـةـ الـتـيـ حلـتـ بـهـاـ جـرـاءـ ماـ اـقـتـرـفـتـ يـدـاهـ،ـ وـصـارـ دورـهـ سـلـبـيـاـ فـيـ الأـحـدـاـتـ الـجـارـيـةـ عـلـىـ مـسـرـحـ الشـرـقـ الـأـدـنـىـ.<sup>(١)</sup>

#### **انتدابات الصليبيين ورد القوات الإسلامية:**

في مطلع المحرم سنة ١٢٦٥هـ / تشرين أول ١٢٦٦م قدمت للصلبيين نجدة من جزيرة قبرص على رأسها الملك هيو وعدتها ألف ومائة فارس وصلت إلى عكا، ولما كان هيو متৎماً لقتال المسلمين، فقد قاد هذه القوة التي أتى بها مع فرسان الطوانف الدينية والعسكرية والكتيبة الفرنسية وشن هجوماً على منطقة الجليل حتى وصل إلى طبرية، غير أن القوات الإسلامية المرابطة في صفد تصدى للملك هيو ولاحقته قريباً من عكا حيث أُنزلت به هزيمة منكرة وقتلت الكثير من قواته. «وَصَارَ فِي عَكَا بِسَبِّبِهِمْ عَزَاءٌ عَظِيمٌ مَا قُتِلَ مِنْ مُلُوكِهِمْ فِي هَذِهِ الْغَزَا».<sup>(٢)</sup>

أما السلطان الظاهر، فكان قد عاد إلى مصر عن طريق الكرك، وفي الطريق عند بركة زيزاء وقع عن فرسه أثناء الصيد فكسرت فخذه، فحمل إلى القاهرة، وتعافي بعد مدة، وفي أثناء ذلك ورد عليه رسول من قبل الملك هيشوم الأول ملك أرمينية يشفع في ولده ليو الذي كان قد وقع في الأسر، فأمر السلطان بفك قيده فقط ولم يطلق سراحه، وكتب للملك هيشوم موادعة على بلاده لمدة سنة.<sup>(٣)</sup>

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٤٨، رنسiman، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٥٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الظاهر، ص٢٦٨، المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٥٤-٥٥٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٥٥، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٨-٤٩.

## المهادنات مع قوى الصليبيين

في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥هـ / شباط ١٢٦٧ م تحرك السلطان إلى بلاد الشام على رأس سطر من جيشه تاركاً معظمها في مصر، إذا كان هدفه تعمير صفد وقلعتها، وكان قد أمر في السنة السابقة ببناء قلعة في قاقيون لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد كملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي قدم فيه إلى بلاد الشام<sup>(١)</sup>.

وعندما وصل إلى غزة ورد عليه رسل الصليبيين ومعهم هدايا وجماعة من أسرى المسلمين هدية له تعبيراً عن حسن نوايهم تجاهه، فكسا الأسرى وأطلتهم وأحسن للرسل، ثم توجه إلى صفد، وفي أثناء مقامه فيها بلغه أن الصليبيين في عكا يخرجون منها في بعض الأيام من الصباح وحتى الضحى، فسرى إليها في كوكبة من الفرسان سراً، ولم يشعر أهل هكا إلا وهو على باب مدinetهم مرة أخرى، فدمر عمائرها وأبارها وقطع أشجارها، واستمر على ذلك مدة أربعة أيام.

وفي أثناء مقامه في صفد ورد عليه رسل من قبل بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام يلتمسون المودعة والمهادنة لخشيتهم من أن يقوم بالانتصارات على معاقلهم بعد أن أفرزت لهم تلك الانتصارات الكبيرة والساحقة التي حققها بين سنتي ٦٦٣ - ٦٦٥هـ / ١٢٦٧ - ١٢٦٥ م.

فقد ورد عليه رسل الملك «هيشوم الأول» ملك أرمينية، فجدد السلطان الهدنة له لمدة سنة أخرى، ولكنه احتفظ بالأمير ليو ولم يطلق سراحه<sup>(٢)</sup>.  
وورد عليه رسل ملكة بيروت «ايذابيلا دي ابلين»، فعقد معهم مودعة بعد أن التزمت الملكة برد التجار مع أموالهم الذين أسروا في وقت سابق - وهم أهل أحد قادته<sup>(٣)</sup>.

وورد عليه رسل أمير صور «فيليب دي مونتفورت»، فعقد معهم هدنة مدتها

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الراهن، ٢٧٥، ٢٨٠، المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٥٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الراهن، ص٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الراهن، ص٢٨٢، المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٥٩.

عشر سنين لصور ولادها وهي تسع وتسعون قرية، وذلك بعد أن ردّ الأمير جماعة من المغاربة كانوا قد وقعوا بيده، ودفع دية غلام للسلطان كان قد قتله في وقت سابق<sup>(١)</sup>. وورد عليه رسل بيت الإسبتار يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب، وكانوا قد تحدثوا مع السلطان في هذا الأمر في السنة السابقة، وكان الأمر قد استقر معهم حينذاك على أن يكون الفسخ بيد السلطان، ولما حضرت رسليم هذه المرة التمسوا أن يخلف لهم السلطان على الهدنة، فقررت الهدنة معهم لعشر سنين وعشرين شهر وعشرين أيام وعشرين ساعات، وبطل بوجبها ما كان يأخذ الإسبتارية من قطبيعة عن بلاد الدعوة الإسماعيلية (وهي حصون، مصياف والعليقة والكهف والقدموس والمنية)، وحماه وشيزر وأفامية وأبي قبيس وعينتاب<sup>(٢)</sup>، وكان ما يأخذ الإسبتارية ألفاً ومائتي دينار ومائة مد من حنطة، وشعير (نصفين) عن بلاد الدعوة الإسماعيلية، وأربعة آلاف دينار عن حماه وشيزر وأفامية، وثمانمائة دينار على بلاد أبي قبيس وعينتاب<sup>(٣)</sup>.

ورد عليه قسطلان يافا يطلب عقد هدنة مع الأمير جاك الذي تولى إمرة يافا بعد وفاة والده «جوان دبلين»، إلا أن السلطان رفض ذلك بسبب الغارات التي كان يشنها هذا الأمير على المسلمين، وأجاب القسطلان بقوله: «الذي كان معه صلحاً قد مات»<sup>(٤)</sup>، ويفراغ السلطان من تعمير صفد وعقد هذه المهدادات عاد أدراجه إلى القاهرة في أوائل سنة ١٢٦٦هـ / ١٢٦٨ م.

وما هو جدير باللحظة أن السلطان الظاهر بيبرس لم يعقد هذه المهدادات مع بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام إلا ليحول بينهم وبين تقديم المساعدة العسكرية الفعلية للمعاقل التي كان يضعها على قائمة مخططاته العسكرية، وما رفضه لعقد هدنة مع صاحب يافا إلا دليلاً على ذلك، إذ كانت يافا أول هدف على قائمته آنذاك، وبخاصة بعد أن أصبحت موقلاً يتيمًا في وسط محيط إسلامي، كما أن السلطان لم

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٢، المقرizi، السلوك، ج ١، ص ٥٥٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٣.

(٣) م.ن، ص ٢٨٩.

(٤) م.ن، ص ٢٨٩.

يلزم نفسه - كما سنبين - بتنفيذ تلك المهدنات إذا ما سُنحت له فرصة الانقضاض على معاقلهم، كيف لا وهم المعتدون المحتلون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر من ناحية، ولم يحترموا العهود والمواثيق التي كانوا يعطونها للمسلمين عندما كانوا يحتلون مدنهم وقرابهم من ناحية أخرى.

#### **تجدد القتال بين الصليبيين في عكا:**

لم يحاول الجنوية والبنادقة تصفية خلافاتهم التي ظلت قائمة بينهما داخل عكا منذ عقد المعاهدة التي توصلوا إليها سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م على أثر القتال الذي نشب بينهما قبل ذلك بستين، وقد تجدد القتال بينهما مرة أخرى سنة ١٢٦٥هـ / ١٢٦٧م وذلك عندما أتى أسطول جنوبي في السنة ذاتها مؤلفاً من ثمان وعشرين سفينة بقيادة الأمير «لوتيشستوجر مالدي» الذي شق طريقه إلى عكا واستولى على برج الذباب الذي يقع في طرف حاجز المياه، فتصدت له السفن البنادقية، ودارت معركة بحرية بين الطرفين انسحب بعدها الأسطول الجنوبي إلى صور على أثر خسارته لخمس عشرة سفينة<sup>(١)</sup>

#### **فتح يافا:**

عاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام في مستهل جمادى الآخرة سنة ١٢٦٦هـ / شباط ١٢٦٨م وأرسل إلى نائب دمشق يأمر بتجهيز الجيش الشامي والخروج به إلى قلعة الشقيف لحصارها ريثما يصل إليه، وعندما وصل قريباً من يافا حضر إليه رسل صاحبها يطلبون الهدنة<sup>(٢)</sup>، وكان السلطان قد بلغه «بان أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا، وأقاموا في يافا حانة، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسباباً ليست في الهدنة» فعزم على فتحها، فأقللى القبض على رسل صاحبها ثم نزل عليها على حين غفلة من أهلها، وشرع من فوره بحصارها ثم افتتحها عنوة بالسيف في ٢٠ جمادى الآخرة / ٧ آذار من

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٥٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٤٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الراهن، ص٢٩٢، ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٢٤.

السنة ذاتها، فلم يسع أهلها إلا اللجوء إلى القلعة، فحاصرها السلطان إلى أن تسلّمها صلحًا في اليوم المذكور، ثم سمح لأهلها بالخروج منها، وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا البحر إلى عكا، ثم شرع في هدم القلعة والمدينة، وجمع أخشابها ورخامها وحمله في البحر إلى القاهرة<sup>(١)</sup>.

وملك السلطان بعض قراها لعدد من الأمراء المالiks، ورتب إقامة قبائل من التركمان بالبلاد الساحلية التي افتتحها لحمايتها، وأمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد وإظهار شعائر الإسلام وإزالة المنكرات منها، كما رتب الخفرا على السواحل والزمهم بدركتها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره وقال: «هذه بلاد فتحها الله على يدي»، واختار أن يكون مأكوله ومشروبيه من هذا المال<sup>(٢)</sup>.

#### **فتح الشقيف:**

عندما فرغ السلطان من هدم يafa التجهى إلى صند الأخذ المجانيق والسلاح، ثم تحرك قاصداً الشقيف فنازلها في ١٩ رجب ١٢٦٦هـ / ١٢٦٨م وقدم عليه للمشاركة في الجهاد عدد كبير من الفقهاء والفقراء<sup>(٣)</sup> وكان قد ورد عليه أثنا، مسيرة إليها بعض المسافرين من عكا ومعهم كتب من أهلها إلى من بالشقيف من الصليبيين، وكانت هذه الكتب أوراقاً مقصوصة عوضاً عن الكتابة، وكان مضمونها بعد ترجمتها: «لا يهولنكم نزول هذا العدد عليكم وقاتلوه أشد قتال، وإن احتجتم إلى شيء، تصرفونه فيما بينكم عليه فخذلوه من فلان» وسموا لهم رجالاً، فأعمل السلطان الحيلة والمكيدة للاسيطرة على القلعة، فأمر أن يكتب مثلها وأن يزاد فيها «إإن أنتم رأيتم من أنفسكم عجزاً من قتاله فسلموا الحصن إليه، واجعلوا فيما تشترون عليه سلامه أنفسكم وأولادكم وحربيكم»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٢.

Khowaiter, Baibars The First, P97

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٥.

(٤) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٩٦.

وأضاف ابن شداد الحلبي في مصدر آخر، بأنه قد حذر في هذا الكتاب مقدم الشقيق من الوزير المقيم عنده على لسان أهل عكا، وأرسل في الوقت ذاته كتاباً آخر إلى الوزير نفسه يحذره من مقدم الشقيق -على لسان أهل عكا أيضاً- "فدب الخلاف بينهم وأخذت الفتنة تستعر في القلعة في الوقت الذي شدد فيه السلطان الحصار عليها مستخدماً ستة وعشرين منجنيناً لقصفها"<sup>(٢)</sup> ، مما اضطرهم إلى إخلاء أحدى القلعتين وتخربيها، فسيطر عليها السلطان، وشدد حصاره على القلعة الأخرى، ونتيجة لذلك «سألوا الأمان على نفوسهم، وأنهم يؤخذون أسرارى، وسائلوا إطلاق الحرير والأطفال فأجاب السلطان إلى ذلك»<sup>(٣)</sup> ، وسلم القلعة منهم في ١٥ رجب / ٢٩ نيسان من السنة ذاتها<sup>(٤)</sup> ، وأخرج منها النساء والأطفال وحملهم على الجمال إلى صور وسير معهم من يحفظهم، في حين قيد الرجال كلهم وسلمتهم للعسكر، ثم شرع في هدمها، فهدمت إلى الأرض، إلا أنه عاد وولى الأمير سيف الدين بلبان الزياني لعمارتها فيما بعد، نظراً لأهميتها العسكرية<sup>(٥)</sup>.

وقد أرعب هذا الفتح ملكة بيروت وتخوفت من أن يلحق بمعقلها المصير ذاته، فأرسلت إلى السلطان تفاوضه على استمرار الهدنة، ولكي تظهر مصداقيتها في ذلك، فقد توقفت عن الماظلة في تسليم التجار مع أموالهم الذين كانوا قد أسروا في وقت سابق، وإعادتهم إلى السلطان، عندئذ أقر استمرار الهدنة معها.<sup>(٦)</sup>

#### فتح انطاكية:

ما أن انتهى السلطان من أمر الشقيق حتى تحرك بجيشه شمالاً صوب طرابلس وخيم بالقرب منها، ثم هاجم النواحي المحيطة بها، فقطع أشجارها وهدم كنائسها

(١) ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ص ١٥٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٥.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٨.

(٤) ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ص ١٥٨ - ١٦٠.

Khawaiter, op. cit, P98.

(٥) أبو المعاسن، التجموم الظاهر، ج ٧، ص ١٤٢.

(٦) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٩.

وافتتح برجاً كان قد عصى فيه جماعة من الصليبيين فضرب رقابهم، وأسر عدداً منهم وغنم غنائم كثيرة، كل ذلك وأمير طرابلس قابع في مدینته فرعاً لا يحرك ساكناً<sup>(١)</sup>. ثم تحرك السلطان باتجاه صافيتا وانططوس فتلقاءه أميرها الصليبي بالخدمة وأطلق سراح ثلاثة أسيير مسلم كانوا في قبضته وذلك تعبيراً عن تودده، فشكراً للسلطان ولم يتعرض لبلاده، واصل سيره إلى حمص ثم حماه، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق لاجتياح بلاد أنطاكية:

- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخزندار ووجهتها مينا السويدية لقطع الطريق بين أنطاكية والبحر.
- فرقة بقيادة الأمير عزالدين أوغان وجهتها الدرساك، لسد المرات بين أرمينية والشام، ولمنع أية مساعدة تقدم منها لأنطاكية عند البدء بهاجمتها.
- فرقة بقيادة السلطان نفسه وقد نزل بها أولاً على أقامية، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها محاصراً في الأول من شهر رمضان سنة ١٢٦٦هـ / ١٥ آيار ١٢٦٨م، وقد وافته الفرقتان السابقتان بعدما احدثتاه من تدمير وقتل وأسر في منطقة السويدية والدرساك<sup>(٢)</sup>.

وكان بوهمند أمير أنطاكية في طرابلس آنذاك، فتولى قيادة أنطاكية الكند اسطبل «سيمون مانسل»، وحدث أن كان سيمون هذا يقود جماعة من العساكر خارج المدينة في محاولة لمنع مهاجمتها، غير أنه وقع في أسر القوات الإسلامية، فلما احضر إلى السلطان «رأه (السلطان) رجلاً عاقلاً، وسأل أن يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله تعالى، فسير كند اسطبل من أحضر ولده وجعله رهينة، ودخل البلد وتحدث وخرج معه جماعة من القسيسين والرهبان وأقاموا يتربدون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة نفس وخوف من أصحابهم البرنس (الأمير بوهمند)<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٠٠، شانع بن علي، حسن المناقب، ص ١٢٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٤٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٠٧، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣، ٥٥٨.

ولمّا لم يصل السلطان معهم إلى نتيجة شرع بشن هجوم عام على جميع قطاعات أسوارها، وركز في هجومه على موضع من أسوارها بالقرب من القلعة وقبالة منحدر جبل سيلبيوس، في محاولة لاقتحام المدينة عبره، وأمام شدة ضرباته انهارت كل مقاومة للصلبيين<sup>(١)</sup>، وتمكن المجاهدون من اعتلاء الأسور من الموضع الذي انتخبه السلطان، وتذفقتوا إلى داخل المدينة في يوم السبت ٤ رمضان / ١٨ أيار<sup>(٢)</sup>. فهرب من استطاع من أهلها إلى القلعة، «وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن رجل في المدينة وكان بها فوق المائة ألف نفر»<sup>(٣)</sup> وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفر منها أحد<sup>(٤)</sup>.

وأما القلعة فاجتمع فيها من المقاتلة الصليبيين ثمانية الآف سوى النساء والأطفال، ولمّا لم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم، فقد أنفذوا إلى السلطان «يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى، فأنهم على ذلك، وتسليم القلعة منهم في اليوم التالي الأحد ٥ رمضان / ١٩ أيار من السنة ذاتها<sup>(٥)</sup> ووجدأئنا تسلم القلعة جماعة من المسلمين الخلبين أسرى لديهم، فأطلق سراحهم<sup>(٦)</sup>.

وكانت الغنائم لا تحصى لدرجة أن «قسمت النقود بالطاسات»<sup>(٧)</sup>، أما الأسرى فكانوا أكثر من أربعين ألف أسير<sup>(٨)</sup>، فأقام السلطان يومين وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قواته العسكرية<sup>(٩)</sup>، ولم يجز إلا لعدد قليل من الأسرى من أثرياء المدينة

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٠٨، منفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٠٨، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٨.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣١٨، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧.

(٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ٣٠٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٥٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٤٣.

(٧) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤، منفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١٧٢.

(٨) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٣.

(٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤.

بافتدا، أنفسهم بالمال ومنهم الكند اسطبل سيمون مانسيل<sup>(١)</sup>، ثم غادر المدينة بعد أن أمر بإحراقها، فأصبحت أثراً بعد عين<sup>(٢)</sup>.

وقد أحدث استعادة المسلمين لأنطاكية فزعاً كبيراً في قلوب الصليبيين المحيطين بها، فأرسلوا إلى السلطان يطلبون الأمان، فأمنهم وأرسل قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بيلايك لتسليم حصنهم وهي: دير كوكش، شقيف كفردبن، شقيف كفر تلميس، فتلسمها منهم وعاد بهم أسرى إلى السلطان<sup>(٣)</sup>.

فلما رأى الداوية في حصن بغراس سقوط هذه الحصون، تركوا حصنهم فارين منه، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر في قوة عسكرية فاستولى عليه<sup>(٤)</sup>.

وقد هال ذلك بطريرك قلعة القصير - وهو من نصارى بلاد الشام - وتخوف من أن يقوم السلطان بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتسم المواعدة على أن يتنازل له عن نصف البلاد التي تتبعه، فسمح له السلطان بالبقاء بها سبع سنوات على أنه من أتباعه، وكتب له هذة بذلك<sup>(٥)</sup>.

ولم يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية التي ظلت معزولة في جيب صغير إلى أن تم فتحها على يد السلطان المنصور قلاوون فيما بعد<sup>(٦)</sup>.

أما أمير أنطاكية «بوهمند السادس» الذي كان قابعاً في طرابلس مركز إمارته الثاني، فقد كتب إليه السلطان الظاهر بيبرس يبشره بفتح أنطاكية ساخراً منه ومحترقاً إياها، ومن جملة ما قاله له: «وكتابنا هذا يتضمن البشري لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم تكون لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤، منضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١١٢، ولهم موري، دولة المماليك في مصر ص ٤٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

Khowaiter, op. cit, P101

(٤) ابن عبدالظاهر، العروض الزاهر، ص ٣٢٥، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٥٢.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٢٥، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٥٦٠.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٥٦٠.

الحي إذا شاهد الأموات»<sup>(١)</sup>.

وبالاستيلاء على أنطاكية انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى، وتبدلت فكرة التحالف بين أنطاكية وأرمينية والمغول<sup>(٢)</sup>.

وقبل أن يعود السلطان الظاهر بيبرس مزهواً بالنصر إلى دمشق عقد هدنة مع الملك هيشوم الأول ملك أرمينية نتج عنها ما يلي:

١- إطلاق سراح الأمير «ليو ابن الملك هيشوم» من الأسر، مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر من سجن أبيغا بن هولاكو زعيم مغول فارس، وقد توسط في ذلك الملك هيشوم، وكان سنقر الأشقر قد وقع في أسر المغول عندما احتلوا حلب على عهد هولاكو.

٢- تنازل الملك هيشوم عن المناطق التالية للسلطان الظاهر وهي: بهسنا، الدرساك، مرزيان، رعيان، الزرب، شيخ الحديد، وكانت كلها ضمن إقليم مرعش<sup>(٣)</sup>.

وبذلك سيطرت الدولة المملوكية - باستثناء بهسنا التي ماطل هيشوم في تسليمها في ذلك الحين - على مناطق لها أهميتها العسكرية بسبب تحكمها في الطريق بين الجزيرة الفراتية حيث المغول حلفاء هيشوم وأرمينية الصغرى<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الظاهر، ص ٣١٢ - ٣١٣، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ٣٠٢.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٥.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الظاهر، ص ٣٢٨، أبو النداء، المختصر، ج ٤، ص ٥.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٨.

## أوضاع الصليبيين في عكا وتطور علاقة السلطان الظاهر بيبرس بهم

توفي الملك «هيتو الثاني» ملك قبرص الوصي على عرش مملكة بيت المقدس (عكا) عام ١٢٦٥هـ/١٢٦٧، ولم يتجاوز من العمر أربعة عشر عاما، فخلفه على العرش الوصي «هيتو لوزجنا» باسم هيتو الثالث، الذي لم يثبت أن توج ملكاً على قبرص في العام ذاته،

وحدث في العام التالي أن أعدم الملك «كنرادين هوهنتشاوفن» في نابولي بناء على أوامر من شارل النجور ملك صقلية، بعد أن حاول عبشا أن يسترد منه ارثه في إيطاليا، وكان كنرادين الملك الأصيل لمملكة بيت المقدس، وبمقتله زال الفرع الأكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس (عكا)، ولما كانت الأسرة الحاكمة في قبرص هي التي تلي أحقيبة ولاية عرش مملكة بيت المقدس، فقد توج هيتو الثالث ملكاً على مملكة بيت المقدس إضافة إلى ملكه في قبرص عام ١٢٦٩هـ/١٢٦٧م، (على الرغم من الخلافات التي حدثت بين الصليبيين قبيل ذلك حول أحقيبة عرش مملكة بيت المقدس)، وأضحى عليه أن يمضي إلى صور كي يتوج في كاتدرائيتها التي صارت منذ تحرير مدينة بيت المقدس من قبل السلطان صلاح الدين، الموضع التقليدي الذي يتوج فيه ملوك مملكة بيت المقدس<sup>(١)</sup>.

على أن الملك هيتو الثالث الذي وصل إلى عكا بعد تجويهه في صور آثر أن يتزد إلى السلطان الظاهر أملاً في عقد هدنة معه، وبعد أن توسط له أمير صور، أرسل ونداً إلى السلطان عقب عودته من أنطاكية «وحصل الاتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير وهو مدينة عكا وبلادها، وهي إحدى وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج، ولها ثلاثة ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وببلاد الكرمل تكون مناصفة، وعثليث يكون لها خمس قرى، والباقي مناصفة، والقررين، عشر قرايا، والباقي للسلطان، وببلاد صيدا، الوطأة للفرنج، والجبليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص<sup>(٢)</sup>.

(١) رسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٦٢ - ٥٦٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٣٢.

وتحدث المؤرخ ابن عبدالظاهر عن هذا الصلح بقوله: «هذا ما استقر عليه الحال في البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وأنها لا تنقض برجل غريبة، ولا ملك يحضر في البحر، واشترط عليه إطلاق رهائن البلاد، وتوجهتُ رسولاً أنا والأمير كمال الدين بن شيت لاستحلاف الملك، وسير السلطان معنا هديةً، عشرين نفراً من أسرى أنطاكية قسيسين ورهبانا، فدخلنا عكا في رابع وعشرين شوال، واحتفل بنا احتفالاً كثيراً، وكان السلطان قد وصَّي بأن لا نتواضع له في جلوس ولا مخاطبة، فلما دخلنا إليهرأيناه على كرسيه هو والمقدمين، فلم نجلس إلى أن وضع لنا كرسي قبالته، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم نعطه حتى مد الملك يده وأخذه، وتوقف في أشياء منها أنه رغب في أن مملكة قبرص يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية (الدعوة) لا يكون لها حدث في الهدنة، واستعنى من حديث الرهائن، وفصول آخر، وعادت رسائل السلطان عنه، ولم يحل ويقيت الأمور ساكنة»<sup>(١)</sup>.

ويعود سبب عدم توقيع الملك هيو الثالث على هذه الهدنة إلى تخوفه من شارل المجو ملك صقلية الذي كان يتطلع لحكم بيت المقدس (عوا) بوصفه وريثاً للإمبراطور «فردرريك الثاني» الذي كان قد تسلم مدينة بيت المقدس من السلطان الكامل سنة ١٢٢٩هـ/١٢٦٦م.

أما الملك شارل المجو هذا، فقد أرسل إلى السلطان الظاهر كتاباً يوصيه فيه بالصليبيين المتواجدين في المنطقة الساحلية ورفع السيف عنهم، فكتب السلطان إليه بقبول شفاعته فيهم، نظراً للعلاقة التي كانت تجمعه به<sup>(٢)</sup>.

على أن السلطان ما لبث أن عاد إلى شن هجماته العسكرية ضدتهم سنة ١٢٦٧هـ/١٢٦٩م، وذلك أن الصليبيين في عكا قد أقدموا على تنصير أربعة من محاليلك السلطان كانوا قد هربوا إليهم، كما فعل ذلك أيضاً أمير صور، إذ نصر ملوكاً للسلطان كان قد هرب إليه كما نصر فتاة مسلمة كانت أسييرة لديه، وعندما طالب السلطان بردّهم إليه رفض الصليبيون ذلك، وكان أن حضر رسول من جهتهم آنذاك يطلبون استمرار

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) م.ن، ص ٣٣٦.

الهدنة، فأمر بقتليدهم، وكتب من فوره إلى نوابه بفسخ الهدنة مع الصليبيين في عكا وصور، وبيناء على أوامره شن الأمير جمال الدين أقوش الشمسي على رأس قوة عسكرية هجوما على بعض معاقلها، كما شن السلطان بنفسه على رأس قوة عسكرية أخرى هجوما على المناطق المحيطة بصور، وأعطى أوامره إلى طائفة من جنده باستغلال بلاد صور وقطع الميرة عنها للتضييق عليها<sup>(١)</sup>.

غير أن السلطان وإن كان قد اتخذ هذا الموقف مع أمير صور إلا أنه وفي الوقت ذاته كان شديد الحرص على عدم معاداة الصليبيين في آن واحد، فقد استقبل رسول ملكة بيروت «إيزابيلا دى أبلين» وكان طلبهم عقد هدنة معها فوافق على ذلك وعقد هدنة مع الملكة مدتها عشر سنين<sup>(٢)</sup>.

---

(١) م.ن، ص ٣٤٦ - ٣٤٧، المريني، السلوك، ج ١، ص ٥٧٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٥٨، القلقشندي، صباع الاعشى، ج ٤، ٣٩٥، انظر نص الهدنة في الملحق.

## حملة ملك أراغون إلى عكا سنة ١٢٦٩هـ / ١٢٦٨

إذاء الهزائم المتلاحقة التي منى بها الصليبيون في بلاد الشام، تحرك ملك أراغون جيمس الأول على رأس أسطول قوي إلى الشرق، أملاً في إنقاذ ما تبقى من معاقل الصليبيين، وكان في الوقت ذاته قد أرسل إلى أبيغا بن هولاكو زعيم المغول بأنه قادم إليه من جهة سيس عاصمة مملكة أرمينية في سفن كثيرة لشن هجوم مشترك على ديار الإسلام، بيد أن الرياح تحيرت بما لا تشتهي السفن، فقد صادفته عاصفة عاتية أثارت الرعب في قلبه فارتدى خائضاً إلى بلاده على رأس الشطر الأكبر من اسطوله، ولم يواصل الحملة إلاً أسطول صغير قاده ولداه غير الشعوبين هما «فرناندو سانكيز ويدرو فرنانديز» فبلغا عكا في أوائل سنة ١٢٦٨هـ / تشرين أول ١٢٦٩م<sup>(١)</sup>.

وبهذه النجدة التي أتت إلى عكا توهם الصليبيون فيها أنهم قادرون على مواجهة القوات الإسلامية خارج أسوار عكا، فخيّموا بظاهرها «وصاروا يركبون وتعجبهم نقوصهم» وقادهم الغرور إلى شن غارة على نواحي الجليل بقيادة «أولفريترميis» الذي لم يدر بخلده أن السلطان الظاهر كان يرصد حركاته، مما أوقعه في كمين السلطان، وتناولتهم القراءات الإسلامية قتلاً وأسراً، فلم يبق منهم على قيد الحياة من شارك في القتال إلاً عدداً بالغ القلة، وبهذا الفشل الذريع، أبحر ولداً ملك أراغون عائدین إلى بلادهما<sup>(٢)</sup>.

أما السلطان الظاهر فقد تحرك على رأس خيار عسكره إلى جهة حصن المربّ، ولما كانت الأمطار والثلوج شديدة عدل عنه إلى حصن الأكراد، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة عندما ترافق إلى مسامعه خروج الملك الفرنسي لويس التاسع على رأس حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وهي المعروفة بالحملة الثامنة، وقد توجه بها سنة ١٢٦٩هـ / ١٢٧٠م إلى تونس، وهناك انتهى أمرها إلى الفشل بعد موت الملك لويس.

وكان السلطان الظاهر يخشى أن تتوجه الحملة إلى مصر، ولذلك «اهتم بالشغور والشواني (السفن)، وفكّر في جهة عسقلان وأن الملك الفرنسي ربما يقصدها ليعمّرها

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٥١. Khawaiter, op. cit, P105.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص٣٦٢ - ٣٦٤، رنسيمان، المصدر السابق، ج٣، ص٥٦٧ - ٥٦٨.

وكان بها بقايا أسوار لا سيما قلعتها، فتوجه إليها بنفسه وهدمها<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة صافيتا:

ويفشل حملة لويس التاسع عاد السلطان على رأس جيشة إلى بلاد الشام لمواصلة جهاده ضد الصليبيين، فهاجم المناطق المحيطة بطرابلس وحرر قلعة صافيتا بالأمان في شهر رجب ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١م، وسمح من كان بها من الداوية وعدتهم سبعمائة رجل عدا النساء والأطفال بالخروج من الحصن، فتوجهوا إلى انططوس<sup>(٢)</sup>. كما استولى على الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، بالأمان أيضاً، كحصن المجدل وتل خليفة وغيره من الحصون الأخرى المنتشرة هناك<sup>(٣)</sup>.

### فتح حصن الأكراد:

ثم توجه السلطان بقواته إلى حصن الأكراد فنازله واستولى على بعض أراضه، ويتكمel نصب المجانيق حوله، شرع بهاجمه، وتمكن من فتحه عنوة بالسيف في ١٦ شعبان ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١، فخرج الصليبيون إلى التلة المقابلة له، فاعمل السلطان الحيلة لإجبارهم على الاستسلام، إذ كتب «كتاباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة يأمرهم بالتسليم» وقد نجحت هذه الحيلة، فقد طلبوا الأمان من السلطان، فأمنهم وسمح لهم بالخروج، فتوجهوا إلى طرابلس، وسلم السلطان الظاهر الحصن في ٢٤ شعبان /٧ نيسان من السنة ذاتها<sup>(٤)</sup> وأمر بعمارة البلد، وجعل كنيسته جاماً وأقام فيه الجمعة، وولى فيها نائباً وقاضياً<sup>(٥)</sup>.

وقد جاء فتح هذا الحصن ليدعم مركز المسلمين في مواجهة الصليبيين فقد،

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الراهن، ص. ٣٧٠، المقرizi، السلوك، ج١، ص ٥٨٥ - ٥٩٠ .

King; Op. Cit,p 270

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الراهن، ص. ٣٧٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٥٩، المقرizi، السلوك، ج١، ص ٥٩٠، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٥٧١.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. ٣٧٥، أبو المحاسن، النجوم الراهرة، ج٧، ص ١٥٠ .

(٤) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. ٣٧٥ - ٣٧٦، المقرizi، السلوك، ج١، ص ١٩١، أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٧، ص ١٥١ .

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٥٩

اتخذه السلطان قاعدة لعملياته الحربية ضد إمارة طرابلس<sup>(١)</sup>. وقد أفرز هذا الفتح صاحب إنططوس، وهو مقدم بيت الداوية، فأرسل إلى السلطان طالباً المهادة، وتعبيرأ عن مصداقيته في ذلك، بعث إليه بفاتيح مدinetه، فصالحه السلطان على الأسس التالية:

- ١- استرجاع جميع ما أخذه الداوية من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية، (الناصر صلاح الدين).
- ٢- ترك جميع ما للدواية من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- ٣- يكون للسلطان نصف محاصيل إنططوس.
- ٤- يعين السلطان نائباً عنه في إنططوس<sup>(٢)</sup>.

وقد شجع هذا الصلح صاحب حصن المرقب وقلعة لد وهو مقدم بيت الإسبتار، فطلب عقد هدنة مع السلطان، فعقد السلطان معه هدنة أولها مستهل شهر رمضان ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على الأسس التالية:

- ١- استرجاع جميع ما أخذه الإسبتار من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية.
- ٢- ترك جميع ما للإسبتار من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- ٣- تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإسبتار.
- ٤- عدم تجديد عمارة بحصن المرقب<sup>(٣)</sup>.

#### **فتح حصن عكار:**

ثم توجه السلطان الظاهر بقواته العسكرية في ١٧ رمضان ٦٦٩هـ / أواسط نيسان ١٢٧٢م إلى حصن عكار الذي كان يمتاز بموقعه الحصين في جبال صعبه المرتفع، وكان يشكل ضرراً بالغاً على المسلمين فحاصره ونصب عليه المجانق، وبعد قتال شديد طلب الصليبيون الإسبتارية الذين كانوا فيه الآمان في ٢٩ رمضان / أوائل أيار على أن

(١) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٦٨، King, op. Cit, p271.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٨ - ٣٧٩، المقرizi، السلوك، ج ١، ص ٥٩١ - ٥٩٢، ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٥٤ - ١٥٥، أبو المعاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥١.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٩، القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٢، انظر نص الهدنة في الملحق.

يكتنهم السلطان من التوجه سالمين إلى طرابلس، فأجابهم وسمح لهم بالرحيل، فدخلته القوات الإسلامية، وبعد أن صلى السلطان به صلاة العيد رحل عنه ونزل برج صافيتا، وكتب البشار إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله به<sup>(١)</sup>، كما كتب إلى أمير طرابلس بوهمند السادس مبشرًا إياه، بهذا الفتح تحطيمًا لمعنوياته وتحذيرًا له بسبب تحالفه مع أبيا بن هولاكو زعيم المغول، وما جاء في هذا الكتاب «قد علم القومص بيمند - جعله الله من ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه - نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها من جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في صبرها على مناكدة الأوحال، ومكافحة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الفيوم ترى بها ما كان غير حبالها رشا، وكيف صابت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، حسنت بهم استعاناً نائبك الذي انتخبي بهم، وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس عوضه «الله أكبر» ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحي القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح، وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذرها أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى،... ويفهمونكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فنعرف كنائسك واسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول أنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً، ولا قضت من ريهما بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا كما عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عسكر يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإنما فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإنما فقد جهزنا قيودهم وقيوده<sup>(٢)</sup>.

كما أرسل له رسالة مشافهة على لسان رجل من فرقة الإستمارية يقول فيها،

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٧٩ - ٣٨٠، المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٩٢، ابن ابيك الدواداري، المصدر السابق، ص ١١٥، ابو المعاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥١ - ١٥٢، البافعي، مرآة الجنان ج ٤، ص ١٧٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٠ - ٣٨١، ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ١٥٦.

«أين تروح مني والله لا بد أن أخذ قلبك وأشويه، وأنت تنظر، وما ينفعك أبداً بن هلاوون»، فلما بلغته هذه الرسالة، أخذ يحترس على نفسه، «ولا عاد يركب ولا يصيـد خوفاً على نفسه من الإسماعيلية (أن تغتاله بأمر السلطان) وكان يحب الركوب للصيد، فامتنع من ذلك، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، سير إليه غزلان مذبوحة وضبعاً حياً، وحمل ثلج ورسالة يقول له فيها: «ما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرارك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك»<sup>(١)</sup>.

وقد أتبع السلطان ذلك بالتحرك على رأس جيشه صوب طرابلس ونزل عليها في ١٧٦٠/أيار من السنة ذاتها، فما كان من بوهمند إلا أن أرسل إلى السلطان يستعطفه ويسأله الصلح، فبعث إليه السلطان الأمير فارس الدين الاتابك والأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي لمقاييسه على الأسس التالية:

- ١ - يكون للسلطان من أعمال طرابلس نصف بالسوية.
- ٢ - يكون للسلطان دار وكالة وزكاة ونائب ومشد وديوان في طرابلس.
- ٣ - يسلم للسلطان جبلة واللاذقية بخراجهما من يوم خروجهما عن الملك الناصر صلاح الدين إلى يوم تاريخه.
- ٤ - يدفع للسلطان نفقات العساكر الإسلامية من يوم خروجه.

صعق بوهمند لهذه المطالب، فأباحتها وأشار القتال، وأخذ يحصن طرابلس، فرد عليه السلطان بنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها<sup>(٢)</sup>، إلا أنه تراجع عن عزمه بسبب قدوم الأمير ادوارد على رأس حملة بحرية إلى عكا في ذلك الوقت، فضلاً عن قدوم الملك هيو الثالث ملك قبرص على رأس قوة بحرية ونزله في عكا أيضاً، وقبل بعقد صلح مع بوهمند بشورط أقل حدة من الشروط السابقة، وقد نص الاتفاق الجديد على ما يلي:

- ١ - تكون عرقـة وجبلة وأعمالها للأمير بوهمند، مع التأكيد بأن عرقـة وأعمالها وهي ٥٦ قرية صدقة من السلطان.

(١) ابن ابيك الدواداري، المصدر نفسه، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) أبو المعاسن، النجوم الظاهرة، ج ٧، ص ١٥٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٦، ١٩٨٥.

- ٢ يكون ساحل انططروس والمرقب ويانيس وبلاد هذه النواحي مناصفات بين السلطان وبين فرقتي الداوية والإسبتارية.
  - ٣ تزول بعربي وحمص القدية خالصة للسلطان.
  - ٤ مدة الصلح بينهما عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.
- على أن بوهمند الذي قبل بهذا الصلح مرغماً بسبب الزحف المستمر للقوات الإسلامية على إمارته، استغل هذه الهدنة فتوجه إلى أبيا بن هولاكو زعيم المغول يستصرخه على المسلمين ويدرك له ما فتحه السلطان الظاهر من القلاع والمحصون، إلا أن أبيا لم يستجب له وصاح به قائلاً: «أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفرني عنه، وتقلّ قلوب عسكري رعباً»<sup>(١)</sup>.

أما السلطان الظاهر فقد توجه بعد عقد تلك الهدنة إلى قلعة العلية، فتسلمها من الإسماعيلية مع البلاد التابعة لها في شهر شوال/أيار من السنة ذاتها<sup>(٢)</sup>.

#### **محاولة فزو جزيرة قبرص:**

على أثر قドوم هيرو الثالث ملك قبرص إلى عكا اغتنم السلطان الظاهر هذه الفرصة فوجه إلى قبرص أسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة، تولى قيادتها جمال الدين مكي بن حسون ومعه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشهاب الدين إبراهيم بن عبدالسلام رئيس دار الصناعة بالاسكندرية، وشرف الدين علوس ابن أبي المحبة بن علوى العسقلاني رئيس دار الصناعة بدミاط، ولجا ابن حسون إلى الخديعة، إذ طلى السفن باللون الأسود ورفع فوقها أعلاماً عليها صليان، كالسفن الصليبية، حتى إذا دخلت هذه السفن موانئ الصليبيين يعتقدونها لهم، فيتم الانقضاض عليهم على حين غرة، وقد انطلقت السفن على هذه الصورة، وعندما اقتربت من مناء ليماسول القبرصي هبت عليها ريح عاتية أدت إلى تحطم أحد عشرة سفينه منها، مما أوقع بحارتها في أيدي القبارصة، وكانوا زهاء ألف

(١) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، ص ١٩٢ - ١٩٥، ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٦٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الظاهر، ص ٣٨٤، المقرizi، السلوك، ج ١، ص ٥٩٣.

وثمانمائة نفس، أما بقية قطع الاسطول، فقد عادت دون تحقيق هدفها<sup>(١)</sup>. وقد شمت هيو الثالث ملك قبرص بما حذر للسفن الإسلامية، وأرسل إلى السلطان بيبرس يخبره بانكسارها وأمر رجالها، غير أن السلطان لم يجزع لذلك، بل قال: «الحمد لله مذ ملکني الله الملك ما خذلت لي راية، و كنت اخاف من أصابة عين، بهذا ولا بغيره»<sup>(٢)</sup>.

### **فتح حصن القرین:**

توجه السلطان الظاهر بعد أن تسلم قلعة العلبة صوب حصن القرین، وكان من المحسون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان الإسبتارية حتى ذلك الحين، وقد نازله السلطان ضارباً الحصار حوله، وفي أثناء نصب المجانيف تمهدًا لقصده ورد عليه رسولان للصلبيين أحدهما من قبل أمير طرابلس وكان طلبه أن يرحل السلطان عن حصن القرین، إلا أن السلطان رفض ذلك، أما الرسول الآخر فكان من قبل ملك قبرص الذي كان في عكا في ذلك الوقت، وكان طلبه أن يتنازل له السلطان عن بعلبك ونابلس، فسخر السلطان منه قائلاً له «صاحبك في عقله أم لا، أنا باخذ منكم حصنكم أول بأول، تطلب مني بلادي»، ثم صرفة من بين يديه<sup>(٣)</sup>.

وشرع السلطان في هجومه على الحصن، واستولى على رصده، وتحت وطأة ضرباته الشديدة، طلب الصليبيون الأمان، فأمنهم وأنزلهم من الحصن وأركبهم الجمال إلى عكا، ثم دخلته القوات الإسلامية وذلك في ١٣ ذي العقدة ٦٦٩هـ / ١٣ أيار ١٢٧١م، وقد أمر السلطان بهدمه، فهدم<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦ - ٣٨٧. ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٦٢، المقرئي، السلوك، ج ١، ص ٥٩٣، الموعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩٤، ابو المعاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٨، المقرئي، السلوك، ج ١، ص ٧٩٤.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الزكية، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦، ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية ص ١٦٢، المقرئي، السلوك، ج ١، ص ٥٩٣، الكتببي، عيون التواریخ، ج ٢٠، ص ٤٠٣، فضل بن ابی الفضائل، النهج السدید، ص ١٩٨ - ١٩٩، Khawaiter, op. Cit, p112.

وقد استغل السلطان الظاهر هذا الفتح فرد على ملك قبرص مبشرًا إياه بتهكم قائلًا له: «... وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبعج وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرىن، وأين البشارة بتسليك القرىن من البشارة بما كفى الله به ملكتنا من العين، وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب، الإستيلاء على الحصون الخصينة هو العجب... وأين من اتكل على الله وسيفه، كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهوا، مليح إنما النصر بالسيف هو المليح ..»<sup>(١)</sup>.

و قبل أن يغادر السلطان إلى القاهرة قدم عليه رسل أمير صور يطلبون عقد الصلح، فوافق السلطان على أن يكون له خمس بلاد يختارها من البلاد التابعة لها، ويكون لأمير صور عشر بلاد، بينما تكون بقية البلاد مناسفة بينهما، وتم الصلح على هذه الأسس<sup>(٢)</sup>.

### حملة الأمير إدوارد ولـي عهد إنجلترا إلى عكا سنة ٥٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م.

كان الملك الإنجليزي هنري الثالث قد عزم على المشاركة في حملة صليبية تتجه نحو الشرق، ولما كان رجلاً كهلاً فقد شجع ابنه ولـي عهده الأمير إدوارد على القيام بهذه المهمة عوضاً عنه، فأبحر هذا الأمير من إنجلترا في صيف عام ١٢٧١ م على رأس حملة مؤلفة من ألف رجل، ثم تبعه بإمداد بعد بضعة أشهر آخر أخوه أدمند دوق لانكستر وكان إدوارد ينوي اللحاق بالملك الفرنسي لويس التاسع في تونس، والإقلاع معاً إلى الأرض المقدسة، غير أنه لما وصل إلى إفريقيا تبين له أن الملك لويس قد مات وأن الفرنسيين يوشكون على العودة إلى فرنسا، فامضى فصل الشتاء في صقلية ثم أبحر في الربيع إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا ووصل في أواخر سنة ٥٦٦٩ هـ / ١٩ أيار ١٢٧١ م<sup>(٣)</sup> ثم تبعه الملك القبرصي هيـو الثالث وأمير طرابلس بوهمند السادس، ولم يكـد إدوارد يبلغ عـكا حتى أـنـذـ سـفـارـةـ إـلـىـ أـبـغاـ بـنـ هـولـاكـوـ زـعـيمـ المـغـولـ لـلـتـحـالـفـ مـعـاـ

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٧ - ٣٨٨، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٣٨٩، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٩٥.

(٣) رنسيمان، تاريخ المروء الصليبية، ج ٣، ص ٥٧٤ - ٥٧٣ King, op, cit, P268.

ضد المماليك، وتنفيذاً لذلك فقد هاجم المغول الحدود الشمالية لبلاد الشام بينما هاجم الصليبيون بقيادة إدوارد منطقة الشاغور والبعنة في شمال فلسطين، فنهبوا الغلال وأحرقوا بعضها كما هاجموا منطقة قاقون في السنة التالية ١٢٧٢هـ / ١٢٧٢ م وأسروا طائفة من التركمان من كانوا يقطنونها، وهاجموا كذلك منطقة القرىن بالقرب من عكا<sup>(١)</sup>.

ازاء تلك الإعتداءات السافرة تحرك السلطان الظاهر على رأس جيشه من دمشق بعد أن كان قد وصلها في وقت سابق لهاجمة عكا، ولكنه عندما وصل إلى مرج برغوث بالقرب منها عدل عن مهاجمتها بسبب شدة هطول الأمطار، فرد العسكر الشامي وعاد إلى القاهرة، ولكنه ما لبث أن عاد إليها في السنة ذاتها ١٢٧٢هـ / ١٢٧٢ م وشرع في الهجوم عليها.

أما الأمير إدوارد فيعد أن تأكّد له استحالة تحقيق نصر عسكر على القوات الإسلامية، فقد آثر اللجوء إلى مفاوضة السلطان الظاهر، وقد توسط في ذلك شارل النجو ملك صقلية الذي كان على علاقة طيبة مع السلطان، غير أن إدوارد لم يصل إلى ما يرضيه في مفاوضاته معه، ولذلك لم يشارك في التوقيع على عقد الهدنة التي تمت بين السلطان وحكومة عكا، وكانت مدتها عشر سنين وعشرين شهر وعشرون أيام وعشرون ساعة أولها ٢١ رمضان ٦٧٠هـ / ٢٢ أيار ١١٧٢ م<sup>(٢)</sup>.

وقد بلغ من صلف الأمير إدوارد أن وضع نصب عينيه القدوم مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة صليبية جديدة، تكون أكثر عدة وقدرة لمواجهة القوات الإسلامية، ولقد أدرك السلطان الظاهر ما كان ينويه، ولذلك قرر التخلص منه، وتولى هذا، الأمير غرس الدين بن شاور والي الرملة، فسير أحد الحشيشية إلى عكا وطعنه بخنجر مسموم، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة، بيد أنها كانت كافية لثنيه عن عزمه في محارلة الكرارة مرة أخرى، إذ بعد أن غادر عكا على أثر شفائه في السنة ذاتها، لم يعد إلى المنطقة وبخاصة بعد أن أصبح ملكاً على إنجلترا<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص. ٣٩٠، ٣٩٦، ٢٩٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص. ٤٦٨.

(٢) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص. ٣٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الراهن، ص. ١٠٤.

أما الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر مع حكومة عكا، فقد أعطته الفرصة لمواجهة هجمات المغول وملكة أرمينية الصغرى، التي اشتدت على الحدود الشمالية لبلاد الشام، وعلى الرغم من أن عملياته الحربية ضد الصليبيين في الساحل الشامي قد توقفت عند ذلك التاريخ (١٢٧٠هـ/١٢٧٢م)، فقد استمر في مناورتهم سياسياً ليشعرهم بتأييده للانقضاض عليهم في أية لحظة، كما أن الصليبيين أنفسهم ظلوا يتوددون إليه بعد أن خبروا عزيمته القتالية التي لا تفتر، ومثال ذلك أن الأمير بوهمند السابع الذي تولى إمارة طرابلس بعد وفاة والده بوهمند السادس، تقدم إلى السلطان بتجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع والده بحكم وفاته، فوافق السلطان على أن يدفع الأمير بوهمند السابع مبلغاً قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة، ويرد إليه عشرين أسيراً، فقبل بوهمند ذلك، وعقدت الهدنة بينهما في المحرم سنة ١٢٧٦هـ/١٢٧٤م<sup>(١)</sup>.

### **تطور أوضاع الصليبيين في عكا بعد عقد الهدنة الأخيرة**

ظل الملك هيyo الثالث ملك قبرص وملكة بيت المقدس (عكا)، يعمل جاهداً لإزالة الخلافات التي وقعت بين الجماعات والهيئات الصليبية في عكا، في أعقاب مغادرة الأمير إدوارد، غير أن بذور الانحلال كانت أقوى من مجرد أسباب سطحية يمكن إزالتها بسهولة، وأخذ هيyo نفسه يفقد السيطرة على الأمور في عكا وبخاصة بعد وقوف رئيس فرقة الداوية «غليوم دي بوجيه» ضده، كما فقد سيطرته على بيروت أكبر إقطاع له بالساحل الشامي، وذلك عندما تزوجت أميرتها «ايزابيلا» من المدعو هامو أحد رفاق الأمير إدوارد، ولما كان هامو هذا لا يشق بالملك هيyo الثالث فقد جعل زوجته ايزابيلا واقطاعها (بيروت) في حماية السلطان الظاهر بيسروس، وعندما توفي هامو سنة ١٢٧٣هـ/١٢٧١م، حاول الملك هيyo نقل الأميرة ايزابيلا إلى قبرص ليزوجها من رجل يختاره لها<sup>(٢)</sup> غير أن السلطان الظاهر اعترض على ذلك بحكم أنها في حمايته، وكتب

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٤، المقريزي، السلوك، ج١، ص٦٩.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٨٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٥٩، سعيد برجاوى، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٢٥.

إلى الملك هيو قائلًا: «هذه الملكة بيسي وبنها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ولا بد من حضورها، وأن توجه رسلي وتشاهدها، وإن أنا أحق ببلادها»<sup>(١)</sup>.

إذاء هذا التهديد وفضلاً عن عدم تأييد المحكمة العليا في عكا لما قام به الملك هيو، أصبح لزاماً عليه أن يعيد الأميرة إيزابيلا إلى بيروت حيث استقر حرس المالك لحمايتها<sup>(٢)</sup>

ويفقدان سيطرة الملك هيو على الوضع في عكا، غادرها عائداً إلى قبرص سنة ١٢٧٥هـ/١٢٧٦م دون أن يعين نائباً عنه لحكمها، وقد انتهز شارل النجو أمير صقلية هذه الفرصة واتخذ لنفسه لقلب ملك بيت المقدس، وأرسل نائباً عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير في العام التالي ١٢٧٦هـ/١٢٧٧م، وكانت الصدمة قوية على الملك هيو، فقصد صور على رأس قوة بحرية كبيرة سنة ١٢٧٨هـ/١٢٧٩م، في محاولة منه لاسترداد مملكته، إلا أن وقوف فرقة الداوية في طريقه جعله يرتد خاسراً إلى قبرص، وحاول الكرارة أخرى عام ١٢٨٢هـ/١٢٨٣م، ولكنه توفي في صور في العام التالي دون تحقيق ما كان يصبو إليه<sup>(٣)</sup>.

#### **مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية:**

لم تلتزم مملكة أرمينية الصغرى بنصوص الهدنة التي عقدت بين ملوكها هيشوم الأول والسلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦هـ/١٢٦٨م، فقد هاجم أهل قلعة كينوك - وهي قلعة الحدث الحمرا، إحدى قلاع مملكة أرمينية الحدودية مع بلاد الشام - التجار المسلمين، وكتب إلى ملوكها ليوا الثالث - تولى الحكم بعد اعتزال أبيه هيشوم - بذلك: «فلم يفديه الكتابة» بل استمرت اعتدالاتهم على المسلمين، إذ كانت جماعات منهم تخرج متغيرة بزي المغول وتهاجم القوافل الإسلامية، إذاء ذلك جرد

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٤٧.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٨٧.

(٣) م.ن، ج ٣، ص ٥٩١ - ٥٩٢، سعيد عاشور، المركبة الصليبية، ج ٢، ص ١١٦، سعيد بجاوى،

الحروب الصليبية في المشرق، Cit, p268. ٦٢٦ king. op.

الأمير حسام الدين العين تابي مقدم عسکر حلب قوة عسكرية إلى قلعة كينوك في أوائل المحرم ١٢٧٤هـ / ٦٧٢م، وقد نجحت هذه القوة في فتح القلعة وقتل رجالها وسبى نسائهم، ثم واصلت إغاراتها حتى أطراف طرطوس، فنهبت وسبت ثم عادت إلى حلب، وقد شجع ذلك الأمير حسام الدين فخرج بنفسه في العام ذاته على رأس قواته وأغار على بلاد سيس عاصمة أرمينية فحاز على غنائم كثيرة ثم عاد إلى حلب<sup>(١)</sup>.

غير أن هذه العمليات لم تردع ملك أرمينية، فاستمر مخالفًا لنصوص الهدنة المعقودة بين أبية والسلطان، فتحرك السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشة سنة ١٢٧٥هـ/١٢٧٣م صوب مملكة أرمينية للإغارة عليها وتأديب ملوكها الذي استمر على غيه، فهاجم المصيصة والعاصمة سيس وأذنه وطرسوس واياس. وبعث في البحر عسكراً فأخذ وقتل من كان فيها، وانبشت الغارات في الجبال فقتلوا وأسروا وغنموا»، وقضى السلطان عيد الفطر بمدينة سيس العاصمة وقبل أن يفاردها بالغنائم والأسرى أمر بالمدينة فاحرقـتـ، كل ذلك دون أن يجرؤ الملك ليو الثالث الذى كان قابعاً في قلعـته على الوقوف في وجهـهـ<sup>(١)</sup>.

وعندما عاد السلطان الظاهر جرد الأمير سيف الدين الدوادار إلى حصن القصرين لمهاجمته، فأسر نائبه «جيوم كليام»، غير أنه لم يفلح في اقتحامه، فأمر السلطان بالاستمرار في حصاره حتى يفتح، وقد تم ذلك في أواخر شهر جمادى الأولى ١٢٧٦هـ / ١٧٦٤م، حين طلب من فيه من النصارى الأمان والتسليم، فتسلمه القوات الإسلامية منهم<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٧.

(٤) م.ن، ص ٤٣١ - ٤٣٨، المقربى، السلوك، ج ١، ص ٦١٧ - ٦١٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

## الفصل الرابع

### مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان المنصور قلاوون

بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، نوادي بابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة سلطاناً بإجماع كبار أمراء المماليك واستمر في الحكم حتى تم عزله عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وأقيمت مكانه أخيه الملك العادل بدر الدين سلامش، وكان له من العمر سبع سنين، كما أقيم الأمير سيف الدين قلاوون، أتابكاً على العسكر ووصياً عليه، بيد أن الأمير قلاوون سرعان ما خلعه قبل أن يمضي في السلطنة ثلاثة أشهر وتولى سدة الحكم وتلقب بالسلطان الملك المنصور.<sup>(١)</sup>

وقد تعرض قلاوون في أوائل حكمه لثورة قادها الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، استهدف من خلالها الانفصال ببلاد الشام عن مصر، وقد نجح قلاوون في القضاء عليها وهزيمة الأشقر، الذي فر إلى قلعة صهيون في شمال الشام، ومن هناك أخذ يستنجد بالغول ضد السلطان قلاوون، فقد كتب إلى أبيغا بن هولاكو يحثه على قصد البلاد الشامية بجيشه لأخذها، ووعده بمساعدته في تحقيق ذلك.<sup>(٢)</sup>

ولما كان أبيغا بن هولاكو توافقاً لذلك، فقد دفع بقوة عسكرية إلى شمال الشام سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م احتلت عينتاب ويغراس ودريساك وحلب لبعض الوقت، ثم انسحب منها بعدما أحدثته فيها من تدمير وتخريب، وكان مما عجل بانسحابها تراجع الأمير سنقر الأشقر عن موقفه ووقفه إلى جانب السلطان قلاوون.<sup>(٣)</sup>

كما استغل الصليبيون فرصة تردّي الأوضاع في بلاد الشام بسبب ثورة الأشقر فقاموا بمحاولة لإعادة احتلال حصن الأكراد، غير أنهم فشلوا، وفي طريق عودة قوتهم

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٥٦-١٥٨، المقرizi، السلوك، ج١، ص٦٤٢، أبو المحاسن، النجوم الظاهرة، ج٧، ص٢٩٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦٧-٦٨.

(٣) م.ن، ص٧٦-٧٧، أبو المحاسن، النجوم الظاهرة، ج٧، ص٢٩٩.

انقضت عليها قوة إسلامية عند صافيتا وأنزلت بها خسائر كبيرة في أواسط سنة ٦٧٩هـ / أواخر ١٢٨٠م.<sup>(١)</sup>

وكان السلطان المنصور قلاوون قد خرج على رأس جيشه من مصر لمواجهة المغول وعندما وصل إلى غزة بلغه انسحابهم من شمال الشام فعاد إلى مصر.<sup>(٢)</sup> أما الصليبيون فقد جردَ السلطان أولاً قوة عسكرية على رأسها الأمير علاء الدين البندقداري إلى الساحل الشامي لحفظ البلاد منهم، ثم أعطى أوامره في أواخر عام ٦٧٩هـ / مطلع ١٢٨١م إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخِي نائب السلطنة بحصن الأكراد لمهاجمة فرقة الاستبارية في حصن المرقب، فجمع الطباخِي جيوش الحصون الإسلامية وأمراء التركمان والرجالية واستصحب معه المجانق وآلات الحصار وتوجه إلى حصن المرقب، وباتكتمال حصاره ونصب المجانق حوله شرع بهاجمه، ولما لم يحرك الاستبارية ساكناً قوي طمع القوات الإسلامية فيهم وتقدمت إلى جانت الحصن، عندئذ رشقتهم الاستبارية بالسهام، في حين كانت سهام المسلمين لا تصل إليهم بسبب علو الحصن ومنعة تحصيناته، وقد أحدث ذلك اضطراباً كبيراً في صفوف القوات الإسلامية، وحاول الطباخِي السيطرة على الموقف عندما أمر الجندي بالابتعاد عن الحصن، فظنواها هزيمة ولووا الأدبار، فما أمكنه إلا أن تبعهم، وخرج الاستبارية في أعقابهم ونهبواهم وقتلوا وجرحوا وأسرعوا عددًا كبيراً منهم.<sup>(٣)</sup> «وبلغ مجموع من قتل من المسلمين في هذه الواقعة مائتي فارس ورجل».<sup>(٤)</sup>

ونتيجة لهذه الهزيمة فقد سعى السلطان إلى تفرقة أعدائه من صليبيين ومغول ليتمكن من منازلة كلّ منهم على حدة، في الوقت الذي ينعنهم فيه من الاستعانة بالغرب الأوروبي، ولتحقيق ذلك اتبع نهج السلطان الظاهر بيبرس في عقد معاهدات مع الغرب الأوروبي، والميل إلى عقد مهادنات مع الصليبيين على جبهة ومهاجمتهم على جبهة أخرى، فجدد الاتفاقيات والمعاهدات السابقة مع مغول القفجاق والإمبراطورية البيزنطية وقشتالة وصقلية وجمهورية جنوا، فضلاً عن الإمبراطور الغربي رودلف

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج. ٢، ص ١١٦٥-١١٦٦.

(٢) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٧٨.

(٣) م.ن، ص ٨٠.

(٤) ابن أبي النضائل، النهج السديد، ص ٣٢١.

هابسبورج.<sup>(١)</sup>

كما أن الفرصة قد جاءت من الصليبيين لعقد مهادنات معهم، فحين وصل بجيشه إلى منزلة الروحاء بالقرب من حيفا، أسرع اسبةتارية عكا بانفاذ رسليم إلـيـه يـسـأـلـونـه تـجـديـدـ الـهـدـنـةـ التـيـ كـانـتـ قـدـ عـقـدـتـ مـعـ السـلـطـانـ الـظـاهـرـ بـيـبرـسـ سـنـةـ ١٢٧٢ـ هـ ٦٦٧ـ مـ وـ الـزـيـادـةـ عـلـيـهـاـ،ـ وـيـعـدـ مـفـاوـضـاتـ سـيـاسـيـةـ عـقـدـ السـلـطـانـ الـمـنـصـورـ قـلـاـوـونـ هـدـنـةـ مـعـهـمـ مـدـتـهـاـ عـشـرـ سـنـيـنـ وـعـشـرـ أـشـهـرـ وـعـشـرـ سـاعـاتـ أـولـهـاـ .ـ ١ـ مـحـرمـ ١٢٨١ـ هـ ٣ـ آـيـارـ<sup>(٢)</sup>.

وعقد هدنة أخرى في وقت لاحق مع بوهمند السابع أمير طرابلس مدتها عشر سنين أولها ٢٧ ربـيعـ الـأـوـلـ ١٢٨١ـ هـ ٦٨٠ـ تمـوزـ ١٢٨١ـ مـ.<sup>(٣)</sup>

ولم يكن الصليبيون يؤثرون مساملة السلطان فقط، بل أظهروا الود له أيضاً وذلك عندما كتبوا له عن مؤامرة دبرها الأمير كوندك (أحد أمراء السلطان) الذي اتصل بهم في عكا وطلب منهم ألا يصالحوا السلطان، مما ساعد على القضاء على هذه المؤامرة قبل استفحالها.<sup>(٤)</sup>

وبعد هاتين الهـدـنـةـيـنـ أـمـنـ السـلـطـانـ الـمـنـصـورـ جـانـبـ الصـلـيـبـيـيـنـ،ـ فـتـمـكـنـ مـنـ مـواجهـةـ المـغـولـ وـهـزـيـتـهـمـ فـيـ مـوقـعـةـ حـمـصـ سـنـةـ ١٢٨١ـ هـ ٦٨٠ـ.ـ وقد أدهش انتصاره هذا الصـلـيـبـيـيـنـ فـيـ عـكـاـ،ـ فـلـمـ يـسـعـ سـانـ سـفـرـيـنـوـ نـائـبـ شـارـلـ الـنجـوـ فـيـ عـكـاـ إـلـاـ أـنـ خـرـجـ لـاستـقـبـالـهـ وـتـهـنـيـتـهـ بـهـذـاـ الـانتـصـارـ.<sup>(٥)</sup>ـ وقد عـزـزـ هـذـاـ مـهـاـبـةـ السـلـطـانـ فـيـ قـلـوـبـ الصـلـيـبـيـيـنـ،ـ

(١) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ٦٦-٦٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام العصور، ص ٨٢، بيبرس الدواداري، زيدة الفكر، مخطوط، ورقة ١٢٤.

(٣) بيبرس الدواداري، زيدة الفكر، ورقة ١٢٤-١٢٦.

ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والمعصور، ص ٧٧، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٥٢-٢٠٦، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٦٨٥، (انظر نص الهدنة في الملحق).

Holt, Qalawun's, Treaty with Acre in 1283,P802.

(٤) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٤٠، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٦٨٥-٦٨٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ١٤.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٦٨-١١٦٧.

فتقدم الداوية في عكا والساحل وانظرطوس بطلب عقد هذه معه، فوافق على ذلك- لخشيته من المغول الذين ظلوا يعملون على اجتياح بلاد الشام بالرغم من هزيمتهم في حمص- وعقد هذه معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ محرم ١٢٨١هـ / ١٥ نيسان ١٢٨٢م، واعقبها في العام التالي عقد هذه أخرى عامية مع حكام عكا وصيدا وعشليث مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ ربيع الأول ٣/٦٨٣هـ / ٢٤ حزيران ١٢٨٣م.<sup>(١)</sup> وقد استبعدت فيها صور وبيروت<sup>(٢)</sup>.

وواصل السلطان المنصور سياسة سلفه السلطان الظاهر في استمرار الهجوم على مملكة أرمينية بسبب موقفها العدائي من المسلمين وتحالفها مع المغول، فجرد سنة ١٢٨٢هـ / ١٢٨٣م قوات عسكرية أغارت على بلادها ووصلت إلى مدينة إياس فقتلت ونهبت وأحرقت، ثم دخلت في معركة مع الأرمن عند باب اسكندرونة فهزمتهم ولاحقتهم حتى تل حمدون ثم عادت محملة بالغنائم.<sup>(٣)</sup>

#### فتح حصن المرقب:

أخذ السلطان المنصور يتحين الفرصة للانتصاف على معاقل الصليبيين وبخاصة بعد ضعف خطر المغول، ولذلك ما أن عاد الاستبارية في حصن المرقب إلى الاعتداء على المسلمين ومضايقتهم حتى شرع بالتحرك على رأس جيشه إلى بلاد الشام سنة ١٢٨٤هـ / ١٢٨٥م لتحرير هذا الحصن، فوصل أولاً إلى دمشق، وبعد أن استكمل تجهيزاته تحرك بسرية تامة دون أن يعلم أحد بوجهته، وقد نازله في ١٧ صفر / نيسان من العام المذكور، وباكتمال نصب المجانق حوله، بدأ يقصده من جميع الجهات، وبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبدواها الصليبيون، إلا أن السلطان أصر على اقتحام الحصن، فشدد المجاهدون من ضرباتهم حتى أجبروا الصليبيين على طلب الأمان، فأمنهم السلطان وسمح لهم بمغادرة الحصن دون حمل مال أو سلاح يتعلق بالحصن خاصة،

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ج ٢٠، ٣٤ (انظر نص هذه في الملحق).

- كان قد تولى نائباً عن الملك شارل المجنو في عكا في ذلك العين أودو بولشيان الذي حل محل سان سفرينو (رسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٤-٦٦٥).

(٢) رسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٥. Holt, op. cit,p 802.

(٣) المقرنزي، السلوك، ج ١، ص ٧١٦.

فغادروا الحصن بأموالهم الخاصة إلى انططروس في حماية عسكرية من السلطان، ثم اتجهوا إلى طرابلس، ودخل السلطان القلعة في ١٩ ربيع الأول / ٢٥ أيار من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>، ثم استولى على جميع الأعمال التابعة للحصن مثل بلنياس ومرقية.<sup>(٢)</sup> ونظراً لمناعة حصن المربج وأهميته العسكرية فقد أمر السلطان بالإبقاء عليه، ورتب فيه ألف راجل من فرق الجيش وعدداً من الأمراء أصحاب الطلبخانات وخمسين من المالكين البحريين، فضلاً عن أربعينات من أرباب الصنائع، كما زوده بأصناف عديدة من الأسلحة.<sup>(٣)</sup>

وكان قد ورد على السلطان في أثناء حصاره لهذا الحصن رسول من جهة ملك أرمينية ليو الثالث يطلب عقد هدنة معه مقابل جزية يحملها إليه كل سنة، وكان هذا الملك يكسر في تسليم بهنسنا إلى السلطان ويعتذر بأعذار كثيرة، وكانت بهنسنا إحدى المدن المتفق على تسليمها للدولة الإسلامية في الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الملك هيثوم الأول والد ليو عام (١٢٦٨/٥٦٦٨م).

وبعد مداولات مع رسول الملك ليو عقد السلطان المنصور هدنة معه مدتها عشر سنين وعشرين شهر وعشرين ساعتين أولها يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر / ٧ حزيران ١٢٨٥م وأهم ما جاء فيها:

١. يحمل الملك ليو إلى السلطان المنصور قلاؤن في كل سنة ألف درهم قطعة من دراهم وأصناف طيلة مدة الهدنة.
٢. يطلق الملك ليو جميع التجار المسلمين المعتقلين لديه مع إعادة أموالهم وبضائعهم، وإعادة أموال من مات منهم أيضاً.
٣. يطلق الملك ليو جميع من عنده من أسرى المسلمين.
٤. لا يجدد الملك ليو بناء قلعة أو ما يختص بها في مملكته.<sup>(٤)</sup>

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعمور، ص ٧٨٠-٨٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢١. ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٦٨.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٧١، King, op, cit, P285.

(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعمور، ص ٨٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعمور، ص ٩٢-١٠١.

### تدمير حصن مرقية بأيدي الصليبيين:

بعد أن فتح السلطان المنصور قلاون حصن المرقب وأعماله، أخذ في إعمال الحيلة لفتح حصن مرقية -الواقع بين طرطوس والمرقب وسط البحر، وبمواجهة مدينة مرقية- وكان السلطان الظاهر بيبرس قد فتح مرقية إلا أن الصليبيين أعادوا احتلالها عقب وفاته، وقد عمر هذا الحصن قبالتها «بارتلمي» أحد أكابر الصليبيين، وأعانه على ذلك أمير طرابلس واستمارية حصن المرقب، فلحق المسلمين منه أذى كبير بسبب موقعه العسكري، وكان نواب حصن الأكراد لما عاينوا بناءه وعجزوا عن منع الصليبيين من تشبيده، قد أقاموا بالقرب منه برجا بقرية ميعار، غير أنه لم يضاهيه في المنعة.<sup>(١)</sup>

وعندما تيقن السلطان من عدم إمكانية حصاره لافتقاره إلى مراكب حرية في ذلك الحين ليحاصره ويقطع الميرة عنه، فقد أرسل إلى أمير طرابلس طالبا منه هدم الحصن لأنه قد ساعد في بنائه، وهدده باحتياج إمارته إن لم ينفذ الهدم، فلم يسع أمير طرابلس إلا الإذعان، فتوسط لدى صاحب هذا الحصن مقابل جملة من المال، كما عوضه بعده ضياع من إمارته بدلأ منه. فهدمه مرغما -بالرغم من أنه كان قد قتل ابنه عندما علم بمحاولته تسليم الحصن للسلطان سرا- وقد أرسل السلطان مائة حجّار للمشاركة في الهدم نكاية بالصليبيين.<sup>(٢)</sup>

وقد روع ذلك جموعهم في بلاد الشام فتقدمت الأميرة ايشيفا أميرة بيروت -تولت الحكم بعد وفاة اختها ايزابيلا- بطلب عقد الهدنة مع السلطان، فطالبتها بدفع مبلغ تسعين ألف درهم مقابل ذلك، فتم الاتفاق على أن تدفع مبلغ ثلاثين ألف درهم أولا على أن يتم دفع ما تبقى في غضون ثلاثة أشهر، وفي السنة التالية تقدمت الأميرة مرجريت أميرة صور بطلب عقد هدنة، فوافقتها السلطان المنصور مقابل تنازلها عن نصف دخل إمارتها السنوي وتعهدتها بعدم تجديد تحصيناتها، وعلى هذه الأساس تم عقد الهدنة معها لمدة عشر سنين أولها ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤هـ / ١٨ تقویز ١٢٨٥م.<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٨٨، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٨٥.

(٢) م.ن، ص ٨٧-٨٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٠٣، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاون في مصر، ص ٣٣٨، «انظر نص الهدنة في الملحق».

### تطور أوضاع الصليبيين في عكا:

توفي شارل أنجو سنة ١٢٨٤هـ / ١٢٨٥م، ولما لم يكن ابنه شارل الثاني ملك نابولي يحفل بما يجري في الشرق، فقد أرسل اسبتارية عكا إلى الملك هنري الثاني ملك قبرص ينصحونه باسترداد ملك أبيه في مملكة بيت المقدس «عكا» ولما كان هنري الثاني توافقاً إلى ذلك فقد أرسل مبعوثاً إلى عكا ليجري مفاوضات مع مختلف الهيئات الصليبية حول الاعتراف به ملكاً على بيت المقدس، غير أن أودو بوليشيان رفض أن يتخلّى عن نيابة عن ملك صقلية.

وجاء وصول هنري الثاني إلى عكا عام ١٢٨٥هـ / ١٢٨٦م، ليضع حداً لرفض أودو بوليشيان، الذي اضطر في النهاية إلى الاعذان والموافقة، ويتوبيح هنري الثاني ملكاً على مملكة بيت المقدس في كاتدرائية صور - كما جرى التقليد - في ١٥ آب من السنة ذاتها عادت عكا مرة أخرى تحت حكم ملوك قبرص، وقبل أن يغادر هنري الثاني عكا عائداً إلى قبرص عين فيها حاله بلهودين أبلين نائباً عنه.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك الوقت نشبّت حرب في إيطاليا بين بيزا وجنوا، ولم تلبث أن امتدت بينهما إلى سواحل بلاد الشام التي تخضع للصليبيين، فقد جاء أسطول جنوى لهاجمة البيازنة ومستعمراتهم عام ١٢٨٦هـ / ١٢٨٧م بقيادة أمير البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري، وقد توجه سبينولا لزيارة الإسكندرية للحصول على تأييد السلطان المنصور، في حين انطلق أشيري يذرع ساحل الشام على رأس أسطوله وبهاجم سفن البيازنة ويفرق أو يأسر كل من يصادفه منها، وقد حاول بيع الملاحين البيازنة الذين وقعوا في أسراه، لكن تدخل الداوية منعه من ذلك، ثم أن أشيري لجأ إلى صور ليعد هجوماً على ميناء عكا، مما دفع البنادية إلى اشراك أسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء، غير أن أشيري انتصر تجاه حاجز الأمواج، إلا أنه لم يستطع أن ينفذ إلى داخل الميناء، ولما أبحر سبينولا من الإسكندرية، استطاع الجنوبيون فرض الحصار على كل الساحل، بيد أنهم ما لبשו أن تراجعوا إلى صور على أثر توسط مقدمي الداوية والاسبتارية ومن معهم من مثلي النبلاء المحليين فعاد الطريق البحري آمناً إلى مينا عكا.<sup>(٢)</sup>

(١) رنسيمان، تاريخ المروء الصليبية، ج٣، ص٦٦٩-٦٧١.

(٢) رنسيمان، م.ن، ج٣، ص٨٦٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٧١.

### فتح اللاذقية :

انتهز السلطان المنصور فرصة انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية، فأرسل قوات عسكرية على رأسها الأمير حسام الدين طرنطاي للاستيلاء على اللاذقية وذلك سنة ١٢٨٦هـ / ١٢٨٧م، وكانت اللاذقية آخر ما تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية، وعندما وصلت القوات الإسلامية قريباً من المدينة، انسحب منها الصليبيون إلى حصن قريب منها ويتصل بالبر بواسطة جسر، فسقطت المدينة بيد الأمير حسام الدين دون مقاومة.

أما الحصن فكان قد تهدم أكثره نتيجة زلزلة كانت قد حدثت قبيل مهاجمة المسلمين له، وقد ساعد ذلك على سقوطه، إذ استطاع الأمير حسام الدين نصب المجانق على أمكنة ضيقة جداً قبالته ووسع الجسر الواسع إليه، وشرع في مهاجمته إلى أن تمكن من إحداث النقوب من جهة الأمكانة التي هدمتها الزلزلة وكشفتها من جهة البحر، عندئذ لم يقو الصليبيون على المقاومة وطلبو الأمان، فأمنهم الأمير حسام الدين على أنفسهم وأموالهم على أن يخرجوا منه تاركين ما به من عدد وسلاح، فتركوه وتوجهوا إلى جهات عدة، وتسلمه الأمير حسام الدين في ٥ ربيع الأول / ٢٠ نيسان من السنة المذكورة.<sup>(١)</sup>

### فتح طرابلس :

ظللت طرابلس بمنأى عن هجمات الدولة المملوكية بحكم المهدانات التي عقدت مع أمرائها، وكان آخرها تلك الهدنة التي عقدها السلطان المنصور قلاوون مع الأمير بوهمند السابع سنة ١٢٨١هـ / ١٢٨٠م، وكانت طرابلس في ضوء هذه المهدانات قد ازدحمت بالصليبيين الذين التجأوا إليها من العاقل الصليبية في الساحل الشامي بعد أن حررتها القوات الإسلامية.

ولم يكن عقد تلك المهدانات ليجعل الدولة المملوكية تتخلى عن محاولة الانقضاض على طرابلس وطرد الصليبيين منها وإعادتها للحظيرة الإسلامية، فقد أخذ

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والغضور، ص ١٥١-١٥٢، أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢٢٢.  
رسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٨١.

السلطان المنصور قلاوون يتحين الفرصة المناسبة لتحقيق هذا الهدف. وكان أن ساعدت الظروف الداخلية التي حدثت في طرابلس السلطان على تحقيق ما كان يصبو إليه، فقد حدث أن توفي الأمير بوهمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ولم يخلف وريثاً مباشراً للعرش، فأعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون - مجلس بلدي - بزعامة بارثو لوميو أميرياكو لحكم الإمارة، في الوقت الذي قدمت فيه لويسا أخت بوهمند السابع ووريثته مع زوجها إلى الشرق ونزلت في عكا، وعلى الفور استنجدت بالاسبارتارية للوقوف إلى جانبها لاستعادة حقها، فرد قومون طرابلس بعقد اتفاقية مع جنوا، أصبحت طرابلس بمقتضاه تحت حمايتها، وقد حصلت جنوا بمحض ذلك على شوارع وأسواق عديدة في طرابلس، والواقع أن جنوا كانت تتوقع إلى عقد مثل هذه الاتفاقية نظراً للمكاسب التجارية الكبيرة التي كانت تتطلع إليها في طرابلس، فضلاً عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية في الشرق وفي حوض المتوسط.

غير أن أهل طرابلس كانوا متعاطفين مع لويسا، فكتبوا لها بما تم مع جنوا، ولكن ذلك التعاطف لم يكن ذات فائدة دون موافقة الجنوية على إعادة الحق لها، فسارعت إلى عقد لقاء مع رئيس الجنوية في صور، تم الاتفاق فيه على موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس مقابل موافقتها على جميع ما حصلت عليه جنوا، وكذلك موافقتها على الحقوق التي حصل عليها قومون طرابلس.<sup>(١)</sup>

غير أن ذلك لم يرض «بارثولوميو أميرياكو» زعيم القومون الذي كان يطمع في الحصول على إمارة طرابلس لنفسه، وتعبيرًا عن موقفه قام بإرسال مبعوث إلى السلطان المنصور قلاوون يطلب منه التأييد والمساعدة لتحقيق أطماعه في طرابلس، على أن تكون المدينة مناصفة بينهما، وفي ذلك قال المؤرخ أبو المحاسن: «وسائل سير تلمه (بارثولوميو) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخى السلاحدار وأن يساعده على تملك طرابلس، على أن تكون مناصفة ويدل بذولاً كثيرة». <sup>(٢)</sup> وقد وجد السلطان المنصور قلاوون في ذلك فرصة للانتقام من طرابلس دون

(١) رنسiman، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٨١-٦٨٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٧٢.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٠-٣٢١.

أن يتعهد لبارثولوميو بشيء، وفي غمرة ذلك ازدادت النزاعات والانقسامات بين صفوف الصليبيين في طرابلس، واضطرب حبل الأمان فيها، ثم ما لبثوا أن نقضوا الهدنة المعقودة مع السلطان عندما اعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وذلك في أواخر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، فشرع في تجهيز قواته وإعدادها، ثم تحرك على رأس الجيش في منتصف المحرم ٦٨٨هـ/شباط ١٢٩٠م، وكتب عند رحيله إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك الوقت علم مقدم الداوية عن طريق رشوة أحد أمراء الملك وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، بنية السلطان قلاوون، فحضر أهل طرابلس من الخطر المحدق بهم، ولكن الأحقاد والمنازعات والانقسامات ظلت تعمل عملها بين مختلف طوائفهم، فلم يلتفتوا إلى ذلك التحذير.<sup>(٢)</sup>

وكان السلطان قد وصل إلى دمشق أولاً، وبعد استكمال التجهيزات قاد جيشاً عدته أربعون ألف فارس ومئتي ألف راجل ما بين قوات نظامية وأخرى متقطعة.<sup>(٣)</sup> وفور وصوله إليها في مستهل ربيع الأول ١٧ آذار من السنة المذكورة، شرع في حصارها ونصب المجانق على طول جبهاتها البرية، وقد بلغت عدتها تسعة عشر منجنيناً عمل فيها ألف وخمسمائة رجل من الحجّارين والزراقيين.

وقد أصاب الهلع قلوب أهلها، فأسرعوا يطلبون النجدة من كل صوب، فأرسل لهم ملك قبرص أربع سفن بقيادة أخيه عموري.<sup>(٤)</sup> وأسرع الاستبارية إلى مساندتهم -رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس- وقدم صليبيو عكا كل ما أمكنهم من مساعدة، أما الجنوية والبيازنة والبنادقة، فقد تناسوا خلافاتهم مؤقتاً وتضامنت سفنهم في حماية طرابلس من جهة البحر.

ورغم كل هذه المساعدات إلا أن المدينة لم تستطع الصمود في وجه الحصار الشديد الذي ضربه السلطان المنصور، وعندما شددت المجانق في رمياتها على المدينة وأخذ القابون ينقبون أسوارها، تمكن الخوف واليأس في صفوف المنجددين، فسارع الجنوية

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٤٦، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ١١٧٣.

(٣) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٣١.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٤٧، King. op. cit, P288.

والبنادقة بالانسحاب حفاظا على أنفسهم وأموالهم.<sup>(١)</sup> مما أصاب أهلها بالذهول، ووسط ذهولهم هذا، تمكن المجاهدون المسلمين من احتلاء أسوار المدينة وفتحها عنوة بالسيف في ١٤ ربيع الآخر / ٢٦ نيسان من السنة ذاتها (١٢٨٩هـ/١٢٨٩م)، فلم يسع أهلها إلا الهرب باتجاه المينا، فتبعدتهم المجاهدون فقتلوا وجروحا وأسرموا عدداً كبيراً منهم.<sup>(٢)</sup> وقد التجأ عدد كبير منهن إلى جزيرة بالقرب من المدينة، ودخلوا في كنيسة سقطاس، فتبعتهم قوة من المجاهدين خاضت مياه البحر فرسانا ورجالة حتى أدركتهم، فقتل الرجال وسبت النساء والأطفال، وذكر أبو الفداء الذي شارك في هذا الفتح بقوله: «وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب والسلب عبرت إليها في مركب، فوجدتها ملأى من القتلى وقد جافت به حيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى».<sup>(٣)</sup>

وبلغ مجموع من قتل من الصليبيين في هذا الفتح عدد كبير يقدر بنحو سبعة الآف.<sup>(٤)</sup> أما الأسرى فكانوا في نحو ألف ومائتي أسير.<sup>(٥)</sup>

ثم أمر السلطان المنصور بهدم المدينة، فهدمت «وأحرقت وخرب سورها» وكان عرض سورها يمتد لثلاثة فرسان بالخيل، ثم أمر السلطان بعد ذلك ببناء مدينة جديدة بجوار النهر حول حصن صنوجيل في الداخل بعيداً عن شاطئ البحر خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية.<sup>(٦)</sup> أما الموضع الذي كانت تقوم عليه أطلال المدينة التي هدمها فقد أقام عليها عدداً من الأبراج على طول الساحل الشرقي والشمالي من شبه جزيرة المينا، تكيناً للدفاع البحري عنها.<sup>(٧)</sup>

وبالسيطرة على طرابلس أخلى الصليبيون «أنفة» الواقعة إلى الشرق من جبل

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٧٤، ١١٧٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٤٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢١.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٢٣.

(٤) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٩٢.

(٥) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٨٠.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٤٧-٧٤٨، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٧٥.

(٧) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٩٤.

صهيون على الساحل، فأمر السلطان بتخريبها، كما أخلى الصليبيون «المترون» جنوبي طرابلس وجميع ما هناك من حصن، فاستلمتها القوات الإسلامية<sup>(١)</sup>، أما مدينة جبيل فقد ظلت بأيدي الصليبيين بإقرار السلطان المنصور لصاحبها بطرس ابورياكو مقابل جزية يدفعها.<sup>(٢)</sup> كما أعطى السلطان أمانا لصاحب بيروت.<sup>(٣)</sup>

وقد نظم الشاعر شهاب الدين محمود -كاتب الإنشاء- قصيدة مدح فيها السلطان المنصور قلاوون عند فتحه طرابلس -وهي على البحر الطويل- نقتطف منها قوله:-

لأنك للإسلام يا سيفه ذخر  
إلى من له في أمر نصرتك الأمر  
يا أنزل الرحمن من نصرة بدر  
أقل عناها أن خندقها البحر  
كنحر وأنت السيف لاح له نحر  
تزل اذا مارام أوطاءها الذر  
فمن اجل ذا للسيف في نظمه انشر  
أبى الله إلا أن يكون له الفخر  
فيشارك يا من خصه ذلك الاجر  
وكم راح من عصر وما راعها حصر  
وراح ولم يبرد له بمالنا صدر  
قييد وقد اربى على بعرها البر  
وأقتلته العذاب الذي جره النصر  
اليها سرايا جيشك الرعب والذعر  
عليها لها في شم ابراجها وتر  
إليهم كما ينقض من حلق نسر  
عليها وبباقي الجيش خلفك لم يدروا

علينا من أولاك نعمته الشكر  
ومنا لك الإخلاص في صالح الدعا  
فإن تك قد فاتتك بدر فهذه  
نهضت إلى عليا طرابلس التي  
وقد ضمها كالطوق إلا بقية  
ومن دون سورها عقاب منيعة  
وكانت بدار العلم تعرف قبلها  
ولما غدت لأفسر مثل افتتاحها  
ولا أجر عند الله مثل فكاكها  
وكم مؤمن دهرها وما مسها أذى  
وكم ليث غاب رامها في جيشه  
فناجيتها بالجيش كالرج فانشئت  
فطلت لدى بحرين أنكا حمالها  
وأقسم ما فاجأتها بل تقدمت  
كأن المجانق التي أوترت ضحي  
تلحق في وجه السماء وترقى  
فهاجمتها في أول الجيش فاحتوى

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج١، ص٨١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢١-٣٢٢.

(٢) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص٧٤٨، رنسيمان، تاريخ الغزوات الصليبية، ج٣، ص٦٨٣.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٤٢.

وليس له إلا رؤوسهم وكسر  
على زرقة فيه لناظره قمر  
ليدروا وإلا من تغمده الأسر  
إلى أن في الدارين تشليثهم خسر  
ويعجب ذاك المد من دابه الجزر  
ولو أتوا إليهم كموج البحر أفنادهم البحر  
فللسيف شطر والقيود لها شطر<sup>(١)</sup>  
يقوم به في وصف أفعالك الشعر؟

## اًذْسَمْدَادُ لِفَتْحِ مِكَا:

على أثر تحرير طرابلس أسرع البابا نيكولا الرابع بالدعوة إلى قيام حملة صليبية جديدة لحماية ما تبقى من معاقل للصلبيين في الشرق، ولما كانت البندقية صاحبة السيادة التجارية في عكا، وتهديدها من قبل المسلمين يعني تهديد مصالحها التجارية الكبرى في كل بلاد الشام، لذا فقد عجلت باعداد حملة في ألف وستمائة مرتزق- فضلاً عن المتطوعين من بقية المدن الإيطالية لإنقاذ عكا فيما لو حاول السلطان المنصور استعادتها. وأبحرت هذه الحملة باتجاه الشرق ووصلت إلى عكا في صيف سنة ١٢٩٥هـ/١٢٩٠م.<sup>(٤)</sup>

وعلى الرغم من وجود هدنة معقدة بين السلطان وحكام عكا، إلا أن أفراد هذه الحملة لم يحترموا تلك الهدنة، فما أن وصلوا عكا حتى هاجموا التجار المسلمين الذين كانوا قد قصدواها في ظل الأمان المعطى لهم بوجب عقد الهدنة المذكورة، كما هاجموا الفلاحين المسلمين في إقليم المدينه.<sup>(٣)</sup>

وقد أجمع مؤرخو العصر المملوكي على وقوع هذا الاعتداء السافر، بيد أن الشارة الأولى التي كانت بداية لهذه المذبحة الشنيعة، فقد تعددت الروايات حولها، على أن أقوالها تلك التي ذكرها المؤرخ ابن ابيك الدواداري ونقلها عن والده مباشرة،

(١) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٩٥-٢٩٩.

(٢) سعيد عاشور، المركبة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٨.

(٣) م.ن، ج.٢، ص٨٧٧.

فقال: «وأصل ذلك ما حكاه والدي، رحمة الله قال: «ورد فقير من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقرة، وهو مكان مبارك، فوجد فيه جماعة فقراء، فلما كان وقت الأذان أذنوا خفية ولم يفتحوا للمسجد طاقات، فانكر عليهم ذلك الفقير، فقالوا إنها بلد كفر وتخسي الفرنج، فقال الفقير: الآن كما طاب الجهاد في سبيل الله، يا فقراء أما قرأتم قوله تعالى (وت تخشى الناس والله أحق أن تخشاه) <sup>(١)</sup> ثم أن الفقير صبر إلى آذان الظهر وفتح طاقات المسجد وعلى علوه وأعلن بالآذان، وكان قد ورد عكا من الفرنج من داخل البحر غنم ليس من أهلها، فلما سمعوا الآذان اجهاراً، لعب فيهم الشيطان ووثبوا من فورهم، فقتلوا ذلك الفقير وطربثوا دمه في حيطة المسجد مع ثلاثة فقراء آخر ثم خرجوا، وعادوا لا يلتقطوا مسلماً في البلد إلا أوقعوا به القتل، فلما بلغ السلطان ذلك تجهز واهتم لأخذها بعونة الله تعالى» <sup>(٢)</sup>.

وقد بلغ من حقدم على المسلمين أن هاجموا النصارى السريان في عكا واقليمها ظنا منهم أنهم مسلمون بسبب إطالة حاكم <sup>(٣)</sup>.

وعندما أحضرت ملابس الضحايا المسلمين إلى السلطان المنصور مضرجة بالدماء أقسم على الانتقام وأرسل إلى الصليبيين في عكا يطلب تسليمهم المجرمين، وقد رأى ذلك أهل عكا، وخسروا عاقبة الأمر، فعقد مقدموهم مجلساً لبحث الموقف، واقتصر مقدم الداوية تسليم المجرمين، إلا أن اقتراحته قوبل بالرفض <sup>(٤)</sup>.

وللخروج من هذا المأزق اتفق رأيهما على أخذ جماعة من المسلمين وشنقهم على أنهم الفاعلون من الصليبيين، والكتابة إلى السلطان بذلك في محاولة لخداعه وفي ذلك قال المؤرخ شافع بن علي: «فأخذوا جماعة من المسلمين وبالسوهم زي الفرنج وشنقوهم وكتبوا للسلطان الملك المنصور بغير هذه الصورة وقالوا إن جماعة من الغرب الفرنج فعلوا ذلك وإنما شنقناهم للوقت حفظاً للهدنة» <sup>(٥)</sup>.

لم يقنع السلطان المنصور الذي خبر مكرهم وخشىهم ب موقفهم هذا، كما رفض بشدة

(١) الأحزاب، ٣٧.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص. ٣٠١-٣٠٠.

(٣) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج٢، ص ١١٧٨.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٨.

(٥) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٥٨.

قبول أسفهم واعتذارهم، وشرع من فوره بتبعة الجيش لاستعادة عكا وتطهيرها من الصليبيين، وعهد إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب في بلاد الشام<sup>(١)</sup>. ولم تلبث أخبار استعدادات السلطان أن تسربت إلى الصليبيين، فأسرع مقدم الداوية في عكا إلى تحذير كافة قوى الصليبيين فيها، ولكنهم لم يأبهوا بالتحذير وظلوا غارقين في خلافاتهم.<sup>(٢)</sup>

وكانت عكا قد اكتظت بهزيج غريب غير متجانس من الصليبيين فيها بعد أن فرت إليها بقايا العناصر المختلفة من انطاكية وطرابلس وغيرهما من المدن والمحصون التي استولى عليها المسلمون، فصار في عكا سبع عشرة جالية كل منها تؤلف قومونا مستقلاً بشؤونه الخاصة، هذا فضلاً عن مماثلٍ منظمات الفرسان وملوك المجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الإيطالية التجارية والبابوية، وكل واحد من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذي يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره.<sup>(٣)</sup>

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون لم يكدر يفرغ من كافة استعداداته الحربية، ويغادر القاهرة على رأس جيشه حتى وفاة الأجل المعتمد بظاهر القاهرة في مخيمه الذي أقامه بمسجد تبر (أول منزلة في الطريق إلى الشام، وموضعه قريب من المطيرية) في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ / ١٠ تشرين ثاني ١٢٩٠م، فتولى عرش السلطنة في اليوم التالي لوفاته ابنه السلطان الأشرف خليل.<sup>(٤)</sup>

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٥٤.

(٢) سعيد عاشور، المركبة الصليبية، ج١، ص١١٨.

(٣) م.ن، ج١، ص١١٨.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٦٢-٧٦٣.

## الفصل الخامس

### مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

### في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

**فتح عكا:**

تعرض الأشرف خليل في بداية حكمه لمؤامرة دبرت لإقصائه عن العرش قادها الأمير حسام الدين طرططي نائب السلطنة، بيد أنه سرعان ما أثبت كفاءته بالتخلص منها بقتل مدبرها، ثم تفرغ بعد ذلك لإنتمام عزم أبيه على فتح عكا، وإن جاء ذلك الأمر متأخراً بضعة أشهر احتاجها الأشرف لتشييـت دعائم حكمه وإعادة تجهيز الجيش.<sup>(١)</sup> حاول الصليبيون ثني السلطان الأشرف عن عزمه بمهاجمة عكا، أو إعاقةـه على الأقل كـي يتـسنى لهم الاستـعادـه لـمواقـتهـ، فأرسلوا إـلـيـهـ وـفـدـاـ لـتهـنـيـتـهـ بـتـولـيـهـ عـرـشـ السـلـطـنـةـ، وـطـلـبـ الـعـفـوـ، مـعـتـذـرـينـ لـهـ عـمـاـ جـرـىـ، كـمـاـ التـمـسـواـ مـنـهـ وـضـعـ ماـ يـرـاهـ منـ شـروـطـ جـديـدةـ لـاستـمرـارـ الـهـدـنـةـ التـيـ كـانـواـ قـدـ عـقـدـوـهـاـ مـعـ وـالـدـهـ السـلـطـانـ المـنـصـورـ قـلاـوـونـ، وـلـكـنـ رـدـهـ كـانـ صـارـماـ إـذـ أـمـرـ بالـقـاءـ القـبـضـ عـلـىـ أـعـضـاءـ هـذـاـ الرـفـدـ وـاـيـداـعـهـمـ السـجـنـ.<sup>(٢)</sup>

ثم شـرـعـ فـيـ تـجـهـيزـ قـوـاتـ للـزـحفـ صـوبـ عـكاـ، وـأـرـسـلـ بـتـجـهـيزـ الـقـوـاتـ الشـامـيـةـ مـنـ كـافـةـ نـيـابـاتـهـ (ـدـمـشـقـ، حـلـبـ، حـمـاءـ، الـكـرـكـ، صـفـدـ، طـرـابـلسـ)ـ وـإـعـدـادـ الـمـجـانـيقـ وـآلـاتـ الـحـصارـ، كـمـاـ دـعـاـ إـلـىـ اـسـتـنـفـارـ الـأـهـالـيـ لـلـمـشـارـكـةـ فـيـ هـذـهـ الـحـمـلـةـ الـعـسـكـرـيـةـ، وـمـوـافـاتـهـ عـلـىـ أـبـوـابـ عـكاـ.<sup>(٣)</sup>

وـقـدـ تـشـكـلـتـ الـقـوـاتـ إـلـاسـلـامـيـةـ بـعـدـ تـكـامـلـهـاـ مـنـ قـوـاتـ نـظـامـيـةـ وـأـخـرىـ مـتـطـوـعـةـ ضـمـتـ الـغـزـاـ وـالـصـنـاعـ وـالـمـجـارـيـ وـالـنـجـارـيـ وـغـيـرـهـ، وـقـدـ فـاقـتـ نـسـبـةـ الـمـطـوـعـينـ الـقـوـاتـ النـظـامـيـةـ بـكـثـيرـ<sup>(٤)</sup>ـ، وـكـانـ مـجـمـوعـ هـذـهـ الـقـوـاتـ مـجـتـمـعـةـ سـتـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ الـفـرـسـانـ وـمـائـةـ سـتـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ الـمـشـاةـ(ـالـرـجـالـةـ)ـ.

(١) أبو الفداء، المختصر، جـ٢، صـ٢٤، المقريزي، السلوك، جـ١، صـ٧٦٢-٧٦٣.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، صـ١١٢٤.

(٣) أبو الفداء، المختصر، جـ٢، صـ٢٤، المقريзи، السلوك، جـ١، صـ٧٦٣.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، صـ٥.

وعندما تأكد للصلبيين عزم السلطان الأشرف على مهاجمة عكا، أسرعوا في جمع كل قواتهم في الشام وعكا، فضلاً عن القوات التي أرسلها الملك «هنري الثاني» ملك قبرص الذي عهد إلى أخيه «إمليك» بأن يتولى القيادة في عكا ريثما يأتي بزيد من الإمدادات، وقد تجمع فيها عدد يتراوح بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا، استحكموا داخل المدينة وعلى أسوارها في أبراج منيعة.<sup>(١)</sup>

أما استحكامات المدينة فكانت سليمة وقوية إذ كان يمتد على طول جهاتها البرية سوران مزدوجان بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية، وكان قد أقيم أكثر من اثنين عشر برجا على امتداد السورين الداخلي والخارجي .<sup>(٢)</sup>  
وزحف السلطان الأشرف على رأس قواته صوب عكا ونازلها في ربيع الآخر ٦٩٥ هـ / ٥ نيسان ١٢٩١ م، وكانت القوات الشامية قد تحركت تبعاً لموافاته على أبوابها حاملة معها المجانق التي تم إعدادها في حصن الشام .

وما أن نازلها الأشرف حتى اتخذ موقفاً عسكرياً موفقاً ضد الصليبيين، فقد وجد الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير على رأس قوة عسكرية إلى صور، -المعقل الثاني بعد عكا في الأهمية- هادفاً من وراء ذلك إلى تحقيق غايتي، الأولى: مضائقه صور بحيث لا تستطيع إرسال نجدة إلى عكا أثناء حصارها، والثانية: منع صليبي عكا من التوجه إلى صور عندما تحل بهم الهزيمة، فتنحدل عزية الصليبيين في صور مما يسهل السيطرة عليها بعد السيطرة على عكا.<sup>(٣)</sup>

بدأ الأشرف حصار عكا من جهاتها البرية، فنشر قواته على امتداد الأسوار ابتداءً من استحكامات الداوية على الساحل شماليًّا إلى برج البطريق عند خليج عكا جنوباً،<sup>(٤)</sup> ونصب عليها ٩٢ منجنيقاً، ولمَّا كانت الأرض التي كان يقف عليها أيضاً سهلية مكشوفة فقد أقام ستائر الترابية والصناعية (المصنوعة من اللباد) لحماية

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج. ٣، ص ٤٦٧، ٢٩١-٢٩٢ King, op. cit, PP291-292

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج. ٣، ص ٩٦٧.

(٣) أبو المحسن، النجوم الزاهرة، ج. ٨، ص ٥٨.

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، ج. ٣، ص ٩٦٨.

الجند والمعدات الحربية<sup>(١)</sup>، واتخذ مركز قيادته في الجزء الجنوبي من الأسوار قبالة برج المندوب البابوي، في حين كانت قيادة الصليبيين قد ترکزت بالقرب من باب القدس أنطوان<sup>(٢)</sup>

وشرع المجاهدون بقصف المدينة وأسوارها قصفاً متواصلاً بحجارة المجانق التي كان منها ما يرمي بقنطر دمشقي وأكبر (١٠٠٠ رطل)، فأحدث ذلك عدة ثغرات في تلك الأسوار<sup>(٣)</sup>.

وتحت غطاء كثيف من رماة السهام الكامنن وراء الستائر الترابية والصناعية على الصليبيين المتحصنين فوق الأبراج، كانت وحدات المجاهدين المكلفة بردم الخنادق تتقدم بين الفينة والأخرى وطوال مدة الحصار لردم مواضع يمكن من خلالها الوصول إلى الأسوار مستخدمين مخاللي الخيل معباة بالتراب لإلقائها مع ما تيسر من الأخشاب ومواد أخرى في تلك الموضع المنتخبة، وبذلك تمكنت الوحدات الهندسية الإسلامية من الوصول عبر تلك الموضع- إلى الأسوار لنقبها وإحداث ثغرات يمكن من خلالها اقتحام المدينة عندما تحين ساعة ذلك<sup>(٤)</sup>.

ورد الصليبيون باستخدام ما لديهم من مجانيق داخل المدينة، كما شنوا عدة هجمات بحرية خاطفة على رأس ميمنة القوات الإسلامية التي ترابط في القطاع الشمالي للمدينة (وهي قوات حماه، وكان فيها أبو الفداء ملك حماه فيما بعد) بواسطة عدة مراكب مستخدمين الشباب والجرؤخ (الات حرية تستعمل لرمي السهام والنقط والحجارة)، كما ضربوا هذه القوات بمنجنيق كانوا قد ركبوا فوق بطة (نوع من أنواع المراكب الحرية)، غير أنه ما لبث أن تحطم بسبب الأمواج القوية.<sup>(٥)</sup>

ولسان لم تجد هذه المحاولات اليائسة نفعاً، قام مقدم الداوية «غليوم دي بوجيه» بإرسال وفد إلى السلطان الأشرف للمفاوضة في محاولة منه لإنهاء الحصار، غير أن الأشرف أصر على تسليم المدينة، فعاد مقدم الداوية إلى الخيار العسكري، إذا شن

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٧٦٤

(٢) رتسيمان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٩٨

(٣) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٧٦٤، أبو المحسن، التحوم الظاهرة، ج٨، ص ٦

(٤) بيبرس الدواداري، زينة الفكر، ورقة ٧١.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٤-٢٥.

هجوماً مباشراً بـثلاثمائة فارس على قوات حماة تحت جنح الظلام هادفاً إلى إحراق الآلات الحصار (المجانيق) في القطاع الشمالي للمدينة، وقد استطاع هزيمة مقدمة هذه القوات، معتمداً على عنصر المفاجأة، غير أن تعثر عدد من فرسانه بأطناب الخيام أثناه، الهجوم، جعل قوات حماة تتصدى لهم، فارتدى مقدم الداوية خائباً بعد أن ترك عدداً من فرسانه صرعى في أرض المعركة.<sup>(١)</sup>

وفشلت محاولة أخرى للهجوم قام بها الإسبتارية، إذ تنبهت لهم هذه المرة وحدات الرصد من المجاهدين وأسرعت بايقاد المشاعل وإشعال النيران، لتنتوقف كل محاولات الصليبيين بعد ذلك، وليركتفوا بالدفاع والتحصن داخل الأسوار<sup>(٢)</sup>.

وقد تجددت آمالهم بوصول هنري الثاني ملك قبرص إلى عكا على رأس مائة فارس وألفي راجل، بيد أن هنري هذا الذي تولى القيادة في عكا قد أدرك استحالة المقاومة، بعد أن شاهد وليس بنفسه مدى القوة التي يتمتع بها المجاهدون المسلمين، ففضل التفاوض مع السلطان الأشرف على أساس استمرار الهدنة، غير أن الأشرف أصر على تسلم مفاتيح المدينة مقابل الإبقاء على حياة الصليبيين إذا استسلموا له، ولما لم يكن هنري الثالث قادرًا على اتخاذ قرار بهذا الشأن، فقد آثر الانسحاب إلى قبرص -ومعه أخيه إموريك- تاركاً المدينة لمصيرها المحتم بعد أن شاهد انحلال الصليبيين وعظم ما دهمهم<sup>(٣)</sup>.

وامام شدة ضربات المجانيق الإسلامية، أخذت بعض أبراج المدينة تتهاوى كبرج الملك هيyo والبرج الإنجليزي وبرج كونتيه بلوا، كما انهارت الأسوار القائمة عند باب القديس أنطوان، وبرج القديس نقولا، كما انهار أيضاً شطر كبير من السور الخارجي لبرج هيyo الثالث<sup>(٤)</sup>.

ومع التخبط في قيادة الصليبيين بعد انسحاب هنري الثاني وانهيار معنيياتهم لم يبق أمام الأشراف إلا الهجوم الشامل على المدينة واقتحامها، فحدد توقيت ذلك

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٤٥.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠٢.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٦، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠٥.

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، ج٣، ص٧٠٣-٧٠٤.

قبيل شروق شمس يوم الجمعة ١٧ جمادي الاولى ١٤٩١هـ / ١٨ أيار ٢٠١١م.<sup>(١)</sup>  
ويعطينا المؤرخ بيبرس الدواداري الذي شارك في هذه المعركة، وكان أميراً على  
نيابة الكرك صورة من صور الاستعداد للاقتحام فقال: «لمحت برجاً من أبراجها قد  
أثرت فيه المجانق وأمكن أن يتخذ منه طريق، وبينه وبين السور فسحة مكسوفة ظاهرة  
لا يمكن السلوك فيها، لأن الجروح مسلطة عليها، إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها  
وتقي من يدخلها، فعمدت إلى اللبود فجمعتها ولفقت بعضها ماع بعض لفقا فتصور  
منها سحابة كبيرة طولاً وعرضًا، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صاريين من كلا  
المجانين، وجعلت على رؤوسها بكرات المراكب وجبالاً، ثم جذبت تلك السحابة  
المتخذة من اللباد فقامت كأنها سد من الأسداد وأتقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون  
عنه، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوا بالمجانق والنشاب فصارت الحجارة إذا  
وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها فيبطل زخمها، والجروح إذا رمتها لا تنفذ سهامها»<sup>(٢)</sup>.

وباقتراب ساعة التنفيذ رتب الأشرف الكوسات (وهي صنوجات من النحاس  
تشبه الترس الصغير، يدق بأحدتها على الآخر بايقاع مخصوص) على ثلاثة جمل  
كي تضرب دفعة واحدة أثناء الاقتحام ليحدث ذلك فزعاً في قلوب أهلها<sup>(٣)</sup>.  
وبدأ الهجوم الشامل في الموعد المحدد له، وجرى على طول امتداد الأسوار من  
باب القديس انطوان إلى برج البطريرك، مع تركيز الهجوم الرئيس على البرج الملعون  
الواقع في زاوية الحصن.

ويلاحظ أن السلطان الأشرف لم يركز في هجومه على الأسوار المستدة بين  
استحكامات الداوية شماليًّاً وحتى باب القديس أنطوان، وهي الأسوار التي كانت  
تحصن في أبراجها قوات الداوية والإسبتارية أقوى فرق الصليبيين، ويفهم من هذا أن  
الأشرف أراد شل حركة هذه القوات بثبيتها في مكانها مقابل القوات الإسلامية التي  
استمرت في حصارها ومناوشتها القتال، وبذلك تمكن من تركيز هجومه على قطاع  
محدود يستطيع من خلاله اقتحام المدينة، دون أن يؤدي ذلك إلى توحيد قوى

(١) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٢١، المقرizi،  
السلوك، ج ١، ص ٧٦٥، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦.

(٢) بيبرس الدواداري، زينة الفكر، ورقة ١٧٠

(٣) ابن ابيك الدواداري، المصدر نفسه، ص ٣٠٩، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦

الصلبيين في الدفاع، وفيما لو حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد ما تسيطر عليه القوات الإسلامية، يستطيع الأشرف عند ذلك الإطباقي عليها من داخل المدينة-بعد اقتحامها-وخارجها فيحصرها عندئذ في زاوية ضيقة.

وقد نجح الأشرف في اقتحام المدينة من القطاع الذي حده، إذ اقتحم أولاً البرج الملعون، ثم باب القديس انطوان وباب القديس نقولا<sup>(١)</sup>، وكان كلما سيطر على برج أو باب رفع فوقه السنائق (الأعلام والروايات) تأكيداً لانتصاره ورفعاً لمعنويات القوات الإسلامية وتحطيمها لمعنويات العدو.

وعندما حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد البرج الملعون، أطبقت عليها القوات الإسلامية-كما خطط لها الأشرف- فقتل مقدم الداوية «دي بوجيه» وأصيب مقدم الإسبتارية «يورخنا فيليبيه»، فتراجع عن هذه القوات مسرعة إلى الحصن الداخلية للاحتمام بها<sup>(٢)</sup>.

واندفعت القوات الإسلامية إلى داخل المدينة وأعملت السيف في رقاب الصليبيين، فما كان من تبقى منهم إلا الفرار على المراكب بحرًا طلباً للنجاة، فقتل عدد كبير ما بين غريق وقتيل بسبب شدة ازدحامهم<sup>(٣)</sup>.

أما الداوية والإسبتارية الذين تحصنوا في الأبراج الداخلية فقد حاصرهم الأشرف لمدة عشرة أيام، أجبروا بعدها على طلب الأمان والاستسلام، وبعد أن أمنهم الأشرف فرقهم على النساء، فقتلوا منهم نحو عشرة الآف، أما ما تبقى من رجالهم ونسائهم وأطفالهم فقد أرسلوا أسرى إلى مختلف الحصون الإسلامية<sup>(٤)</sup>.

ولم يقتل الأشرف هذه الأعداد منهم إلا رداً على أسلوبهم ذاته الذي مارسوه ضد المسلمين عندما سيطروا على عكا سنة ٨٧٥ هـ / ١١٩١ م<sup>(٥)</sup>.

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٠٥.

(٢) أبو المحسن، النجوم الظاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٣) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣١٠.

(٤) بيبرس الدواداري، زينة الفكر، ورقة ١٧٠ ب، أبو المحسن، النجوم الظاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٥) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٢١٤-٢١٥.

وكانت مدة حصار المدينة أربعة وأربعين يوما يضاف إليها عشرة أيام أخرى، وهي مدة حصار المخصوص الداخلية، وقبل أن يغادرها الأشرف إلى دمشق أمر بها فهدمت إلى الأرض<sup>(١)</sup>.

#### السيطرة على بقية معاقل الصليبيين والتطهير الشامل:

نجحت الخطة العسكرية التي وضعها السلطان الأشرف ضد الصليبيين في صور، فنتيجة لمضايقتها من قبل قوات الأمير علم الدين سنجر الصوابي أدرك صاحبها «آدم دي كفران» صعوبة موقفه، فأسرع منسحبها منها في اليوم الذي دخل فيه المجاهدون عكا، وعندما تقدمت مراكب المنهزمين من عكا إلى مينا صور - كما توقع السلطان - سارع الأمير علم الدين بمنعها من دخول المينا، وكان لهول هذا الموقف أثر كبير على أهل صور، فآثروا عدم المقاومة وطلبو الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة، فأجابهم الأمير علم الدين إلى طلبهم وسمح لهم بالرحيل، ودخل بقواته المدينة في اليوم التالي من السيطرة على عكا<sup>(٢)</sup>.

ويتطهير صور قوي عزم السلطان على الإجهاز على بقية معاقل الصليبيين في بلاد الشام، فوجه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي على رأس قوات عسكرية إلى صيدا، وما أن ظهر الشجاعي أمام المدينة حتى هرع أهلها إلى قلعة لهم في البحر وتحصنوا بها، ولما رأى «ثيب الدجودين» مقدم الداوية بها (هرب إليها من عكا وتولى قيادة الداوية في صيدا) استحالة المقاومة انسحب منها إلى قبرص علىأمل أن يعود بنجدة من هناك، وطال انتظار الصليبيين له دون جدوى، في الوقت الذي أخذ فيه الشجاعي يقيم رصيفا بين البحر والقلعة للوصول إليهم . وعندئذ يشن الصليبيون من قدوم أي مدد، فركبوا سفنهم إلى قبرص تاركين المدينة يستولي عليها الشجاعي في ١٥٣/١٤١٤ من السنة ذاتها<sup>(٣)</sup>.

ثم توجه الشجاعي بأمر من السلطان إلى بيروت، وكانت داخلة في طاعة السلطان لأن أصحابها كان قد أرسل إلى السلطان الأشرف لما كان محاصرا لعكا يطلب منه

(١) المقريني، السلوك، ج ١، ص ٧٦٥.

(٢) أبو المحسن، النجوم الظاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٣) عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ص ١٥٦-١٥٧.

الأمان فأعطاه أماناً<sup>(١)</sup> وعن السيطرة على هذه المدينة يحدثنا صالح بن يحيى بقوله: «فلما وصل سنجر الشجاعي إلى بيروت تلقاء أصحابها وخاليته أحسن ملتقي ونزل في القلعة وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحربيهم وأثقالهم إلى القلعة ففعلوا وظنوه شفقة عليهم فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم والقائهم في الخندق وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة، ثم جهز سنجر الشجاعي، علم الدين الداوداري والجاكي إلى جبيل فاخريا سورها وقلعتها وأبقيا على أهلها، وكانوا جنوية، ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء، ثم جهز سنجر الشجاعي أهل بيروت إلى دمشق ومنها أنفذهم إلى مصر بأجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما حملوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال أمانى باقى عليكم، وخيرهم بين العود إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم، فكان مدة استيلاء الفرنج على بيروت في هذه النوبة خمساً وتسعين سنة وبسبعين شهر وثلاثة عشر يوماً<sup>(٢)</sup>.

وأخذت بقية المعاقل تتساقط تباعاً بيد المجاهدين، فسقطت حيفا<sup>(٣)</sup> وجبيل - كما ذكر صالح بن يحيى عند دخول الشجاعي بيروت -<sup>(٤)</sup> «فلما رأى أهل حصن عثليث خلو الساحل من عباد الصليب أحرقوا حواصلهم فهربوا في البحر وكذلك فعل أهل طرطوس»<sup>(٥)</sup>، وقد تم ذلك في فترة لم تتجاوز منتصف شعبان / منتصف آب من السنة المذكورة<sup>(٦)</sup>.

وبالسيطرة على هذه المعاقل أمر السلطان الأشرف خليل بهدمها جميعاً كي لا يعود الصليبيون إليها مرة أخرى فيتحصّنون بها<sup>(٧)</sup>.

وقد علق أبو الفداء على نتائج هذا التطهير فقال: «واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب،

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢.

(٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢-٢٤.

(٣) المقريني، السلوك، ج ١، ص ٧٦٥.

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢.

(٥) اليافعي، مراة الجنان، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٢١.

(٧) المقريني، السلوك، ج ١، ص ٧٦٦.

وأمر بها فخررت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية ل الإسلام وكان أمراً لا يطبع فيه ولا يرام، وتطهر الشام والسوائل من الفرج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام».<sup>(١)</sup>

ولقد عبر الشعراء المسلمين عن فرجمهم الغامر بهذا النصر العظيم الذي أحرزه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، بقصائد كثيرة، ومن ذلك ما نظمه الشاعر محمد بن سباع، في قصيدة طويلة-على البحر الكامل-ومن جملة ما نظمه قوله:-

فتح سواك بمثله لم يعلم  
بـالروم فيك ديارها لم تعصم  
رأـتـ الفوارسـ بالـ زـمانـ الـ أـقـدـمـ  
غـرـ عـلـيـهـ الرـمـحـ لـمـ يـتـقـدـمـ  
ترـدـىـ الـ كـمـاـ بـأـشـهـبـ وـيـأـدـهـمـ  
فـصـدـمـتـهـ بـبـيـاضـ يـوـمـ أـيـوـمـ  
مـنـهـ يـرـىـ القـطـمـيـرـ إـلـاـ بـالـدـمـ  
فـالـبـكـرـ فـيـ التـجـرـبـ دـوـنـ الـأـيـمـ  
وـجـدـ الزـمـانـ بـمـثـلـهـ لـمـ يـرـقـمـ  
طـعـنـاـ بـغـيـرـ شـظـاـ القـنـاـ المـتـحـكـمـ  
خـبـرـاـ يـقـصـ لـنـجـدـ أـوـ مـتـهـمـ<sup>(٢)</sup>

يا أشرف الدنيا تهن فإنه  
أشبهت معتصم الخليفة همة  
فأريت عكا ما بعموره  
قابلت بلق جيوشه بسايق  
ولاقت من صبح دليل لم تزل  
كم رعتها بسواط ليل أليل  
وأعدتها للمسلمين ولم يكن  
ولئن صلاح الدين بكرأ نالها  
فالجمعة الغراء كان صباها  
لم تقل خندقا وقد داروا به  
فغدت ومن فيها بما أوليتها

وما نظمه الشاعر شهاب الدين محمود قوله-على البحر الوسيط:

وعز بالترك دين المصطفى العربي  
رؤيه في النوم لاستحيت من الطلب  
في البحر للترك عند البر من أرب  
في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب  
شاب الوليد بها هولاً ولم تشتب  
بـهـ الفـتوـحـ وـماـ قـدـ خـطـ فـيـ الـكـتـبـ  
عـسـيـ يـقـومـ بـهـ ذـوـ الشـعـرـ وـالـأـدـبـ

الحمد لله زالت دولة الصليب  
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت  
ما بعد عكا وقد هدمت قراودها  
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت  
أم الحروب فكم قد أنسأت فتنا  
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت  
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما

(١) أبوالفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢٥.

(٢) ابن ابيك الودادي، الدرة الزكية، ص ٣١٥.

لله أي رضى في ذلك الغضب  
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب  
يبشره الكعبة الغراء في الحجب<sup>(١)</sup>  
فالبر في طلب والبحر في هرب  
بأن ظن صلاح الدين لم يخب  
بفتح صور بلا حصر «ولا نصبي»<sup>(٢)</sup>  
لك السعادة ملك البحر «فارتقبي»

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم  
وأشرف الهاדי المصطفى البشير على  
فقر عيناً لهذا الفتح رابتة  
وسار في الأرض مسرى الريح سمعته  
لقيتها يا صلاح الدين معتقداً  
وقد ملكت النعمة العظمى وقت  
فالله أعطاك فلك البر وابتداً

### تطور هيمنة المماليك على مملكة أرمينية الصغرى حتى إستاحتها:

لقد بينا في وقت سابق أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد عقد هدنة مع «هيشوم الأول» ملك أرمينية سنة ١٢٦٦هـ / ١٢٦٨م، وكان من أهم شروطها مقابل اطلاق سراح الأمير «ليو» من الأسر تنازل هيشوم عن مناطق: بهنسنا والدرساك ومرزيان ورعيان والزرب وشيخ الحديد، وقد سلمت هذه المناطق للدولة الإسلامية المملوكية باستثناء بهنسنا التي ظل الملك يماطل في تسليمها، وعندما عقدت الهدنة الثانية بين السلطان المنصور قلاون والملك ليو -الذي كان مأسوراً في السابق، وتولى الحكم بعد تنازل أبيه- تعهد الملك ليو هذا بدفع جزية للسلطان المنصور، بيد أنه ماطل في تسليم بهنسنا، ثم ما لبث أن تنصل من دفع الجزية المقررة عليه، وظل الأمر معلقاً إلى أن تولى سدة الحكم في مصر السلطان الأشرف بن قلاون، فعمل على وضع حد لصلف الملك ليو، فأرسل له كتاباً في أعقاب فتح عكا المؤزر يبشره فيه وينذره في الوقت نفسه، إذ دعاه إلى إرسال ما عليه من جزية مقررة (قطيعة) والحضور بنفسه إلى الأبواب السلطانية لتقديم فروض الطاعة والولاء<sup>(٣)</sup>.

غير أن الملك ليو لم يستجب في بداية الأمر لتلك المطالب، واذا، ذلك قاد السلطان الأشرف قواته من مصر إلى دمشق سنة ١٢٩٣هـ / ١٢٩٢م تمهيداً لهاجمة مملكة أرمينية وفتح بهنسنا - طالما أن ليو يماطل في تسليمها - وعندما وصل إلى دمشق

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج. ١٢، ص ٣٢٣

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٢٠، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٧.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٢٠ (انظر نص الكتاب في الملحق).

استكمل تجهيزاته العسكرية وتهيأ للتحرك، وما أن علم ليو بذلك حتى أنفذ رسالته إلى السلطان طالبا العفو<sup>(١)</sup>، لعلمه بقدرة السلطان على تدمير بلاده، وبخاصة بعد أن سيطر السلطان على قلعة الروم القريبة من بلاده في السنة السابقة فلم يكنه إلا المصانعة على نفسه وببلاده.

على أن السلطان هذه المرة لم يكتف بالمطالبة بمحضن بهسنا بل طالب أيضا بمحضني مرعش وتل حمدون، فضلاً عن مطالبته بمضاعفة الجزية المقررة على الملك ليو، فانصاع صاغراً لمطالب السلطان «ثم إن صاحب سيس ضاعف أيضاً الجزية والحمل، وكثير من الهدايا والتحف من كل شيء».<sup>(٢)</sup>

أما بهسنا هذه فهي قلعة حصينة، لها ضياع كثيرة وهي فم الدريند وباب حلب، وكانت في زمان الملك الناصر يوسف صاحب الشام داخله في ديوانه، فلما ملك المغول حلب كان في بهسنا نائباً عنه يقال له سيف الدين العقرب، فباعها لصاحب سيس بائنة ألف درهم، فاعطاه ستين الفاً وتسلم القلعة، ومنعه الباقي، واستمرت في أيدي الأرمن إلى أن استعادها السلطان الأشرف خليل<sup>(٣)</sup>.

أما ملوك أرمينية الصغرى -بعد الملك ليو- فلم يتزمسوا بما عاهدوا به، بل أخذوا يخلون بعهودهم بعد ذلك، فقد حاول الملك «سمباد بن ليو» استعادة بعض المدن التي سبق التنازل عنها للدولة الإسلامية، وقد رد السلطان حسام الدين لاجين بارسال حملة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى وعدد من الأمراء سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م هاجمت مدينة سيس العاصمة، «فضاقت على الأرمن البلاد بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل وغنم منهم المسلمين، فكرهوه واتفقوا على إقامة سنباط (سمباد) وعدم مصانعته للمسلمين، فكرهوه واتفقوا على إقامة أخيه»<sup>(٤)</sup>«قسطنطين»<sup>(٥)</sup>، والقوات الإسلامية كانت ولا تزال حتى ذلك الحين تقيم في بلاد سيس وتحاصر بعض مدن المملكة، فلم يسع الملك قسطنطين إلا أن بذل الطاعة لأمير

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٢، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٧٨٤.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٤٠.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٤١-٣٤٠.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٣٥-٣٦، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٧.

القوات الإسلامية، كما أعلن «أنه نائب السلطان بهذه البلاد»، فتم الاتفاق معه على أن يتنازل عن البلاد والمحصون الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحان إلى دولة المماليك الإسلامية<sup>(١)</sup>، غير أن الأرمن ما لبשו أن تنكروا لتلك الاتفاقية، وقد شجعهم على تغيير موقفهم هذا غزو غازان محمود زعيم المغول بلاد الشام سنة ١٢٩٩ هـ / ٦٩٩ م، وعندئذ اضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الارمنية التي كانت في حوزتهم.

كما بجا ملوك أرمينية إلى فتح موانئهم أمام السفن الغربية في محاولة منهم لإحكام الحصار الاقتصادي على دولة المماليك وإضعاف مركزها التجاري<sup>(٢)</sup>. وإذا، بذلك أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٠١ هـ / ٧٠١ م حملة عسكرية على رأسها الأمير بكتاش الفخري لمهاجمة سيس العاصمة، وقد شارك فيها أبو الفداء في عسكر حماه وتحدث عنها يقوله «وانتشرت العساكر في بلاد سيس فحرقت الزروع ونهبت ما وجدت، وزلنا على سيس وزحفنا عليها، وأخذنا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً من جفال الأرمن»<sup>(٣)</sup>.

وقد انتقم الأرمن من المماليك بالانضمام إلى المغول في حملتهم على بلاد الشام سنة ٢٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م، غير أن المماليك كانوا حريصين على ضرب مملكة أرمينية كلما حاولت أن تقوم لها قائمة، حتى لا تشكل خطراً على حدود دولتهم في شمال الشام، ولذلك وجه السلطان الناصر محمد حملة كبيرة ضدها في أعقاب فراغه من أمر المغول سنة ٢٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م<sup>(٤)</sup>. وقد دخل المسلمون «بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارجعوا من الأرمن وهدموا إلى الأرض»<sup>(٥)</sup> ثم عادوا يسوقون عدداً كبيراً من الأسرى وقدراً ضخماً من الغنائم<sup>(٦)</sup>. وفي سنة ٢٧٠٥ هـ / ١٣٠٤ م، ونتيجة لتأخر الملك الأرمني عن إرسال ما عليه من قطيعة، حرك نائب حلب بأمر من السلطان الناصر محمد حملة عسكرية إلى سيس، عدتها ثلاثون ألف مجاهد على رأسها الأمير سيف

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٣٦-٣٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٧-١٢١٨.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٤٦-٤٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٤) ابن أبيك الورادي، الدر الفاخر، ص ١١٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٨.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٥١، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٦) المقرئي، السلوك، ج ١، ص ٩٤٩.

الدين قشتمر الشمسي المنصوري «فشنوا الغارات على بلاد سيس ونهبوا وحرقوا كثيراً من الضياع وشتتوا النساء والأطفال»، وكان أن صادف في ذلك الحين وصول طائفة من المغول إلى سيس، فشاركوا الأرمن في الهجوم على القوات الإسلامية حتى هزموها وقتلوا وأسرموا غالب أفرادها، وكانت ردة الفعل سريعة عند السلطان الناصر محمد فقد وجه الأمير بكتاش الفخري على رأس أربعة الآف فارس من القاهرة لمحاجمة سيس، لكن الأرمني خشي عاقبة الأمر، فارسل ما كان عليه من قطيعة «واعتذر بأن القتال لم يكن منه وإنما كان من التتر، ووعد -نائب حلب- بالتحليل في إحضار الأماء المأسورين، فرجع الأمير بكتاش بن معه من غزة»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد عدل مؤقتاً عن إرسال حملة عسكرية ضد مملكة أرمينية إلا أنه طلب من ملكها ضرورة تسليم البلاد والقلاع التي تم الاتفاق على تسليمها في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين، وعندما امتنع الملك الأرمني (أوشين) عن ذلك<sup>(٢)</sup>، حرك السلطان حملة عسكرية على رأسها عدد من الأماء منهم شهاب الدين قرطاي والأمير العلائي الطنبغا سنة ١٣٢٠هـ / ٧٢٠ م لمحاجمة أرمينية «فدخلوا إلى بلاد سيس في منتصف ربيع الآخر من هذه السنة المافق للرابع والعشرين من أيار وساروا حتى وصلوا إلى نهر جيحان وكان زائداً فاقت حموه ودخلوا فيه ففرق من العساكر جماعة كثيرة، وكان غالباً من غرق من التركمان (التركمان) الذين من عساكر الساحل، وبعد أن قطعوا جيحان المذكور وساروا ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساcker عليها حتى بلغوا السور وغنموا منها وأتلقوها البلاد والزراعات وساقوا المواشي وكانت شيئاً كثيراً واقاموا ينهبون ويخربيون ثم عادوا....»<sup>(٣)</sup>.

وعندما تولى الحكم في أرمينية الملك «ليو الخامس» بعد وفاة والده أوشين بعيد تلك الحملة، أرسل إلى البابا هنا الثاني والعشرين يطلب المعونة ضد المسلمين فاستجاب البابا لاستغاثته وأصدر مرسوماً يحظر التعامل التجاري مع الدولة المملوكية سنة ١٣٢٢هـ / ٧٢٢ م، ثم اتبעהه برسوم آخر في العام التالي للفرض نفسه، وقد الحق ذلك

(١) ابن أبيك الدواداري، الدر الفاخر، ص ١٣١، المقريني، السلوك، ج ٢، ص ١٧

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٩

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٨٨، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٨٤

ضررا بالغا بتجارة الدولة المملوکية، ولم يستطع السلطان الناصر محمد السكوت على ما قام به الأرمن، فحرك حملة عسكرية للإغارة على مدنهم سنة ١٣٢٢هـ / ٧٢٢ م على رأسها الأمير علاء الدين الطينغا نائب حلب، فاحتلت مدينة إياس ثم عادت، ولم يستطع البابا عمل شيء سوى إرسال بعض الأموال لمساعدة الأرمن، إلى جانب اتصاله بغول فارس طالبا منهم الإسراع بنجدة أرمينية<sup>(١)</sup>.

ولما لم يحصل الملك «ليو الخامس» على المساعدة التي كان يرجوها من البابا أو من مغول فارس، فقد أسرع بارسال بطرق الأرمن محملاً بالهدايا الشمينة إلى السلطان الناصر محمد طالبا الصفع والصلح «واعتذر الرسول ما كان من متملك سيس واستأذن في عمارة أياس، على أن يحمل في كل سنة مائة ألف درهم، فأجيب إلى ذلك» وعقد الصلح معه سنة ١٣٢٣هـ / ٧٢٣ م لمدة خمسة عشر عاماً<sup>(٢)</sup>.

وزادت هيمنة الدولة المملوکية على مملكة أرمينية وذلك عندما تخلص الملك ليو الخامس من الوصي عليه صاحب الكرك (وهي قلعة قريب البحر في أطراف بلد سيس من جهة الغرب، وكان صاحب الكرك هذا قد استولى على مملكة صاحب سيس بحكم صغر سن صاحبها ليو الخامس)، وأرسل رأسه بعد أن قتله إلى السلطان الناصر محمد «فارسل السلطان تشيرفا وسيفا وفرسا بسرجه وبلمامه مع الأمير شهاب الدين أحمد المهندار بالأبواب الشريفة، فتوجه شهاب الدين المهندار بذلك إلى الصبي صاحب سيس، فلبس صاحب سيس الخلعة وشد السيف وقبل الأرض ركب الفرس المتصدق به عليه وقويت نفسه بذلك»<sup>(٣)</sup>.

على أن الملك ليو الخامس عاد وانقلب على الدولة المملوکية، وذلك عندما علم باستعداد الملك فيليب ملك فرنسا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق، فخرق الاتفاقية وأغار على بعض البلدان الإسلامية في بلاد الشام<sup>(٤)</sup>، فرد السلطان الناصر ردا سريعا، إذا أرسل حملة عسكرية سنة ١٣٣٦هـ / ٧٣٧ م على رأسها الأمير علاء الدين الطينغا نائب حلب لهاجمة أرمينية، ولم تعد هذه الحملة إلا بعد أن تم الاتفاق على

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدر الفاخر، ص ٣٠٨، المقرizi، السلوك، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٩٩.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٠.

تنازل الملك الأرمني «ليو السادس» عن البلاد والقلاع التي تقع إلى الشرق من نهر جيحان إلى الدولة المملوكية منها: المصيصة وكويرا والهارونية وسرفندكارد واياس ودباناس وبخيمة والنمير<sup>(١)</sup>.

وقد استمر سلاطين الدولة المملوكية في مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى إلى أن يسر الله القضاء عليها نهائياً سنة ١٣٧٤هـ / ١٧٧٦م على يد السلطان الأشرف شعبان الذي وجه في تلك السنة حملة عسكرية كبيرة إلى سيس على رأسها الأمير اشتقر المارديني نائب حلب، فحاصرتها الحملة لمدة شهرين، إلى أن طلب صاحبها الأمان وسلم القلعة لل المسلمين "فعلت كلمة أهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل، وجهز اشتقر صاحب سيس وجنته إلى القاهرة، ودقّت البشائر بسبب ذلك" وفوض السلطان الأشرف شعبان نيابة سيس ليعقوب شاه وهو أول من حكم من ملوك الترك (الماليك)<sup>(٢)</sup>. أما ملك أرمينية فظل في الأسر لبعض سنين إلى أن جمع البابا كلمانت السادس -بالاشتراك مع ملوك أوروبا- المال اللازم لفدائه، وعندئذ أطلق سراحه، فقضى بقية حياته في إيطاليا<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٤٤٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بابناء العمر، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢١.



## الباب الثاني

### تجدد الحروب الصليبية ورد المماليك

الفصل الأول: اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاد الشام.

الفصل الثاني: غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك.

الفصل الثالث: غزو جزيرة رودس ومحاولات السيطرة عليها.

الفصل الرابع: اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية ورد المماليك.



## الفصل الأول

# اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاط الشام

لقد جاء تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي على يد المالك نهاية للمطامع الأوروبية في الشرق الإسلامي بعد قرنين من تأسيس دولتهم اللاتينية في بيت المقدس، ولذلك فقد صعدت أوروبا وعلى رأسها البابوية لفقدان مكتسباتها في هذه المنطقة الحيوية، فحاولت تجديد هذه المخرب بصورة أو بأخرى، وكان من الطبيعي أن تترسم البابوية في أعقاب ذلك الانهيار الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها إلى الشرق لإعادة احتلال الأراضي المقدسة وإحياء وجودها فيها، ولا يخفى علينا أن دعوة البابوية هذه لم تكن لأسباب دينية - كما كانت تدعى على الدوام - بل كانت فرصة منها كي تتمكن من استعادة هيمنتها على ملوك وأمراء الغرب الأوروبي، تلك الهيمنة التي فقدتها منذ زمن طويل، فلعل حملة صليبية جديدة ترسل نحو الشرق تعمل على توحيد ملوك وأمراء المغرب الأوروبي في ظل ردائها البابوي.

وقد ساعدت البابوية في دعوتها، تلك التقارير التي كانت تتلقاها من دعاة تجديد المخرب الصليبية، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، تقرير تقدم به «قد نزيو» أحد الرهبان الفرنسيسكان سنة ١٢٩١م إلى البابا نيكولا الرابع شرح فيه تاريخ الأراضي المقدسة، ونوع الجيش الذي يلزم لإعادة احتلالها من أيدي المسلمين، والطريق المفضل الذي يسلكه ذلك الجيش للوصول إلى الشرق. وفي العام التالي تقدم داعي آخر ويدعى «ثاديوس» بتقرير شرح فيه كيفية سقوط عكا بيد المسلمين، وامتاز التقرير بالشدة والعنف، إذ أراد ثاديوس من خلاله استشارة الغرب الأوروبي من أجل إرسال حملة صليبية جديدة، واختتمه بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأرضي المقدسة من أيدي المسلمين .<sup>١١</sup>

أما موقف البابوية العملي، فقد دعا البابا نيكولا الرابع إلى عقد المجالس

١١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٩٣.

الكنسية للمداولة في ألحى الوسائل وأفضل الطرق لتحقيق الهدف الذي كان يصبو إليه، كما طلب من فرقي الداوية والإسبتارية توحيد نظاميهما والعمل بيد واحدة. ولكي يضفي على دعوته دعماً دينياً فقد أصدر مرسوماً حرم بموجبه الاتجار مع دولة الماليك، وهدد بتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامره من تجارة الغرب، وكانت حجته في ذلك إلى أن مجرد الامتناع عن المتاجرة مع دولة الماليك سيؤدي حتماً إلى حرمانها من المورد الرئيسي لثرائها وقوتها، مما يسهل القضاء عليها عسكرياً وعندئذ يمكن للغرب الأوروبي أن يعيد احتلال الأراضي المقدسة مرة أخرى.<sup>(١)</sup>

كما حاول البابا اتخاذ إجراءات عسكرية سريعة لنجد مملكة أرمينية بناءً على استغاثة ملكها ضد دولة الماليك، فقد أرسل إليها الجيش الذي كان قد أعده لإعادة احتلال عكا، كما أرسل أسطوله البحري إلى مملكة قبرص لمشاركتها في تهديد مدينة الاسكندرية، واستمرت اتصالاته التي كان قد بدأها سابقاً مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على بلاد الشام.<sup>(٢)</sup>

غير أن دعوة البابا في استشارة الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية إلى الشرق قد باءت بالفشل، إذ أن الملوك والأمراء الذين دعاهم لم يلبيوا الدعوة وأداروا ظهورهم له.<sup>(٣)</sup> كما أن دعوته إلى فرض حصار اقتصادي على دولة الماليك وحرمان الاتجار معها لم يلاق النجاح الكافي -نحو نسبياً في مملكة أرمينية لفترة وجيزة- فقد عاد التجار الأوروبيون وبخاصة تجار المدن الإيطالية للمتاجرة مع الماليك<sup>(٤)</sup> فمات البابا نيكولا كاسف البال سنة ١٢٩٢ م.<sup>(٥)</sup>

على أن الدولة التي شكلت خطراً على دولة الماليك هي مملكة قبرص التي أصبحت بعد تحرير عكا الملجأ الذي لجأ إليه بقية الصليبيين المنهزمين من بلاد الشام،

(١) سعيد برجاوي، الغزو الصليبي في الشرق، ص ٦٤٢، أحمد دراج، الماليك والفرنج، ص ٧.

(٢) سعيد برجاوي، الغزو الصليبي في الشرق، ص ٦٤٣-٦٤٢.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٩٢.

(٤) نيكولا زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢٥.

(٥) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٩٢.

وقد وجد فيهم الملك هنري الثاني أداة صالحة لتنفيذ سياساته العدوانية ضد دولة الماليك.<sup>(١)</sup>

وقد بدأ هنري الثاني أولى اعتداءاته على سواحل بلاد الشام سنة ١٢٩٩هـ / ١٢٩٩ م بالاتفاق مع غازان محمود زعيم المغول الذي هاجم بدوره بلاد الشام وأحتل دمشق لبضعة أشهر، وقد أرسل هنري الثاني قطعاً بحرياً وصلت مقدمتها إلى البترون وزالت في مياهها بانتظار الجيش الملكي الذي كان في طريقه إليها، ولكن قبل وصول هذا الجيش انضمت إليها وحدات نصرانية مارونية انحدرت من جبل لبنان، واتجهوا جميعاً لمهاجمة مدينة طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها تصدت لهم ودحرتهم وقتلت قادتهم، كما أوقعت الوحدات النصرانية المارونية في الأسر.

وكان أسطول جنوبي في الوقت ذاته يقتحم جبيل ويستولي عليها ثم يتركها دون أن يبقى لها أثراً فيها.

وفي السنة التالية ١٣٠٠هـ / ١٣٠٠ م شن هجوماً على سواحل مصر، فقد أرسل أسطولاً بقيادة «بودوان دي بيكتيني»، الذي أبحر من مرفاً فماجوستا القبرصي إلى مدينة الرشيد، حيث رسا هناك، ثم أقدم مائة فارس من قواته على اقتحام المدينة وتخلص الأسرى المغول والصلبيين الذين كانوا فيها منذ تحرير عكا، ثم دخل الأسطول مياه الإسكندرية بقصد إرهاب أهلها، وغادرها مبحراً صوب الساحل الشامي وقد نزلت قواته في عكا وطرطوس حيث اشتربكت هذه القوات مع الوحدات الإسلامية المرابطة فيهما، ثم عادت الحملة إلى قبرص دون الحصول على نتيجة تذكر.<sup>(٢)</sup>

وفي السنة ذاتها وتنفيذاً للتحالف بين الصليبيين والمغول أرسل ملك قبرص حملة أخرى تألفت من عدة سفن حملت على متنها ثلاثمائة فارس قبرصي ومثلهم أيضاً من فرقتي الداوية والسبارية، وقد كمنت هذه الحملة بالقرب من ساحل طرابلس واتخذت من جزيرة أرواد نقطة تجمع وانطلاق، وفي أثناء انتظارهم لقوات المغول التي كانت تهاجم ضواحي حلب في ذلك الحين، احتل الصليبيون مدينة طرطوس، غير أن

(١) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٢٣، مصر في عصر دولة الماليك البحري، ص٧١.

(٢) سعيد برجاوي، الغروب الصليبي، ص٦٤٤-٦٤٥.

اقتراب القوات الإسلامية من المدينة جعلهم ينسحبون منها.<sup>(١)</sup> أما جزيرة أرواد فقد تجمع فيها عدد كبير من الصليبيين وشيدوا فيها سوراً وجعلوها مركزاً لتحصينهم، ومن هناك أخذوا يشنون عمليات القرصنة البحرية على المسلمين المتردد़ين على الساحل. أذاء ذلك أمر السلطان الناصر محمد بإنشاء أربع سفن حربية بدار الصناعة في مصر سنة ٢٧٠٢هـ / ١٣٠٥م لفتح هذه الجزيرة، ويتکامل إنشائهما شحنها بالمقاتلين والآلات الحرب، ثم أبحرت بقيادة الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري باتجاه طرابلس حيث أردها الأمير أسندر الكرجي بقوات أخرى من جيش طرابلس، ثم ابحرت الحملة صوب الجزيرة، فهاجمتها وقتلت وأسرت جميع الصليبيين فيها وخربت أسوارها، وكان عدد من قتل من الصليبيين فيها يقارب الألفين، أما الأسرى فكانوا في نحو خمسة وأربعين، ثم عادت الحملة بالأسرى والغنائم.<sup>(٢)</sup>

على أن الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها نحو المشرق الإسلامي ظلت فكرتها تتسع في الغرب الأوروبي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، فقد وضع «ريموند لول» مشروعه سنة ١٣٠٥هـ / ١٣٠٥م دعا فيه إلى كسب المسلمين وطوانف النصارى الشرقيين إلى جانب معسكر الكنيسة الغربية (البابوية) عن طريق التبشير، وفي ذات الوقت إرسال حملة صليبية إلى الشرق يرأسها أحد ملوك الغرب الأوروبي وتتشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية وإسبتارية وتيتون وغيرهم، كما وضع ريموند لول في مشروعه ذاك تصوره في كيفية سير هذه الحملة وخططها مستفيداً من درايته بطبيعة البلاد الإسلامية ومعرفته باللغة العربية من خلال رحلاته المتعددة فيها، وكان تصوره أن تبدأ الحملة من إسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها، ثم ينتقلون إلى شمال إفريقيا ويزحفون بحذا الساحل إلى تونس ثم مصر، في الوقت الذي يتخذ الأسطول الصليبي من جزيرتي مالطة وروودس قاعدتين لمساعدة الحملة البرية في محاربة المسلمين، كما دعا في سبيل إلحاح مشروعه إلى استيلاء الصليبيين الغربيين على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت على علاقات

(١) سعيد بر جاوي، المروءة الصليبية، ٦٤٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ٢١، ابن أبيك الدواداري، الدر الفاخر، ص ٣٣٨.

ودية مع دولة الماليك.

كما خرج الملك هنري الثاني ملك قبرص بمشروع آخر رفعه إلى البابا «كلمنت الخامس» دعا فيه إلى ضرب حصار بحري على سواحل مصر وبلاد الشام لمدة عامين أو ثلاثة بشرط أن يكون الأسطول الصليبي المكلف بالحصار مستقلًا تمام الاستقلال عن الجمهوريات الإيطالية التجارية التي تشكيك هنري الثاني في أخلاصها للغرض الصليبي، وكان تصور هنري الثاني أن ذلك الحصار سيضعف دولة الماليك إلى درجة يجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بارض مصر نفسها، حتى إذا ما تم ذلك أصبح الاحتلال بلاد الشام والاستيلاء على الأرضي المقدسة أمراً يسيراً ما دامت قبرص تتولى امداد القوات الصليبية بالرجال والمؤن إلى أن تتحقق الهدف.<sup>(١)</sup>

وبلغ من تحمس هنري الثاني أن شرع في تجهيز حملة صليبية، واتفق مع بعض ملوك أوروبا على بناء ستين قطعة حرية لفزو دمياط، ولما كانت الدولة المملوكية تراقب الموقف عن كثب فقد أمر السلطان بيبرس الجاشنكير ببناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الصليبيين وقت فيضان نهر النيل، وأمر ببناء جسر آخر بطريق الإسكندرية، على أن حملة الصليبيين لم تتم آنذاك.

وفي زخم تلك المحاولات لتشكيل حملة صليبية استغلَّ الملك الفرنسي «فيليب الرابع» الموقف وأعلن عن عزمه على قيادة حملة جديدة، وتحت ستار الاستعداد لها، أخذ يحصل أموال الكنيسة ويصدر أمرًا موال فرقة فرسان الداوية وذلك سنة ١٣١٢هـ/٧١٢ م. وعندما اكتشفت البابوية عدم جديته فقد سعت إلى استشارة أصحاب الخبرة في قتال المسلمين من ملوك النصارى وغيرهم، ومن أولئك الملك هيثوم الأول ملك أرمينية السابق - الذي كان قد اعتزل في أحد أديرة فرنسا - فأوصى بإعداد حملتين. الأولى بحرية بحيث تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدة لها، والثانية برية بحيث تتحالف مع الأرمن والمغول، واستشارت البابوية أيضاً أحد رجالاتها ويدعى «وليم آدم»، والذي أشار بضرورة احتفاظ الصليبيين بأسطول في المحيط الهندي لقطع تجارة الماليك مع الشرق الأقصى، كما أشار إلى ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية.<sup>(٢)</sup>

وعندما تولى فيليب السادس عرش فرنسا أراد أن يجرب أقصر الطرق وأسهلها

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص١١٩٤-١٢٠٤، ١١٩٣-١١٩٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص١١٩٥-١١٩٤.

-كما توهם- لعله يحقق ما يصبوا إليه من مجد في السيطرة على الأراضي المقدسة، ولكن دون أن يخرج على رأس حملة صليبية لقتال المسلمين، فبلغت به السذاجة أن أرسل سفارة إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٩هـ/٧٣٠م. طالبا منه تسليم بيت المقدس والساحل إليه، غير أن سفارته عادت إليه مهانة ومطرودة.<sup>(١)</sup> وإذا فطن فيليب إلى ما كان عليه من سذاجة أخذ يعلم على تجهيز حملة عسكرية، وفي سبيل ذلك أباح له البابا « هنا الثاني والعشرون » سنة ١٣٣٠هـ/٧٣١م. جمع ضريبة العشر لمدة سنتين فقط. كما أباح له في السنة التالية بيع صكوك الغفران للغرض نفسه.

ولقد جاء الملك فيليب إلى استشارة الخبراء الذين لهم دراية بشؤون الشرق، فقدم له «بركارد» أحد دعاة الحروب الصليبية مشروعًا سنة ١٣٣٢هـ/٧٣٣م، يقضي بالاستيلاء على بيت المقدس عن طريق البر عبر القسطنطينية، بيد أن مستشاري الملك استبعدوا مشروع بركارد وفضلوا الطريق البحري، ولما مال فيليب إلى رأي مستشاريه، فقد عقد اجتماعا مع ملك قبرص وممثل الإستبارية والبندقية في حضرة البابا هنا الثاني والعشرين وتم الاتفاق بينهم على تسيير الحملة، ولما لم يبق إلا التنفيذ، حدث في أوروبا ما لم يكن في الحسبان، فقد تجددت في ذلك الوقت حرب المائة عام بين المجلترا وفرنسا فتحطم المشروع وفشل التحملة.<sup>(٢)</sup>

غير أن فشلها لم يكن يعني توقف الاعتداءات الصليبية على الموانئ الإسلامية، فقد استمرت مملكة قبرص وحلفاؤها في حوض البحر المتوسط في شن الغارات على الموانئ الإسلامية في مصر وبلاد الشام بين الفينة والأخرى، ومن أشهرها تلك التي حدثت سنة ١٣٥٦هـ/٧٥٧م. فقد قدمت لهم حملة بحرية في أواخر جمادى الأولى / نيسان من تلك السنة مؤلفة من سبعة مراكب جازت أولا على بيروت ثم توجهت إلى صيدا، وقد فاجأ الصليبيون الناس في صيدا فجر يوم الجمعة، حيث دخلوا المدينة وقتلوا طائفة من أهلها، وأسروا طائفة أخرى، ونهبوا شيئا كثيرا، غير أن تلك المفاجأة لم ترتكب المسلمين بالقدر الذي أراده الصليبيون، فقد تصدوا لهم وقتلوا منهم بضعة وثلاثين رجلا، أرسلت رؤوسهم بعد انتهاء الحملة إلى دمشق لتعلق على القلعة هناك، وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد، وسبق العسكر

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٥-١١٨.

الشامي، ولحق بالمراكب الصليبية على جزيرة تلقاء صيدا ولكن بعد فوات الأوان، فقد تحصن الصليبيون في الجزيرة، وعندئذ راسلهم المسلمون في انفكاك الأسرى من أيديهم فتم الاتفاق على دفع مبلغ للصلبيين قدره خمسمائة درهم عن كل أسير، فدفع ثلاثون ألف درهم، ثم رحل الصليبيون بما حصلوه من الغنائم.<sup>(١)</sup>

### الحملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٥٧٦٦ - ١٣٦٥ :

منذ أن اعتلى «بطرس لوزجنان» عرش قبرص سنة ١٣٥٩ هـ / ١٧٦١ مـ. صمم على أن يجعل من نفسه البطل الذي سيجدد الحروب الصليبية ضد الإسلام وأهله ويعيد احتلال الأرضي المقدسة من جديد، ولذلك لم يقنع بالغارات المحلية الصغيرة التي كانت تشنها مملكة قبرص، وخلفاؤها على بعض الموانئ الإسلامية، وإنما تطلع إلى قيادة حملة صليبية ضخمة يستطيع من خلالها ضرب الدولة المملوكية ضربة قاسمة لعله ينفذ بعدها عبر البوابة المصرية إلى الأرضي المقدسة، وفي سبيل ذلك قام برحالة طويلة في غرب أوروبا بين سنتي (١٣٦٢-١٣٦٥). للدعاية لحملته والحصول على المساعدات التي تمكنه من تنفيذ مأربه. وبتأييد من البابوية ودعمها حصل على كثير من المساعدات من ملوك وأمراء الغرب الأوروبي.<sup>(٢)</sup>

واستطاع بطرس لوزجنان إعداد حملة صليبية كبيرة جعل نقطة تجمعتها في جزيرة رودس، وكانت عدتها بعد اكتمال تجهيزها ما بين سبعين إلى ثمانين سفينة، كان للبنديقية منها أربع وعشرون سفينتين، ولجنوا سفينتين، ولرودس عشر سفن، ولفرنسا خمس سفن، أما بقيتها فكانت لقبرص.<sup>(٣)</sup>

وكان أخبار استعداداته تصل تباعاً إلى الإسكندرية، مما جعل نائبها الأمير زين الدين خالد يهتم بتحصينها، ويرسل إلى الأمير يلبيغا الخاصكي مقدم الجيوش في القاهرة والوصي على السلطان الأشرف شعبان - بسبب صغر سنـه - طالباً منه الإعانة لمواجهة الموقف، غير أن الأمير يلبيغا لم يكتثر للأمر ورد على الأمير زين الدين بقوله:

(١) صالح بن يعيى، تاريخ بيروت، ص ٢٩.

(٢) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج ٢، ص ١١، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٥٦.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٠٧.

«إن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية.»<sup>(١)</sup>

أما الملك القبرصي بطرس لوزجنان، فقد اختار الإسكندرية كنقطة مهاجمة بعد أن أشار عليه خواصه بذلك.<sup>(٢)</sup> إلا أنه حرص على كتمان جهته هذه لعدم اطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له، وخشية من أن تذيع سر حملته وتحذر السلطان المملوكي منها، فاتجه أولاً إلى جزيرة كرامبوسا (إحدى جزر آسيا الصغرى) وهناك أعلن عن وجهته، فوصل إلى الإسكندرية يوم الأربعاء ٢٠ محرم ٦٦٧هـ / ٨ تشرين أول ١٣٦٥م.<sup>(٣)</sup> وعندما رأى أهل الإسكندرية طلائع تلك السفن ظنوا سفنا تجارية للتجار البنادية إذ كانوا ينتظرونها على جاري عادتهم في كل سنة، ثم ما لبثوا أن اكتشفواحقيقة الأمر عندما لم تدخل تلك السفن المينا في يوم وصولها، بل ظلت تستعرض قوتها إلى أن رست في صبيحة اليوم التالي، ببحر السلسلة وهو المينا المحذور على السفن النصرانية دخوله.<sup>(٤)</sup>

وعندئذ حشد الأمير جنفرا -الذي كان ينوب عن الأمير صلاح الدين خليل بن عرام في نيابة الإسكندرية بسبب ذهابه لأداء مناسك الحج آنذاك- كل ما لديه من قوات على حافة الشاطئ، في الربط وأمام الأسوار في شبه جزيرة المينا لصد الصليبيين في حين خرج الباعة للتkickب في منطقة الشاطئ، «وهم معلنون بلعنة كل راهب وقسيس.. ثم انهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم (الأسطول) يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرصي كلعنهم لإبليس».<sup>(٥)</sup>

أما بطرس لوزجنان فقد اهتم بالكيفية التي تمكنه من الاستيلاء على المدينة، ولذلك أنفذ جواسيسه إليها ليحيطوه علمًا بأحوالها وحصونها ونقاط القوة والضعف

(١) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج٢، ص١١١.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٥.

(٣) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج٢، ص١٣٦، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص٢٤٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٥.

(٤) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج٢، ص١٣٧-١٣٦، المقريزى، السلوك، ج٣، ص١٠٥.

(٥) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج٢، ص١٣٩-١٤٠.

فيها، وعلى ما روى النويري السكندرى، فان بطرس لوزجنان قد دخل بنفسه إلى الإسكندرية في زي أحد التجار ونزل عند كاتب الديوان بها شمس الدين ابن غراب الذي تواطأ معه مما اتاح له فرصة التعرف على احوال المدينة ويبدو أن واليها بن عرام قد عرف عن خيانة ابن غراب بعد ان عاد من الحجاز في أعقاب الحملة، فأمر بقتله.<sup>(١)</sup>

وبعد أن تعرف بطرس لوزجنان على احوال المدينة، حدد يوم الجمعة ٢٢ محرم / ١٠ تشرين أول وأثناء وجود المسلمين في المساجد موعداً لشن الهجوم، وأرسل في ليتلها مجموعة من فرسانه إلى البر، لإحداث الفزع بين صفوف المسلمين ومهاجمتهم من الخلف أثنا، انشغالهم بالتصدي للصلبيين قبلة الشاطئ، فكم من الفرسان في المقابر بظاهر المدينة، ريشما يحين موعد الهجوم.<sup>(٢)</sup>

وكانت جموع من العريان قد وصلت إلى الإسكندرية قبل شمس يوم الجمعة، وقد شد ذلك من أزر أهلها، غير أن تلك الجموع على الرغم من كثرتها لم يكن لها أي تأثير عسكري بحيث تستطيع تغيير مجرى المعركة المنتظرة نظراً لافتقارها إلى التنظيم والسلاح، فضلاً عن غياب الواقع الديني لديها - لما احدثته من سلب فيما بعد- وإن كانت قد نجحت في استعراضها أمام أهل الإسكندرية وبخاصة النساء «فزرت غيت النسوان لتلك العريان، وقلن: قد أتت الشجعان، يقتلون عباد الصليبان، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحت الكيمان، وقد أرخوا لها الأعنة عند سماعهم الزرغفة، وتلك العريان من كثرتهم كالطار، خارجين من الباب الأخضر (أحد أبواب الإسكندرية) فصاروا في الجزيرة كالجراد المنتشر وكل من سرابيل الحرب منقشر، ليس مع كل واحد منهم غير سيفه الأجرب ورممه قاصداً إما لقتله أو لجرحه».<sup>(٣)</sup>

(١) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤٢-١٥٨، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المالكية، ص ٢٥٦، العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣١٢.

(٢) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤٦، المقريزى، السلوك، ج ٣، ص ١٠٥، سعيد عاشور، قبرص والغرب الصليبي، ج ٦٢-٦٣، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٥، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٢٠.

(٣) النويري السكندرى، الإمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤٢-١٤٣.

ولما استشعر بعض المغاربة - الذين كانوا يرابطون في المدينة مع المالك - الخطر يحدق بالمدينة عرضا على الأمير جنفرا رأيهم القاضي بوجوب دخول المدينة والتحصن بأسوارها، غير أن الأمير جنفرا لم يقبل برأيهم نزولاً عند رغبة الكثير من المرابطين الذين رفضوا ذلك الرأي.<sup>(١)</sup>

وفي الموعد المحدد ضحى نهار يوم الجمعة ٢٢ محرم / ١٠ تشرين أول بدأ الملك بطرس لوزجان بشن هجومه البحري على المدينة واستطاع اقتحامها بعد صلاة الجمعة، على الرغم من المقاومة الشديدة التي ابادها المجاهدون في الدفاع عنها،<sup>(٢)</sup> وكان الصليبيون أكثر عدداً وعدداً من المسلمين، وقد نقل لنا السكندراني صورة الموقف بقوله: «نزلت الفرنج سريعاً من مراكبها بخيالها ورجلها وقت ضحى نهار يوم الجمعة إلى البر، فرميـت الخيالة المسلمين بالسهام، تقدمـهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام،... وكانت الفرنج مسرية بالزرد النضيد، متجلبة بصفائح الحديد على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبأيديـهم السيوف القاطعة، قد تتكـوا القسيـ الموتـرة ورفعـوا أعلام الصـلـبان المنـشـورة، وصارـوا يرمـون عـلـى الـمـسـلـمـينـ. فـارتـشـقـتـ سـهـامـهـمـ فـيـ أـهـلـ الإـيمـانـ وـفـيـ خـيـولـ الـعـربـانـ، فـهـجـتـ بـهـمـ تـلـكـ الـخـيـولـ فـيـ كـلـ جـهـةـ وـمـكـانـ، فـانـهـزـمـواـ إـلـىـ نـاحـيـةـ السـوـرـ، فـصـارـ جـيـشـ الـمـسـلـمـينـ بـهـزـيـةـ الـعـربـ مـكـسـورـاـ، وـلـاـ عـادـواـ قـاـبـلـواـ فـرـنـجـ الـكـلـابـ، بل دخلـواـ الـبـلـدـ غـائـرـينـ مـنـ الـأـبـوـابـ، وـكـانـ الـفـرـنـجـ لـاـبـسـينـ الـحـدـيدـ مـنـ الـفـرـقـ إـلـىـ الـقـدـمـ. وـالـمـسـلـمـونـ كـلـحـمـ عـلـىـ وـضـمـ، فـكـيـفـ يـقـاتـلـ الـلـحـمـ الـحـدـيدـ، وـكـيـفـ يـبـرـزـ الـعـارـيـ لـمـ كـسـيـ الـزـرـ النـضـيدـ، فـانـهـزـمـ الـمـسـلـمـونـ وـوـلـواـ، وـمـنـ الـكـفـارـ فـرـواـ».<sup>(٣)</sup>

ودخل بطرس لوزجان المدينة راكباً، بينما «استلم الفرنج الناس بالسيف ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق وأسروا وسبوا خلائق كثيرة وحرقوا عدة أماكن، وهلك في الزحام بباب رشيد (أحد أبواب الإسكندرية) ما لا يقع عليه الحصر، فأعلن الفرنج بدينهـمـ، وـأـنـضـمـ الـيـهـمـ مـاـ كـانـ بـالـشـفـرـ مـنـ الـنـصـارـىـ، وـدـلـوـهـمـ عـلـىـ دـوـرـ الـأـغـنـيـاءـ فـأـخـذـوـاـ مـاـ فـيـهـاـ وـاسـتـمـرـوـاـ كـذـلـكـ يـقـتـلـوـنـ وـيـأـسـرـوـنـ وـيـسـبـوـنـ وـيـنـهـبـوـنـ وـيـحـرـقـوـنـ مـنـ ضـحـوةـ نـهـارـ الجـمـعـةـ إـلـىـ بـكـرـةـ نـهـارـ الـأـحـدـ، فـرـفـعـوـاـ السـيـفـ وـخـرـجـوـاـ بـالـأـسـرـىـ وـالـغـنـائـمـ إـلـىـ مـرـاكـبـهـمـ،

(١) التوييري السكندراني، الإمام بالإعلام، جـ٢، صـ١٤٣-١٤٥.

(٢) مـنـ، جـ٢، صـ١١٢، عـ١٤٦-١٤٧.

(٣) مـنـ، جـ٢، صـ١٤٧-١٤٨.

وأقاموا بها إلى يوم الخميس... ثم أقلعوا ومعهم خمسة الآف أسير فكانت اقامتهم  
ثمانية أيام. <sup>(١)</sup>

وما زاد الأمر سوءاً على أهل الإسكندرية أن العربان الذين قدموا لنجاتها قد  
اقتنصوا الفرصة وأخذوا في النهب والسلب، فوقع السكندريون بين نارين وتشتتوا في  
الحقول والقرى المجاورة للإسكندرية حيث ساعت حالتهم بسبب نقص الطعام وعدوان  
العربان. <sup>(٢)</sup>

أما الأمير جنفرا فكان قد خرج من الإسكندرية بعد أن أخذ معه ما كان في بيت  
المال من أموال، كما اقتاد خمسين تاجراً من التجار الأوروبيين كانوا في المدينة واتجه  
إلى دمنهور. <sup>(٣)</sup>

ولما سقطت الإسكندرية في يد بطرس لوزجنان عقد اجتماعاً حربياً مع قادته  
للتشاور في المرفق الجديد، وكان من رأيه أن يبقى الصليبيون في المدينة ويقومون  
بالدفاع عنها فيما إذا حاول الماليك استعادتها، غير أن أغلبية قادته فضلوا الاكتفاء  
بما حققه الحملة والانسحاب من الإسكندرية، عندئذ غادرها بطرس لوزجنان على رأس  
حملته عائداً إلى قبرص، في الوقت الذي قدم فيه الأمير يلبيغا الملاصكي على راس  
جيشه، ولكن بعد فوات الأوان. <sup>(٤)</sup>

وقد علق المقريزي على ما حل بالإسكندرية جراً، حملة بطرس لوزجنان بقوله:  
«فكانَتْ هذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنْ أَشْنَعِ مَا مَرَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ الْمُحَوَّاَتِ، وَمِنْهَا اخْتَلَتْ أَحْوَالُهَا  
وَاتَّضَعَ أَهْلُهَا وَقُلِّتْ أَمْوَالُهُمْ وَزَالَتْ نِعَمُهُمْ». <sup>(٥)</sup>

و قبل بيان ما تمخضت عنه الحملة من نتائج، يجدر بنا الوقوف عند مجمل  
الأسباب التي أدت إلى تلك الفاجعة الكبيرة، فقد كانت الظروف التي تعيشها الدولة

(١) المقريзи، السلوك، جـ ٣، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) النويري السكندري، الإمام بالاعلام، جـ ٢، ص ١٦٢، سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ ٢، ص ١٢٢٥.  
سعد ماهر، البحرة في مصر الإسلامية، ص ١٢٠.

(٣) النويري السكندري، الإمام بالاعلام، جـ ٢، ص ١٥٦، المقريзи، السلوك، جـ ٣، ص ١٠٨.

(٤) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاون في مصر، ص ٢٤٩.

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. P364.

(٥) المقريзи، السلوك، جـ ٣، ص ١٠٨.

الملوكيَّة آنذاك غير مستقرة، فالسلطان الأشرف شعبان كان صغير السن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ولم يكن له من السلطة إلا الإسم، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلبيغا الماخصكي الذي استأثر بالنفوذ وتحكم في أمر البلاد والعباد، كما لم تكن حامية الإسكندرية من القدرة عدة وعدها بحيث تستطيع الرقوف في وجه الصليبيين، ولم تتمكن القاهرة من إرسال نجدة سريعة إلى الإسكندرية بسبب فيضان نهر النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه في ذلك الوقت.<sup>(١)</sup> أما السبب المباشر كما يراه التورى السكندرى فهو عدم قمع جنفرا بالكتيبة العسكرية، فقد ارتكب خطأ عسكريَّة فادحة عندما أبقى الحامية العسكريَّة متمركزة في الربط المقام على حافة الشاطئ، في شبه جزيرة المينا، ولم يقم بنقلها إلى داخل المدينة لكي تقاتل خلف الأسوار بناه على ما أشار به المغاربة.

وقال في ذلك: «ولو كان المسلمون تركوا للقبرصيَّ الجزيرة وتحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور، لكن المسلمين بتحصينهم بالشفر سلموا من القتل والنهب والأسر».<sup>(٢)</sup>

أما الملك القبرصي فقد أقيمت له الاحتفالات العظيمة بعد أن عاد إلى مقر ملكه، هذا في الوقت الذي أخذ يرسل فيه الرسائل إلى البابا وملوك الغرب الأوروبيَّ يخبرهم بما أحرزه من انتصار، ويوضح لهم الأسباب التي دفعته إلى الجلاء عن الإسكندرية مع التأكيد لهم بعزمِه على معاودة الكرة مرة أخرى إذا وجد عوناً منهم.<sup>(٣)</sup> كما قام بتقسيم الأسرى المسلمين والغنائم التي حازها بين أولئك الملوك.

وقد أحدثت هذه الحملة دوياً شديداً في الغرب الأوروبيَّ، فأرسل البابا إلى بطرس لوزجان مهنتاً، كما أرسل إلى ملوك الغرب وأمرائهم يناشدُهم أن يسرعوا في تقديم المساعدة إلى ملك قبرص، ولم تلبث أن ذابت الحماسة في شارل الخامس ملك فرنسا فأرسل إلى الملك بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش عظيم يحطم به المسلمين. كذلك سمع كثير من المغامرين من فرسان أوروبا بوفرة الغنائم التي غنمها الصليبيون من الإسكندرية فنزعوا إلى قبرص للدخول في خدمة بطرس لوزجان، وطلبو غداة

(١) Atiya, op. cit, PP 351-352

(٢) التورى السكندرى، الإمام بالاعلام، ج. ٢، ص ١٤٤-١٤٥

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج. ٢، ص ١٢٢٦.

وصولهم القيام بهجوم صليبي فوري على المسلمين، غير أن الأمر لم يتعد ذلك، فلم يلب أحد من ملوك أوروبا وأمرائها نداء البابا بل إنهم لاموا بطرس لوزجانان لتخليه عن الإسكندرية.

على أن حملته تلك تعتبر فاشلة من الناحية العسكرية بالنظر إلى الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه وهو الاستيلاء على الإسكندرية والاحتفاظ بها لكي تكون قاعدة للانطلاق منها نحو بيت المقدس، وكل ما فعله بطرس لوزجانان هو السلب والنهب والقتل، ثم أسرع فارا من المدينة قبل أن يدهمه المسلمون.<sup>(١)</sup>

وقد أحدثت هذه الحملة وما تلاها من حملات انفعالاً شديداً لدى المالك ظل يتفاعل إلى أن ترجم عسكرياً بالسيطرة على جزيرة قبرص واحتضاعها لنفوذه. أما ردور فعل المالك الفورية فقد ثبتت في ثلاثة مواقف.

الموقف الأول: وهو الاستعداد لغزو الصليبيين في عقر دارهم. فقد اهتم الأمير يلبيغا الخاسكي بصناعة السفن البحرية في موانئ مصر وبلاد الشام، غير أن وفاة الخاسكي في أواخر سنة ١٣٦٨هـ / ١٧٦٨م، وما أصاب الدولة من ظروف داخلية حال دون تسخير حملة بحرية صوب جزيرة قبرص في ذلك الحين.<sup>(٢)</sup>

أما الموقف الثاني: فكان أن أصدر الأمير يلبيغا الخاسكي، في أثناء استعداده لغزو قبرص-مرسوماً يقضي بالزام النصارى في كافة أرجاء مصر وبلاد الشام بحمل أموالهم إلى الدولة لفكاك أسرى المسلمين من أيدي الصليبيين -.<sup>(٣)</sup>

اما الموقف الثالث: فكان أن اتخذت الدولة المملوكية خطوة ذات مغزى سياسي وديني وهي إغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس، في محاولة للضغط على النصارى الأوروبيين لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من ناحية، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات جديدة.

وقد أحدث ذلك ردأً سريعاً لدى البنادقة بشكل خاص، فقد أرسلوا وفداً إلى السلطان الأشرف شعبان مطالبين بالصلح، وفتحت كنيسة القيامة وتمكين تجاريهم من

(١) سعيد عشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٦-١٢٢٧ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١١٣ .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٣١٤-٣١٥، المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠٧ .

انظر نص المرسوم في الملحق.

القدوم إلى مصر مقابل أن يعملا على إطلاق سراح الأسرى المسلمين، غير أن السلطان الأشرف والأمير يلبيا - قبل وفاته- أرادا إحداث مزيد من الضغط على الأوروبيين فرفضا مطلبهم واجابا: «بانه لا بد من غزو قبرص وتخريبها». <sup>(١)</sup> ويلاحظ أن هذا الرد قد جاء في أوج استعداد المماليك لغزو قبرص .

أما ملك جنوا فاراد التخلص من مشاركته في الهجوم على الإسكندرية. فقد انفذ إلى السلطان الأشرف شعبان نصيبه من الأسرى المسلمين الذين أرسلهم إليه الملك بطرس لوزجنان، وكان عددهم ستين أسيرا، كما أرسل هدية للسلطان والأمير يلبيا «وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبيه، واعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الإسكندرية إلا بعد وقوعها وأنه مستمر على الصلح ومتى قدر على أخذ مملكته قبرص قبضه وقتلها، فقبلت هديته وأثنى الأسرى عليه خيرا». <sup>(٢)</sup>

وكان لهذا الاعتداء السافر صدى كبير في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، ففي الأندلس غرباً، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالإغارة على النصارى الإسبان في مدينة جيان التابعة لملك قشتالة، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين الخطيب على لسان سلطانه أبي عبدالله محمد الخامس الغني بالله إلى سلطانبني مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان ودواجهها بقوله:

«سلام كريم بفتح الفتوح المزيد بالملائكة والروح... فنورينا أن ترفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ونقضنا اطراف البلاد عن أولي الجلاء والجلاء في المحرم سنة ١٣٦٦هـ / ١٧٩٨م)، بعد سنة كاملة من حادث الإسكندرية، ونادي منادي الحمية: يا لشارات أهل الإسكندرية».

أما المشرق الإسلامي، فان الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن برج (العظيم) سلطان الدولة الجلائرية المغولية بالعراق وفارس حينما بلغه خبر تلك المذبحة تالم الما كبيراً وتصادف أن جماعة من تجار الفرنج دخلوا بلاده لبيع أقمشة ومنسوجات في مدينة تبريز، فقبض عليهم وأحضرهم وقال لهم:

«هذا قماش الإسكندرية نهبتسموه منها وجئتم تبيعونه ببلدي» فقالوا: لا

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١١٩ . محمد جمال الدين سرور، دولةبني قلاوون في مصر، ص٢٥١.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٢٢-١٢٣ ، وقد اشار المقريزي الى ان جنوا قد شاركت في الحملة على الاسكندرية بسفينتين، ولعل ذلك لم يكن من قبل ملك جنوا- اذا صدق- بل من قبل متظوعين .

وال المسيح ما نهباه ولكن اشتريناه من نهبه، فقال كذبتم بل افسدتم بلد المسلمين يا كلاب واتيتم تبيعون اقمشتهم ببلدي، فعند ذلك أمر بالحوطة على اموالهم وقتلهم عن آخرهم قبيل كان عدتهم ثمانمائة علوج، هكذا اخبرت عنهم تجوار البغدادية الواردين إلى الإسكندرية ببعضائهم».

وعندما ورد على السلطان أوياس، رسل ملوك الفرنج يطلبون منه السماح لتجارهم بدخول بلاده. فقال لهم السلطان أوياس:

«انا اسمي أوياس بن حسن بن مسلم، مسلم ابن مسلم، وانتم تعتدون على بلاد المسلمين وتأتون بلادي بمتاجركم تبتغون الفضل؟ لا والله لن أرضني بذلك ولو سبقني ملك إلى قتل الرسل لقتلكم، ولكن ارجعوا من حيث أتيتم واجتهدوا في صلحكم مع سلطان مصر، واستدركوا ما افسدتم من الحال الذي فعلتم بالإسكندرية فان اتيتموني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته، مكتنكم حينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه ما تختارون، وان لم تفعلوا ذلك وعدتم إلى بلدي فليس لكم عندي إلا السيف»، فرجعوا بالخيبة من حيث أتوا مردود عليهم هداياهم»<sup>(١)</sup>.

ولقد أنسد الشعراء في رثاء الإسكندرية قصائد كثيرة، وما نظمه الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة التلمساني قوله-على البحر الطويل-:

على فرقة الإسلام من عصبة الكفر	إلا في سبيل الله ما حل بالشغر
فاصاحت بها الغربان في البر والبحر	أتها من الفرنج سبعون مركبا
ولا فتحت من بعد فاتحها عمرو	فما فاز منها غيرهم بدخولها
إلى أن أسالوا الدم في البحر كالنهر	ولا نبعت منها القنا من دمائهم
بنوا الأصفر البااغون بالبياض والسر	وصير منها ازرق البحر أسودا
كمعبدوهم في النهب والقتل والأسر	أقاموا على التثليث فيها ثلاثة
فقد نهب العريان جانبها البر	لئن نهب الإفرنج جانب بحرها
وكم من غني مات فيها من الفقر	فكم من فقير عاش فيها من الغنى

---

(١) العبادي، تاريخ البحرة الإسلامية، ص ٣١٦-٣١٩.

صغيرا من الأسرى ولا سيما البكر  
اضر على الإنسان من فتنة القبر  
به أخبر الكهان في سالف الدهر  
يصول بذات الحرب فيها مع الصقر  
ولا نابها خطب بناب ولا ظفر  
فواعجبنا من أسر من هو في الأسر  
وليس لها حل سوى المدفع الدر  
أيدي سبايا السبي في آخر الشهر<sup>(١)</sup>

وكم قتلوا فيها كثيرا ونصرها  
فيالك من هول عظيم وفتنة  
وقد أخذوا فيأخذها الطالع الذي  
فلو كان فيها مثل ما كان عسكر  
لما ظفر الغربان فيها بنقرة  
وقد أسرت قلبي الأسرى بأسرهم  
وصارت ذوات الخل بالأسر عندهم  
خلا ربهم من أنسبهم وتفرقوا

#### استمرار الاعتداءات الصليبية:

عندما تلقى البنادقة رداً حازماً من السلطان والأمير يلبعا، عملوا على إقناع بطرس لوزجنان ملك قبرص لكي يدخل في مفاوضات مع السلطات المملوكية، ولما كان بطرس لوزجنان يشعر بانفصال الصليبيين من حوله ويتذكرهم مما قام به من اعتداء، على الإسكندرية، فقد استجاب لطلب البنادقة وأرسل وفداً إلى السلطان محملاً بالهدايا في محاولة للوصول معه إلى اتفاق ودي، فاشترط السلطان مقابل ذلك اطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد وقعوا في قبضته، فوافق لوزجنان وأطلق من بقي لديه من الأسرى وأرسلهم إلى مصر على مركب خاص أعد لهم<sup>(٢)</sup>

واستمرت المفاوضات بين مصر وقبرص بعد ذلك الاتفاق الأولى مدة أربع سنوات لتحقيق صلح نهائي، وعلى ما يبدو فإن الماليك لم يكونوا جادين في عقد صلح مع القبارصة- إذ كان هدفهم الاستيلاء على قبرص لاجتثاث بؤرة الصليبيين الذين اتخذوها قاعدة للهجوم على الموانئ الإسلامية، ولا شك في أن بطرس لوزجنان قد أدرك ما كان يصبوا إليه الماليك، فأخذ بشن هجمات جديدة على سواحل مصر وبلاط

(١) التوري السكندرى، الإمام بالإعلام، صفحات متفرقة من المجلد ٢.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٥٢.

الشام في أثناء مفاوضاته مع المماليك في محاولة منه لاجبارهم على قبول الصلح، ففي أوائل المحرم سنة ١٣٦٨هـ/تشرين ثاني ١٣٦٦م جهز اسطولاً حربياً عدته مائة وست عشرة سفينة للإغارة على طرابلس الشام، غير أن عاصفة شديدة فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب في المدينة، ثم عادوا إلى قبرص<sup>(١)</sup> وعلى الرغم من هذه الفاراة فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح في أواخر سنة ١٣٦٨هـ/اواسط سنة ١٣٦٧م ولكن سفارته عادت دون نتيجة فعاد إلى سيرته الأولى إذ جهز اسطولاً ضخماً في مطلع سنة ١٣٦٧هـ / ١٣٦٩م تألف من مائة وثلاثين سفينة وضم الأسطول ستة عشر ألف مقاتل من القبارصة والبنادقة والجنوية والكريتيين والروادسة والفرنسيين والهنغاريين، وكان للبنادقة ثلاثون سفينة، وللجنوية عشرون وللروادسة عشر سفن، وللأغرايب خمس عشرة سفينة والبقية من قبرص<sup>(٢)</sup>.

وقاد بطرس لوزجنان الأسطول بنفسه وشاركه صاحب جزيرة رودس، ورئيس الفرسان الإسبتارية. واتجه به إلى مينا طرابلس، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها في ذلك اليوم الذي وصل فيه بطرس لوزجنان، فاغتنم هذا الفرصة وانزل قواته إلى ساحل البلدة، و يبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الصليبيين لكثره طرق القبارصة لمدينتهم وعيشهم على سواحل الشام «فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً حتى اقتحم العدو المدينة، ونهبو من أسواقها، فتحامل المسلمون عليهم، واستشهدوا في قتالهم حتى أخرجوهم بعد ما قتلوا منهم الألف، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلاً، فركبوا سفنهم وانقلبوا خايبين»<sup>(٣)</sup>.

وكان بطرس لوزجنان قبل انسحابه منهزمة من طرابلس قد انفذ قارباً من قواربه يحمل رسالة إلى الأمير جرجي الإدريسي نائب طرابلس -بعد أن كان قد عاد إليها في وقت سابق أثناء الهجوم الصليبي- وجاء فيها:

«أما بعد، فإن مراسينا الشريفة برزت بعدم اطرق طرابلس ولو اقتضت

(١) Atiya, op, cit, P 373

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولةبني قلاوون في مصر، ص ٢٥٢ المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٥٠،

عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام ص ٣٤٨ Atiya, op, cit, P 373,

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٤٩ - ١٥٠.

مراسينا الشريفة ذلك لفعلناه، ولكن البلاد بلادنا والقدس قدسنا فان مكتنمنا من بلادنا فنحن واياكم على العهد والصلح، وان لم تكنونا بيننا وبينكم السيف ومع ذلك يعطي الله النصر لمن يشاء من عباده»، فبعث الأمير جرجي إلى لوزجنا رسالة جاء فيها:

«أما قولكم بروزت مراسينا الشريفة، فهذا الكلام لا يصدر إلا عن سلطان ذي رأي، وأما انت فلص من لصوص النصارى ولست بسلطان، فلو كنت سلطانا لأقمت بالإسكندرية وناضلتها عنها حين ظفرت بها، بل هربت بسرية والهروب من شأن اللصوص، وأما قولك البلاد بلادنا، فالامر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وأما قولك القدس قدسنا، فما شاء الله أن يكون القدس لك لأنك رجل نجس، والقدس طاهر مطهر، وما ينبغي للرجل النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للظاهر المطهر، وأما قولك السيف بيننا وبينكم، فتفقد عسكرك كم خرج منه من قتيل وجريح ورهين، ولم يكن بطراپلس مقاتل لك غيري، وأنا أقل ماليك السلطان، فانزل وقاتلني بما معك ومعي».<sup>(١)</sup>

وفي أثناء انسحاب لوزجنا حاول الإغارة على جبلة إلا أن ريحها عاصفة فرقت سفنه ومنعته من النزول على أرضها، فاتجه إلى اللاذقية للإغارة عليها، لكن المدينة استعانت عليه بسبب مناعة تحصيناتها، ووجود سلسلة في المينا، كسرت عددا من سفنه، فضلاً عن الريح الشديدة التي أغرق تلثا من سفنه، وساقت رابعة إلى طرابلس، كان بها كثير من المعدات الحربية والمئون التي غنمها من المدينة فعادت لأصحابها المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وعندما فشل لوزجنا في الإستيلاء على اللاذقية اتجه إلى بانياس، فاحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية<sup>(٣)</sup>.

ثم اتجه للإغارة على مينا، اياس<sup>(٤)</sup>، فلما بلغ المسلمين نباء قدمه اجتمعوا مع

(١) محمد جمال الدين سرور، دولةبني قلادون في مصر، ص ٢٥٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولةبني قلادون في مصر، ص ٢٥٥، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٩ - ٣٥٠، Atiya, op. cit, P 373.

(٣) التورري السكندرى، الالمام بالاعلام، ج ٣، ورقة ٦٠ - ٥٩ عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥.

(٤) المقريزى، السلوك، ج ٣، ص ١٥٠.

نصارى الأرمن المقيمين معهم بالمدينة وشاوروهم فيما يعملون لتلافي خطره، فأشاروا عليهم بأن يتحالفوا معهم على محاربته، وأن يرسلوا إلى المعاقل الإسلامية القريبة منهم لترسل إليهم النجادات، فطلب المسلمون من الأرمن أن يتقدموهم في مقابلة القبرصي وتحايلوا عليه بالمكان والخيل حتى تصل إليهم النجادات، فلما رسا الأسطول الصليبي بميناء ايس، تقدم نائب ملك أرمينية بن معه من النصارى الأرمن، وركبوا القوارب حتى وصلوا إلى الملك لوزجنان، فقالوا له: «أيها الملك المظفر، نسألك حقن دمائنا ل تستريح من غضب السيد المسيح، واسمع كلامنا ففيه لنا ولد النجاح والرشد والصلاح، فقال لهم: وما تريدون وبأي شيء تقولون؟ قالوا اهبط إليها الملك من المراكب فأنت حق المسيح الظافر الغالب، و وسلم البلد، واطرد عنها هؤلاء المسلمين الذين تركونا ببلدنا ذليلين بما نسمع لهم من التسبيح على منابر مساجدهم، فقال الملك: إني أعتذر لكم بما يفعله المسلمون بكم، لكن أريد أن أسمع كلام المسلمين الذين عندكم لثلا يكون كلامكم حيلة ومكيدة منكم، فقالوا: وكيف نواجهك بالخيل؟ اعلم بيقين أن المسلمين منك الآن خائفون فقال: احضارو لي أميرهم لأسمع كلامه واعلم خطابه ونظامه»، فبعث الأرمن في طلب أمير المسلمين، فركب قاربا وأتى إليه في زي الفقرا، ثم قبل الأرض بين يدي الملك وأظهر المودة والمحبة. وقال: «إن والدك السلطان ريوك (هنري الثاني)-نبيع الله روحه- كان في أيام دولته يهادي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، وهو الآخر يهاديه لما كان بينهما من المودة والصحبة، وكان من هدية الملك الناصر مراكب القمح»، فلما سمع ملك قبرص براكب القمح ابتسم وقال: «ما مراكب القمح، قال الأمير «هي التي أرسلها (السلطان) لما وقع الغلاء بجزيرة قبرص إعانا للملك ولأهل جزيرته»<sup>(١)</sup> فقال الملك: صدقت، أخبرني بذلك والدي، إنها أتت له موسقة بالقمح

(١) كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أصدر أوامره عندما وقع الغلاء بالشام أن يرسل إليها بعض المراكب محملة بالقمح لتباع بها، غير أن رحبا عاصلة هبت عليها فدفعتها إلى قبرص، فخشى ربانها ومن معه من البحارة أن يقعوا أسرى في يد أصحابها، فلما استدعى الريان لمقابلة الملك، قال: «أتيت من مصر من عند الناصر إلى مولانا الملك وانه يسلم عليك، وقد بلغه ان بذلك الغلاء، فارسل لك القمح ترتفق به إلى أن ين الله تعالى على عباده بالرخاء»، فسر ملك قبرص بتلك الهدية التي كان

من عنده قبل أن أخلق»، ثم شاور ملك قبرص أمير المسلمين فيما يفعله بإياس، فقال الأمير: «إن هذا البلد كان فيما مضى لأبيك وجدرك، وصار نصفه الآن لصاحب مصر، والنصف الآخر لملك أرمينية، وأنت أولى به منهما لأنك وارث آبائك، وأجدادك» فطبع ملك قبرص في إياس وأنزل جنده ومعداته بها، غير أن قواته ما لبثت أن اطلقت يدها في نهبها، وبينما هم في ذلك إذ قدم الأمير منكلي بغا نائب حلب على رأس القوات الإسلامية التي اندفعت على ملك قبرص وجنوده كالسيل ووضعت فيهم السيف، فلم ينج منهم إلا من ولّى هاربا إلى المراكب، وكان ملك قبرص من الناجين، فعاد إلى بلاده وهو يجر أذيال الهزيمة.<sup>(١)</sup>

ثم لم يلبث أن قتل على أيدي جماعة من النبلاء سنة (١٣٦٩هـ/٧٧١)، غير أن ذلك لم يؤثر في تغيير السياسة العدائية التي انتهجهها الصليبيون القبارصة وحلفاؤهم في حوض البحر المتوسط ضد المسلمين ودولة المالiks. فقد واصل الملك بطرس الثاني الذي تولى عرش قبرص شن الغارات على سواحل مصر وبلاط الشام، إذ أرسل حملة بحرية في السنة الأولى من حكمه (١٣٦٩هـ/٧٧١) تألفت من أربع سفن وأغارت على سواحل صيدا والبترون وانططوس واللاذقية، وبعد أن أوقعت الدمار بهذه الموانئ أبحرت باتجاه الإسكندرية، وعندما وصلتها ورست في مياها أرسل قائدتها إلى نائب الإسكندرية يسألها فيما إذا كان السلطان يرغب في الاتفاق أم لا، فأجابه بالنفي في الوقت الذي وجه فيه القوات الإسلامية لمحاربتهم، فقتلتهم منهم نحو المائة وغنمتهن مركبا، فانسحب الصليبيون باتجاه ميناء رشيد، وعيشا حاولوا النزول إلى بر المدينة، بسبب الرياح العاتية، فارتدوا إلى الساحل الشامي حيث أغروا على صيدا، إلا أن

=

في أشد الاحتياج إليها في ذلك الحين، وجهز للسلطان هدية عوضا عن القمع، ولما علم الناصر أن مراكب القمع عادت إلى ساحل دمياط وفيها هدية صاحب قبرص، دهش لذلك وبعث في طلب الريان، فلما مثل بين يديه حدث السلطان بما وقع له، فأعجب السلطان بحيلة التي احتال بها حتى انقد نفسه، وبحارته من الأسر ونجي مراكبه من المصادر»، سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٥٦ .

(١) سرور، دولة بنى قلاوون في مصرص ٢٥٧، المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٥، Atiya, op. cit, P

القوات الإسلامية المرابطة فيها كانت لهم بالمرصاد، مما جعلهم يعودون أدراجهم خائبين في مسعاهم<sup>(١)</sup>.

وازاء استمرار تلك الهجمات من قبل مملكة قبرص وحلفائها في حوض البحر المتوسط، فضلاً عما أصاب الدولة المملوكية من فقر في إيراداتها بسبب تعطيل تجاراتها مع الأوروبيين ولما حل بها من وباء ومجاعة، رأى السلطان أن من المصلحة عقد صلح مع ملك قبرص هنري الثاني، فتم عقد هذا الصلح سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م، وبموجبه تم إطلاق سراح من بقي من أسرى المسلمين لدى الصليبيين، كما تم فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس<sup>(٢)</sup>.

على أن الصليبيين في حوض المتوسط عادوا بعد فترة وجيزة إلى شن الهجمات على سواحل مصر وبلاد الشام مرة أخرى. وقد ساعد على ذلك احتكار البناذقة لمعظم النشاط التجاري في حوض المتوسط على حساب الجنوية الذين رفضوا بدورهم ذلك الواقع، وتعبيراً عن رفضهم أخذوا يغدون على سواحل مصر والشام، واشترك معهم في هذه الغارات بعض القراءنة من الكتلان والروادسة والقبارصة، ففي سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م أغاد الجنوية على ساحل طرابلس إلا أن نائبها الأمير يلبغا الناصري تصدى لهم على رأس قواته وقتل عدداً منهم، ففروا منهزمين.<sup>(٣)</sup>

وفي سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م أغاد الجنوية على صيدا ونجحوا في احتلالها وعاثوا فيها فساداً، ثم توجهوا إلى بيروت، غير أن الأمير بيدرن نائب دمشق كان قد نزلها بقواته قبل وصولهم إليها، فتراجع الجنوية ثم ارتدوا إلى قبرص، وفي طريق عودتهم قصدوا الإسكندرية وهناك استولوا على سفينة إسلامية موسقة بالبضائع، كانت مستعدة للسفر إلى طرابلس الغرب.

وبعد عدة أيام عاد الجنوية وأغاروا على بيروت، وكان في مينائها سفينتان للبناذقة، فاستولوا عليهما وشحذوهما بالرجال وجعلوهما في مقدمة سفنهم وأخذوا

(١) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٧٣-١٧٦، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥-٣٥، سرور، دولة بنى قلاون، ص ٢٥٥-٢٥٧ Atiya, op. cit, P 375.

(٢) المقريзи السلوك، ج ٣، ١٩١، Atiya, op. cit, P 375.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ٣٣٥، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاون، ص ٢٥٩، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٩؛ حكيم أمين، قيام دولة المالكية الثانية، ص ١٤٩.

يطلقون الجروح (السهام الكبيرة) والمحجارة من منجنيقاتهم المضوئية على السفن على أحد أبراج بيروت مما اضطر المسلمين إلى التراجع والتحصن بالأسوار، فاعطى ذلك فرصة التقدم للجنويين والنزول إلى البر، وما لبقو أن سيطروا على المنطقة ورفعوا عليها (علما) غير أن القوات الإسلامية بقيادة الأمير سيف الدين يحيى من آل حتر (والد المؤرخ صالح بن يحيى) تمكن من قهرهم واستناد علمهم، فانهزم الجنوية وقتل منهم عدد كبير<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ١٣٨٥هـ / ٧٨٧ م توجهت حملة جنوية للإغارة على السواحل المصرية، فتصدت لها السفن المملوكية واشتبكت مع سفينتين انفردت باتجاه ساحل دمياط، فقتل من الجنوية عشرة اشخاص وأسر ما يزيد على الشلايين منهم، عرضوا على السلطان، فبذل ثلاثة منهم ما قيمته خمسة عشر الف دينار حتى فك أسرهم<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من الهجمات الجنوية هذه إلا أن بعض تجارهم حصل على ارتباطات تجارية وقنصلية مع الدولة المملوكية، ومن خلال هذه الارتباطات وحرصاً عليها عمل بعضهم على مصالحة السلطان برقوم، والتقارب إليه بالهدايا، ولما كان السلطان حريضاً على مصالحة التجارية في حوض المتوسط، فلم يتأنّ في قبول هداياهم<sup>(٣)</sup>.

على أن هذا التقارب من بعضهم لم يكن ليغير في السياسة العدائية التي انتهجهتها جنوا ضد الدولة المملوكية، فما لبشت أن عادت إلى أعمال القرصنة من جديد، ففي سنة ١٣٨٧هـ / ٧٨٩ م شن الجنوية هجوماً على طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها والتي خبرت خططهم واساليبهم القتالية تمكن من هزيمتهم وقتلت منهم الكثير، كما غنم منها ثلاثة مراكب<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ١٣٨٨هـ / ٧٩٠ م اعتدت طائفة من الجنوية على جماعة من تجار السلطان برقوم قادمة في المياه الشامية في مراكب مشحونة بالجراركسة جلبوا من بلادهم. وكان من بين هؤلاء الجراركسة أخت السلطان وبعض أقاربه، وقد أسروا جميعهم

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٠-٣١.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الفمر بابنا، العمر، ج ١، ١٨٧، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ٤٦٣، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ٥٦٢.

من قبل الجنوية فأمر السلطان بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوية وختم حواصلهم، الأمر الذي أجبر الجنوية على اطلاق من أسرهم، فأخرج السلطان عن الجنوية وفك الختم عن حواصلهم.<sup>(١)</sup>

وفي سنة ١٣٦٧هـ/٧٩٥ م شن الجنوية هجوما على ناحية نشراوة (غربي بحيرة البرلس على الساحل الرملي الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس في مصر) في أربع سفن فسبوا ونهبوا، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ثم انسحبوا<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ١٤٠٣هـ/٨٠٦ م شنوا هجوما على ساحل طرابلس واستولوا على سفينتين موسوقتين بالبضائع، كانتا تتهيأن للإقلاء إلى مصر. ثم حاولوا التوغل في إحدى القرى الداخلية، إلا أن الأهالي في تلك المنطقة تمكنوا من التصدي لهم وأسر عدد منهم<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ١٤٠٦هـ/٨٠٣ م تحالف الجنوية والروادسة والقبارصة في الهجوم على سواحل مصر والشام، فقد تحرك أسطول جنوبي مؤلف من ثمانية عشرة سفينة إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها، وفي محاولة للتضليل على السلطان فرج، أعلن قائد الأسطول الجنوي أن غرضه شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا، غير أن غرضه كان ضرب الإسكندرية، فعقد صلحًا مع حنا لوزجناه ملك قبرص ثم أخذ يستعد لشن هجومه، إلا أن محاولته هذه لم تنطل على السلطان، فقد عرف بهمة الأسطول الجنوي منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهابته لصد الهجوم. فيما استمر قائد الأسطول الجنوي في سياسته، إذ اعتقد بأن الأمر لم يكن مكشوفا للسلطان، فأرسل سفيرين إلى الإسكندرية، أعلنوا أنهما جاءا لعقد الصلح، وعندما طالت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة، ولما لم يتمكن الأسطول الجنوي من تحقيق غرضه نظرا للاستعدادات التي أبدتها السلطان، فقد أبحر الجنوية إلى سواحل آسيا الصغرى وهاجموا مدينة العلايا، ثم عادوا إلى قبرص، ليوهموا السلطان بأنهم ابتعدوا عن السواحل المصرية، فيقوم بإنها استعداداته، وبهذه الفرضية أرسلوا عشر سفن لمحاجمة الإسكندرية من جديد، غير أن هذه السفن فوجئت باستمرار استعدادات السلطان في

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ص ١، ٢٣، ابن حجر العسقلاني، آنماء الغمر، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ٧٨٧.

(٣) سعيد عاشور، العصر المالكي، ص ٢٦٩، حكيم أمين، قيام دولة العمالق الثانية، ص ١٥١.

المدينة ومياها، فعادت ادراجها إلى قبرص دون أن تتمكن من احتلال المدينة، ولم تجبن جنوا من وراء هذه الحملة سوى ما نشب من قتال في شوارع المدينة مع تجار الفرنج، وكذلك فشلها في إعادة تجارتها بصفة رسمية مع دولة المالكية<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد استمرت جنوا في شن هجماتها على السواحل المملوكية، فقد هاجمت طرابلس بأسطول مؤلف من أربعين مركبا، وقد نزل أفراده إلى بر المدينة «فأقاموا عليها ثلاثة أيام، فبلغ ذلك نائب الشام، فنهض اليهم مسرعا، فانهزموا وأوقع بهم»<sup>(٢)</sup> وتوجه الأسطول بعد ذلك إلى بيروت، ولمّا لم يكن فيها ما يكفي من قوات عسكرية للدفاع عنها، فقد غادرها أهلها عند اقتراب الجنوية، مما سهل على قوات الأسطول اقتحام المدينة، فقد نزلت هذه القوات أولاً في مكان يسمى الصنبطية، ثم ملكوا البلد ونهبوا، وقال صالح بن يحيى: «واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريب من المينا»<sup>(٣)</sup>.

واستمر الجنوية مقيمين في المدينة ذلك اليوم إلى أن قدم أمير المدينة دمرداش بن معده من الجند والمطوعة، فوأقعهم «وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير»، وعندما وصل نائب الشام بعساكره، كان الجنوية قد غادروا المدينة وتوجهوا إلى صيدا «فأمر النائب بإحراق قتلى الفرنج ثم توجه إلى صيدا ومعه العساكر فوصل إليها»، وكان الجنوية قد نزلوا إلى براها، «فوجدهم في القتال مع أهل صيدا، ولم يتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس لا غير، فحمل على الفرنج فكسرهم وفروا إلى مراكبهم»<sup>(٤)</sup>.

وبيدوا أن فشل جنوا الأخير جعلها تفك جديا في السعي لعقد صلح مع السلطان فرج، وبعد سلسلة من المفاوضات تم عقد الصلح سنة ١٤٠٧هـ/١٨١٠م، وتعهدت فيه جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من خسائر في السواحل الإسلامية، كما نص الصلح على أنه إذا تكررت اعتداءاتهم، فإن الجنوية المقيمين في مصر سيقبض عليهم جميعا<sup>(٥)</sup>.

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٣، حكيم أمين، قيام دولة المالكية الثانية، ص ١٥١-١٥٢ أحمد دراج، المالكية والفرنج، ص ٢٢، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، إناء الغمر، ج ٥، ص ١٣٣. (٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، إناء الغمر، ج ٥، ص ١٣٣.

(٥) حكيم أمين، قيام دولة المالكية الثانية، ص ١٥٣.

وحدثت البدقية حذو جنوا فأسرعت بعقد صلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨هـ / ١٨١١م وقد شرط عليها السلطان شروطاً قاسية، وأخذ منها الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبئها<sup>(١)</sup>.

أما مملكة قبرص التي ظلت على عدائها للمماليك واستمرت تشن هجماتها على سواحل مصر وبلاد الشام، فقد قررت الدولة المملوكية اتخاذ موقف حازم تجاهها، ولن يكون ذلك بأقل من غزوها في عقر دارها، وهكذا كان.

---

(١) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٣ .

## الفصل الثاني

### غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك

استمرت اعتداءات الصليبيين المنطلقة من جزيرة قبرص على سواحل الدولة المملوكية في مصر وببلاد الشام، ففي سنة ١٤١٠هـ/١٣٢٣م هاجمت أربع سفن صليبية وعلى متنها سبعمائة من الفرنج ميناء يافا، «فاسروا جماعة من المسلمين، واخذوا مركباً فيه خام للسلطان قدم من مصر»<sup>(١)</sup> وفي سنة ١٤٢١هـ/١٣٥٩م هاجمت سفينتان صليبيتان ميناء الإسكندرية واحرقتا مركباً إسلامياً كان موسقاً بالبضائع<sup>(٢)</sup> وأذاه هذه الاعتداءات وما سبقها، أمر السلطان الأشرف برسباي بإغلاق كنيسة القيامة في مدينة بيت المقدس لعل ذلك يجعلهم يكفون عن اعتداءاتهم. كما حدث في أعقاب هجومهم على الإسكندرية سنة ١٣٦٥هـ/١٢٥٣م<sup>(٣)</sup> غير أن الصليبيين استمروا في انتهاج سياستهم العدائية ضد الدولة المملوكية، فهاجموا في سنة ١٤٢٧هـ/١٣٦٥م ميناء دمياط واستولوا على مراكب المسلمين بما فيهما من بضائع، واسروا ما يزيد على مائة رجل<sup>(٤)</sup> وزاد من صلف «جانوس» ملك قبرص أنه قد استولى على سفينة محملة بالهدايا كان السلطان برسباي قد أرسلها إلى السلطان العثماني «مراد»<sup>(٥)</sup>، فشارت ثائرة السلطان برسباي وأمر «بایقاع الحوطة على أموال التجار الأوروبيين) التي ببلاد الشام والإسكندرية ودمياط والختم عليها، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم»<sup>(٦)</sup>.

وأتبع السلطان تلك الخطوة بخطوة على درجة عظيمة من الأهمية وبعد النظر

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٤٣.

(٢) م.ن، ج٤، ص ٦١٧.

(٣) م.ن، ج٤، ص ٦١٩.

(٤) م.ن ج٤، ص ٦٦٥.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٣٨.

(٦) المقريзи، السلوك، ج٤، ص ٦٦٥-٦٦٦.

وهي غزو جزيرة قبرص لجعلها دار سلام بدلاً من أن تستمر للهمجية والاعتداء على سواحل بلاد المسلمين، والواقع أن التفكير في غزو قبرص بدأ جدياً في أعقاب هجوم بطرس لوزجان على الإسكندرة -الواقعة الأولى- إذ أمر يلغا الماخصكي الذي كان وصياً على السلطان الأشرف شعبان، ببناء المراكب والسفن، كما أرسل إلى بلاد الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف أن يمسك منشاراً في قطع الأخشاب وبناء السفن «برسم غزو قبرص»<sup>(١)</sup>.

غير أن الظروف في ذلك الحين لم تكن مواتية لتحقيق هذا الهدف، إلى أن تهبيات الفرصة في عهد السلطان بربسي، فوجه إليها ثلات حملات متتالية، وهذه الحملات في حقيقة أمرها تمثل مرحلة جديدة في تطور البحرية المملوكية، كما أنها توضح لنا مراحل التخطيط الحربي البحري في عصر السلاطين المالين<sup>(٢)</sup>، إذ انتقلت الدولة في سياستها الحربية والبحرية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وليس الهجوم الخاطف المبني على الردع فقط، بل الهجوم الذي يؤدي إلى هيمنة الدولة على حوض البحر المتوسط بأكمله من الناحيتين الحربية والاقتصادية.

#### الحملة الأولى: سنة ١٤٢٧هـ / ١٨٢٧م:

وجه السلطان الأشرف بربسي حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص، كي تكون حملة استطلاعية يقف من خلالها على «من يتجرم في البحر من الفرنج»<sup>(٣)</sup> لذلك لم يكن عدد السفن والرجال الذين اشتركوا فيها كبيراً، فقد تحركت أولاً ثلات سفن من مينا، دمياط، واتجهت إلى بيروت حيث انضمت إليها سفينة رابعة، ثم ابحرت جميعها صوب طرابلس، وهناك انضمت إليها سفينة خامسة، وبلغ عدد المجاهدين الذين اشتركوا فيها ستمائة مجاهد، وبصحبتهم ثلاثة فرس<sup>(٤)</sup>. وبعد أن تكاملت تجهيزات الحملة أبحرت من مينا طرابلس في أواخر رمضان ١٤٢٧هـ/ ١٨٢٧م. واتجهت صوب قبرص، وفي أثناء إبحارها هبت عليها ريح عاصفة فرقتها وردهتها إلى السواحل الشامية، إلا

(١) سعيد عشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٢٨، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٢١.

(٢) إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المالين، ص ٢٥٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٦٨، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٥٨٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني، آثار الشر، ج٨، ص ٤٨.

أن الحملة ما لبشت أن تجتمع من جديد وأبحرت في أوائل شوال / أيلول من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>. ووصلت إلى رأس ألياق من الجزيرة، وكان به مركب تجاري للصلبيين محمل بالبضائع، فلما رأى بحارته السفن الإسلامية هربوا منه، فاستولى المجاهدون على ما به من البضائع ثم أحرقوه، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى مينا ليماسول، وهناك فاجأ المجاهدون ثلاثة سفن كانت مجهزة للاغارة على السواحل الإسلامية، فاستولوا على ما فيها ثم أحرقوها<sup>(٢)</sup> وفاجأوا ثلاثة سفن أخرى فأحرقوها<sup>(٣)</sup>.

وقد حاول قائد القوات الصليبية في المدينة صد الهجوم الإسلامي في سبعين فارساً وثلاثمائة راجل، غير أن القوات الإسلامية احتوت هجومه وأرده قتيلاً مع عدد كبير من أفراد قواته في أرض المعركة<sup>(٤)</sup>. وبذلك أصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المجاهدين فدخلوها وسيطروا عليها، فقال أحد الشعراء في ذلك:

فولوا فرارا من أليم نصالنا فولت خيول الكل خوف رجالنا وسوف ترى سلطانهم ما نوى لنا	دخلنا ديار الكافرين وأرضهم وصلنا عليهم صولة الأسد في الفلا ضربنا ديارهم ومات أميرهم
--	---

ثم حاصر المجاهدون حصن ليماسول، ولما وجدوه «منيعاً تطول محاصرته»، اكتفوا بما حققه وعادوا بسفنهم إلى مينا، دمياط وهم يحملون الغنائم والأسرى<sup>(٥)</sup>، «وكان عدد الأسرى ألفاً وستمائة نفس»<sup>(٦)</sup>.

وفي اعقاب هذه الحملة اتخد السلطان الأشرف برسباي موقفاً دبلوماسياً فطناً لا وهو فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس كي يخفف من حدة عداء الصليبيين، وليحول دون اجتماع كلمتهم بسبب الحملة وما احدثته من تدمير، وتحسباً من أي هجوم صليبي

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٣٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٣٨.

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ٤٨.

قام بتحصين سواحل مصر والشام<sup>(١)</sup>.

أما ردة فعل الملك جانوس ملك قبرص، فقد أرسل سفينتين مشحونتين بالرجال والعدة إلى سواحل مصر والشام «لیأخذوا من وجده من المسلمين»<sup>(٢)</sup> وشنوا هجوما على صور وجبلة وطرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها تكنت من صدهم<sup>(٣)</sup>. «فصاروا كلما وصلوا إلى ساحل وجدوا عليه حرسيّة، فجاءوا إلى مكان يقال (الله) نهر الكلب ليأخذوا منه ماء، فأطلقوا مدفعاً لينظروا أن كان به أحد، فأكمن المسلمون إلى أن طلعت الفرّج البر، ودقوا عليهم فمسكوا منهم جماعة وأحضروهم إلى السلطان بعد أن هربت الأغيرة (السفن) ومن بها مجرحين».<sup>(٤)</sup>

**الحملة الثانية: سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م:**

كانت نتائج الحملة الأولى مشجعة للسلطان الأشرف برسباي لكي يبدأ بإعداد حملة جديدة، فقد دلت النتائج على ضعف مملكة قبرص وانحلال أمرها وعجزها عن المقاومة، على الرغم من المحاولة الفاشلة التي قام بها «جانوس» ملك قبرص في الاعتداء على السواحل الإسلامية، كما دلت على انفراط عقد التحالف الصليبي في الغرب الأوروبي وحضور المتوسط، لذلك ما أن عادت الحملة الأولى منتصرة حتى أمر السلطان ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية، فتم بناء عدة سفن في موانئ الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس<sup>(٥)</sup>.

وعندما علم «جانوس» ملك قبرص بهذا الاستعداد، حرك حملة بحرية مؤلفة من تسع سفن ومشحونة بالرجال والعدة إلى دمياط لمحاصرتها ومنع السفن الإسلامية من الانطلاق منها، غير أن السفن التي كان قد تم بناؤها في الإسكندرية تحركت في ذلك الوقت باتجاه دمياط، الأمر الذي جعل السفن القبرصية تتسحب بغیر قتال<sup>(٦)</sup>.

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢، ٦٨٣، ابن شاهين الظاهري، زيدة كشف المالك، ص ١٣٩.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زيدة كشف المالك، ص ١٣٩

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٨٣-٦٨٦.

(٤) ابن شاهين، زيدة كشف المالك، ص ١٣٩.

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٦) ابن حجر المستلاني، أنباء الغمر، ج٨، ص ٧١-٧٢.

اما الحملة الإسلامية فبعد أن اكتملت تجهيزاتها أبحرت من مينا دمياط في أواخر رجب سنة ١٤٢٨هـ / أوائل تموز ١٤٢٥م واتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التي تم بناؤها هناك ثم اتجهت إلى طرابلس وهناك تكاملت أعداد السفن التي تشكلت منها، وبلغت عدتها ثلاثة وأربعين سفينة متنوعة الأحجام والأغراض<sup>(١)</sup>. واقلعت الحملة من مينا طرابلس في ١٤ رمضان ١٩٧٣م بقيادة الأمير جرياش الكريمي قاوش حاجب الحاجب يعاونه عدد من الأمراء، على كل سفينة أمير<sup>(٢)</sup>، وكان مقدماً على إحدى هذه السفن المؤرخ المعاصر الأمير صالح بن يحيى، إذ ذكر ذلك بقوله: «فتوجهت معهم مقدماً على الغراب العتيق وهو غراب عمل ببيروت متقدماً على هذه الأيام الذي (توجه الشاميون) فيه إلى قبرص... وكان معه قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة، وكان الغراب المذكور أحسن الأغنية مشيا»<sup>(٣)</sup>.

وخطاب أحد الشعراء المجاهدين غداة انطلاقهم بقوله لهم:

سيراوا على اسم الله ذي الجلال  
ثم ابتغوا طريقة الحلال  
واجتنبوا جلال كل سوء  
فانها قبيحة الخلال<sup>(٤)</sup>

وكان الأمير جرياش في أثناء اعداده للحملة وهو في بيروت، قد أرسل بأمر من السلطان برباي رسولاً إلى الملك «جانوس» يطلب منه الدخول في طاعة السلطان منعاً للقتال، إلا أنه أخذته العزة بالاثم، فأبى ذلك<sup>(٥)</sup>.

وابحرت الحملة صوب مينا قريباً على الشاطيء الشمالي الشرقي للجزيرة، ثم تحركت باتجاه الماغوسة (فاما جوستا) فوصلتها في يوم الأحد العشرين من رمضان، وعلى الفور نزل المجاهدون من مشاة وخيانة إلى البر ومضربوا خيامهم هناك<sup>(٦)</sup>. ولما

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٣٩-١٤٠، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية ص ١٢١.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٠.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠

(٥) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفمر، ج ٨، ص ٧٢ .

(٦) م.ن، ج ٨، ص ٧٢ .

رأى حاكم المدينة ضخامة القوات الإسلامية، أرسل إلى الأمير جرياش رسولاً يطلب الأمان ويعلن أنه داخل في الطاعة ويقول: «أنا مملوك السلطان، والمدينة مدینته، والرعاية رعيته» فأعطاه الأمير أماناً وأرسل إليه راية سلطانية رفعها على القلعة في المدينة<sup>(١)</sup>.

ومكث المجاهدون في المدينة أربعة أيام شنوا خلالها غارات عديدة على الضياع المجاورة وأوسعوها تخريباً وتحريقاً، «وأوقع الله الرعب في قلوب الذين كفروا حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون الضياع وفيها ما بين المائة والخمسين فلا يتنع عليهم أحد»<sup>(٢)</sup>.

ثم أقلعت الحملة بعد ذلك باتجاه الملاحة (الارنكا)، وقد وضع قادة الحملة مخططاً حربياً لمسح المنطقة والإطباقي على الصليبيين فيها برأ وبحراً، فعندما وصلت الحملة إلى مكان يسمى رأس العجوز أنزلت هناك ليلاً سرية في نحو أربعين ألف مجاهد إلى البر، هاجمت الصليبيين في المنطقة، فقتلتهم وأسرت وأحرقت، وكانت في سيرها تحاذى سفن الحملة التي استمرت تبحر باتجاه الملاحة<sup>(٣)</sup> إلى أن ظهر أسطول قبرصي مؤلف من ثلاث عشرة سفينة وأخذ يقترب من السفن الإسلامية، فأسرعت السرية بالعودة إلى السفن لمواجهة الأسطول القبرصي<sup>(٤)</sup>.

وكان الملك جانوس قد وضع خطة حربية أراد من خلالها احتواء الحملة الإسلامية عن طريق تشتيتها بين البر والبحر، ففي الوقت الذي أرسل فيه أسطوله لاستدراج السفن الإسلامية إلى عرض البحر لإبعادها عن القوات البرية، قام بإرسال أخيه الأمير هنري على رأس جيش عدته سبعمائة فارس وثمانية الآف راجل لقتال المسلمين برأ وبحراً، واصطحب معه «خمس عجلات تحبرها البقر عليها مدافع وسلاح احضرواها ليقاتلوا بها مراكب المسلمين»<sup>(٥)</sup>.

أما السفن الإسلامية فقد لاحت الأسطول القبرصي إلى عرض البحر، ولما لم

(١) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٧٢ .

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥ ، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥ ، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥ .

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

تستطيع اللحاق به بسبب عجزها عن مجاراته في سرعته، عادت تبحر بمحاذاة الساحل، وأنزل قادة الحملة سرية إلى البر لتعاود مسح المنطقة من جديد، وذلك قبل اكتشاف أمر القوات العسكرية التي كان يقودها الأمير هنري، وكان هذا الأمير قد انطلق على رأس فرسانه وألف من مشاته إلى جهة البحر، أما بقية قواته فقد جعلها تخفي في المناطق القريبة، وشرع في مهاجمة السرية الإسلامية التي أنزلت على الساحل، وكاد أن يحيط بها لولا سرعة نزول ما يقارب من ألف مقاتل من السفن الإسلامية إلى البر بواسطة قوارب صغيرة وشخاتير، وقد نزلوا مشاة لصعوبة إنزال الخيل في تلك اللحظات العصيبة، واستطاع مشاة المسلمين التغلب على فرسان ومشاة الأمير هنري وهزيمتهم «وقتلوا منهم خلق وقطعوا رؤوسهم، وجعلوها على أسنة الرماح». وكانت السفن الإسلامية تخوض في الوقت ذاته معركة بحرية مع الأسطول القبرصي، وجرى تبادل إطلاق المدافع بين الطرفين، وأمام شدة نيران المدفعية الإسلامية، انسحب الأسطول القبرصي ووقع إحدى سفنه في أيدي المسلمين<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تجمعت القوات الإسلامية على السفن، أبحر الأمير جرياش باتجاه الملاحة، وعندما وصلها أنزل قواته بالخيول إلى البر، وضرب خيامه هناك، ثم وجه بعض قطاعات الجيش لشن الغارات على الضياع المجاورة، فأخذ المسلمين «يقتلون ويأسرون ويحرقون القرى، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم»<sup>(٢)</sup> وتقن المسلمين من قتل أحد خواص الملك جانوس ويدعى الأمير عين غزال<sup>(٣)</sup>.

ثم أبحرت الحملة إلى أن وصلت إلى ليماسول في آخر رمضان ٨٢٨هـ / أوائل آب ١٤٢٥م، وفي صبيحة يوم عيد الفطر هاجم المسلمون حصن المدينة واقتحموه عنوة بالسيف، «ونهبوا وأسروا من كان فيه عندما قتلوا منه جماعة»<sup>(٤)</sup>، وكان هذا الحصن

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤١، ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٨، ص ٧٣ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥ .

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٨، ص ٧٣ .

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٧ .

من أعظم حصون جزيرة قبرص مناعة وحصانة<sup>(١)</sup>، وبالسيطرة على هذا الحصن ملك المسلمين المدينة ورفعوا عليها الراية السلطانية<sup>(٢)</sup>.

وأراد الأمير جرياش الإبحار إلى بلدة الباب (بافوس) لمحاجتها، إلا أن الرياح لم تساعده على ذلك، فرأى أنه من الأقرب العودة إلى مصر، وبخاصة بعد أن وصلته الأخبار عن إرسال البندقية لجدة قوية إلى قبرص، وعن جمع الملك جانوس لقواته واستعداده لشن الهجوم على القوات الإسلامية، فأقلع بالحملة عائداً إلى مصر مزهواً بالنصر، ودخل القاهرة بالقوات الإسلامية الظافرة في ٢ ذي القعدة ١٥٨٢٨هـ / ١٤٢٥م، وقام السلطان برسبياً باستعراض الغنائم والأسرى، وأنعم على أفراد الحملة انعامات كثيرة<sup>(٣)</sup>:

وكان عدد من قتل من الصليبيين في هذه الحملة نحو خمسة الآف. في حين استشهد من المسلمين ثلاثة عشر مقاتلاً<sup>(٤)</sup>، وعلى الرغم من المبالغة في عدد الصليبيين والقلة في عدد المسلمين الذين قتلوا في هذه الواقعة إلا أن الأمر يدل على أن المسلمين قد نجحوا في مbagحة الصليبيين وإحداث خسائر كبيرة بين صفوفهم.

أما عدد الأسرى الذين جلبوا من قبرص فكانوا في نحو ألف وستين أسيراً وأما الغنائم، فكانت من الكثرة بحيث حملت إلى قلعة القاهرة على «مائة وسبعين حمalaً وأربعين بغلًا وعشرة جمال، ما بين خرج وصناديق وحديد والآت حربية وأوانى»<sup>(٥)</sup>.

وأصدر السلطان برسبياً أمره ببيع الأسرى على أن يراعى عند البيع عدم التفرقة بين الأولاد وأبائهم، ولا بين القريب وقاربه، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم من أمراء وتجار وعوام على شرائهم<sup>(٦)</sup> أما الغنائم فقد أمر السلطان بتقسيم

(١) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤١ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٩٣

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٩ .

(٣) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٦٩٥ ، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٧ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفمر، ج ٨، ص ٧٣ .

(٥) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٩٦ .

(٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٩٣ ، سعيد عاشور، قبرص والغزو الصليبي، ص ١٠٢

اصنافها<sup>(١)</sup>.

### الحملة الثالثة : ٥٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م :

على الرغم من النتائج التي حققتها الحملة الثانية، إلا أنها لم تكن بالمستوى الكبير الذي كان السلطان الأشرف بربسي ي تتطلع إلى تحقيقه، فلم يكن الهدف مجرد السلب والنهب والتعريض والعودة بأسرى وغنائم، بل كان الهدف الأساسي هو الإستيلاء على الجزيرة وأخضاعها لنفوذ وسيادة الدولة المملوكية، لذلك لم يلبث السلطان بربسي أن شرع في التجهيز لإرسال حملة ثالثة إلى قبرص، وزاد من عزيمته في الإسراع بإعدادها ما بلغه من أخبار عن استعداد ملك قبرص واستنجداده بملوك أوروبا للهجوم على ثغور الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغيرها<sup>(٢)</sup>، هذا فضلاً عن تحريض الجنوية للسلطان ضد جانوس ملك قبرص بسبب عدائهم له، وكذلك استنجداد أمير العلايا به للوقوف في وجه أطماع آل لوزجنان في إمارته<sup>(٣)</sup>.

وقد تم إعداد السفن في موانئ مصر والشام، وكان تجميدها في مينا الإسكندرية وبلغت عدتها ما يقرب من مائة وثمانين سفينة<sup>(٤)</sup>، وجاء اندفاع الناس للمشاركة في هذه الحملة بأعداد غفيرة جداً لدرجة أن السلطان الأشرف بربسي اعتذر للكثيرين منهم بعدم اتساع السفن لحملهم<sup>(٥)</sup>، ولما انتهى إعداد الحملة استعرض السلطان الأشرف بربسي العساكر والمجاهدين بحوش القلعة في القاهرة ليقف على مدى استعدادهم وتسلیحهم وليوزع عليهم نفقة السفر، وكان من شارك في هذه الحملة عدد من الأعيان والفقهاء<sup>(٦)</sup>.

وندب السلطان الأميين اينال الحكمي، وتغري بردى المحمودي، ليكونا قائدین للحملة، وجعل أمرأة قوات البحر للأمير اينال الحكمي، بينما جعل أمرأة قوات البر للأمير تغري بردى المحمودي، وزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٦٩٦ .

(٢) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٢ .

(٣) سعيد عاشور، قبرص والمحرب الصليبية، ص ١٠٤ .

(٤) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٢ ، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٥ .

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٧٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٦٠٢ .

للامير تغري بردى المحمودي، ووزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما الآخر<sup>(١)</sup>.

وأبحرت الحملة من مينا، الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٨٢٩هـ / اوائل توز ١٤٢٦م، وفي ذلك الحين كانت عدة سفن صليبية أرسلها ملك قبرص تقترب من السواحل المصرية بين رشيد والإسكندرية، وقد صادف خروج قوة من المجاهدين في عدة سفن من مينا، رشيد بالتجاه الإسكندرية، فلما شاهد المجاهدون السفن الصليبية أرسلوا بطلب النجدة من مدينة رشيد، ثم دخلوا في قتال مع الصليبيين إلى أن قدمت النجدة من رشيد، فولى الصليبيون الأدبار<sup>(٢)</sup>.

أما الحملة الإسلامية فقد وصلت إلى مينا، رشيد أولاً ثم أبحرت بالتجاه قبرص، فوصلتها في ٢٧ شعبان / أوائل توز، ورست عند «ليفادن» على شاطئ «افذية» على بعد بضعة أميال من ليماسول<sup>(٣)</sup>، وعلى الفور قامت القوات البرية بالنزول إلى البر وتركزت على أرض الجزيرة، بينما أقامت القوات البحرية في المراكب وهي في أبهة الاستعداد، ثم تقدمت قوة على رأسها الأمير يشبك قرقش إلى حصن ليماسول الذي كان القبارصة قد أعادوا عمارته وشحنه بالمقاتلين، وحفروا حوله خندقاً عميقاً، واستطاعت القوة الإسلامية الصعود إلى الحصن على سلم من خشب نصبه عليه «فهرب الفرنج الذين في الحصن بعد أن كانوا أوقدوا قدور الزفت تغلبي ناراً ليصبواها على من يصعد إليهم من المسلمين، فهزّهم الله تعالى وملكو البرج الأول»، وكانت الفتح توجهت قوة إسلامية أخرى إلى قرية قريبة من ليماسول تدعى «اسكتية»، وكانت تحت حكم البنادقة وخارجية عن حكم جانوس ملك قبرص، فطلب أهلها الأمان من المسلمين فأمنوهم، وقد أخبروا قادة القوة الإسلامية عن الحشد الذي كان يعده الملك جانوس، إذ كان مستعداً «في خمسة الآف فارس وبسبعين الآف راجل»، وفي محاولة من قادة الحملة الإسلامية لجسم الموقف سلمياً، فقد أنفذوا رسولاً إلى الملك جانوس يعرضون عليه «بأن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنته وبيلده وإلاًً مشوا عليه وخربوا

(١) ابن حجر العسقلاني، أبناء الفمر، جـ٨، ص ٩٩ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، أبناء الفمر جـ٨، ص ٩٨ .

(٣) العبادي، تاريخ البحريّة الإسلاميّة، ص ٣٣٤ .

(٤) الصيرفي، نزهة النّفوس والآهان، جـ٣، ص ٨٧ .

قصره وأسروه وقتلوه»،<sup>(١)</sup> إلا أن الملك جانوس رفض ذلك وإنعاً في صلبه قام بقتل الرسول وإحراقه<sup>(٢)</sup>، وشرع من فوره بحشد المزيد من قواته حتى بلغت عدتها ثلاثة وعشرين ألف فارس، فضلاً عن الراجلة، كما جهز أربع عشرة سفينة، «حتى إذا ظهر عسكر الإسلام للقائه يحطمونه على المراكب ويأخذونها، وقطع وجذم أنه هو الغالب»<sup>(٣)</sup>. فلما بلغت أخباره قادة الحملة الإسلامية انقسموا في زحفهم إليه إلى قسمين قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي محمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير اينال الجكمي -كما خطط السلطان الأشرف برسبياـ<sup>(٤)</sup>.

وفي أثناء زحف الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية، ظهر له الملك جانوس على رأس قواته عند «خiroكيتا» فيما بين ليماسول والملاحة، وهناك دارت بين الطرفين معركة شديدة في يوم الأحد مستهل شهر رمضان ٧ تموز. وقت الظهر، والمحلي بانتصار المسلمين وانهزم القبارصة، «وقيل إن جملة من قتل منهم في ذلك اليوم ستة الآف»<sup>(٥)</sup> ووقع الملك جانوس أسيراً مع أعداد كبيرة من أفراد قواته في أيدي المسلمين، بينما قتل آخوه في أتون المعركة.<sup>(٦)</sup>

ويعد مسح المنطقة العسكرية «توجه الأمير يشبك الشاد ومن معه إلى جبل الصليب فخرّ به وما حوله من الديارات واحضرروا الصليب الذي كان به، وكانوا يعظمونه حتى سمه صليب الصليبان».

ثم توجه الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية إلى العاصمة «الأقصية» (نيقوسيا)، فيما استمر الأمير اينال الجكمي على رأس السفن بالملاحة لحفظ جانب

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٨، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) م.ن، ج ٨، ص ١٠٠، ابن شاهين الظاهري، زيدة كشف المالك، ص ١٤٢ .

(٣) ابن شاهين الظاهري، زيدة كشف المالك، ص ١٤٢ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٨، ص ١٠٠ .

(٥) م.ن، ج٨، ص ١٠١، ابن شاهين الظاهري، زيدة كشف المالك، ص ١٤٣ .

(٦) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٨، ص ١٠١، ١٠٢، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٨ .

البحر، وبينما هو كذلك إذا بالأسطول القبرصي يقترب منه، فأرسل من فوره إلى الأمير تغري بردبي يعلمده بالأمر «فأعاد عليه أكثر العسكر»، ودارت معركة بحرية بين السفن الإسلامية والأسطول القبرصي، واستمر القتال نهار وليل يوم الأربعاء ٤ رمضان ١٠ توز، وثبت القبارصة ثباتاً قرياً «وكان سبب ثباتهم في القتال أنهم لم يعلموا ما اتفق لملتهم من الأسر ولعسكره من الهزيمة»<sup>(١)</sup> أما القوات البحرية الإسلامية فقد أظهرت براعة حربية كبيرة لدرجة أن بعض المجاهدين كان يلقي بنفسه على مراكب القبارصة على الرغم من «تكاثر المدافع والشهام»<sup>(٢)</sup> وانفصلت المعركة بانتصار المسلمين وتم أسر إحدى السفن القبرصية بينما فرت باقي سفنهم إلى عرض البحر، بعد أن قتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين نفساً<sup>(٣)</sup>.

ويروي بعض المؤرخين أن سبب تراجع السفن القبرصية هو أن المسلمين أجبروا الملك جانوس المأسور لديهم على كتابة خطاب إلى قائد أسطوله يأمره فيه بالرجوع فرجع<sup>(٤)</sup>.

أما الأمير تغري بردبي الحمودي فقد وصل على رأس قواته إلى العاصمة نيقوسيا «فلما أقبل إليها وصحبه فرقة من العسكر وإذا بأكابرها وأساقفتها وقسيسها ورہبانها معهم الإنجيل وهم داعون للمسلمين، وطلبو الأمان، فأمنهم الأمير ثم فتحوا المدينة»<sup>(٥)</sup> فدخلها في يوم الجمعة، وأمر أن ينادى في أنحاء البلاد بالأمان وبيان الجزيرة «صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسبای»، ثم دخل تغري بردبي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذن المسلمين لصلاة الجمعة على صوامع

(١) ابن حجر العسقلاني، آنماء الغمر، ج٨، ص١٠١ - ١٠٢.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والآبدان، ج٣، ص٩ ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٥.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والآبدان، ج٣، ص٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج٢، ص١٢٣.

(٤) سعيد عاشور، قبرس والمحروب الصليبية، ص١١٣.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص١٤٣.

الكنائس، ثم أقاموا بها الصلاة.<sup>(١)</sup>  
 واتفق أعيان نقيوسيا وتجارها على أن يجمعوا مالاً للسلطان نظير الأمان الذي  
 منح لهم، فقدموا للأمير تغري بردي ما جمعوه وتعهدوا بدفع الباقي<sup>(٢)</sup>.  
 وغادر المسلمون نقيوسيا يوم السبت «ومعهم الغنائم الكثيرة والأسرى فكان  
 ثلاثة الآف وسبعمائة نفس»<sup>(٣)</sup> وفي اثناء مقامهم أرسل أهل الماغوصة (فاما جوستا)  
 يطلبون الأمان، من قادة المسلمين، فأمنوهم<sup>(٤)</sup>.  
 وبعد أن أقام المسلمون في الملاحة مدة سبعة أيام «أراحوا فيها أبدانهم وأقاموا  
 شعائر الإسلام من الصلاة والأذان» تحركوا عائدين إلى مصر ومعهم الغنائم والأسرى  
 وعلى رأسهم الملك جانوس مكبلاً بالحديد.  
 ووصلت الحملة الإسلامية إلى ساحل بولاق في مصر في ٧ شوال / منتصف آب.  
 وفي اليوم التالي سارت القوات الإسلامية بالأسرى والغنائم إلى القلعة في القاهرة في  
 موكب حافل «وقد اجتمع لرؤيتهم من الرجال والنساء خلائق لا يعصي عددها إلا الله  
 الذي خلقها»<sup>(٥)</sup>.  
 «وطلعت الغنائم على رؤوس ثلاثة الآف حمال وأحمال محزومة على جمال»<sup>(٦)</sup>  
 أما الملك جانوس فقد أركب «بغلاً أعوجاً» وسير في ذيل الأسرى مع خواصه وأعلامه  
 منكسة<sup>(٧)</sup>، «فلما وصلوا به إلى القلعة كشف رأسه وكب على وجهه حتى قبل الأرض  
 عند الباب» ثم أحضر بين يدي السلطان فقبل الأرض مراراً وسقط مغشيا عليه، فلما  
 أفاق ردّوه إلى مكان أعد له<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٣ - ١٤٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الفمر، ج ٨، ص ١٠٣.

(٢) سعيد عاشور، قبرس والخروب الصليبية، ص ١١٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الفمر، ج ٨، ص ١٠٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٧٣، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٠٨.

(٥) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٢٤. (٦) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٤.

(٧) المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٢٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦١٢ - ٦١٤.

(٨) ابن حجر العسقلاني، انباء الفمر، ج ٨، ص ١٠٣.

ثم أن السلطان الأشرف برسبياي عفا عنه وقرر عليه مبلغ مائتي ألف دينار، يدفع نصفها وهو بمصر ويرسل النصف الآخر عند عودته إلى قبرص، كما تم الاتفاق معه على أن يكون نائباً عن السلطان في قبرص وما معها<sup>(١)</sup>، مع دفع جزية سنوية لدولة المالك قدرها عشرون ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

ولما لم يكن جانوس يملك من المبلغ المقرر عليه شيئاً في ذلك الحين، فقد طلب من الفرنج المقيمين بالإسكندرية اقراضه المبلغ المطلوب منه، فلما أقرضوه المبلغ دفعه للسلطان، فأذن له بالغادر وخلع عليه وأركبه فرساً بسرج ذهب، فغادر مصر عن طريق الإسكندرية<sup>(٣)</sup>، « واستقر نائباً عن السلطان بالجزائر القبرصية ».

وأنشد أحد الشعراء في ذلك:

عفونا ومن شأن الملوك أولى النهي  
بأن يتركوا الذنب العظيم عن الجاني<sup>(٤)</sup>  
فلا خير في شخص يرى العفو بدعة  
عن المخطيء الجاني وإن كان نصراني<sup>(٥)</sup>

وظلت قبرص تتبع لسلطان المالك وتدفع الجزية بانتظام ، وعندما آل حكم قبرص للبنادقة سنة ١٤٩٥هـ / ١٨٩٥ م حرص هؤلاء على عدم استفزاز السلطات الملكية، فأرسلوا سفارة إلى مصر للاتفاق مع المالك بشأن قبرص، كما استمروا في دفع الجزية المفروضة على قبرص وإرسالها إلى القاهرة حتى سنة ١٥١٧هـ / ١٩٢٣ م حين استولى العثمانيون على مصر، وعندئذ حول البنادقة الجزية إلى السلطان العثماني، إلى أن تمكن العثمانيون من فتح قبرص، فحكموها حكماً مباشراً<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، آنها، الفهر، ج٨، ص ١٠٤ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٧٢٦ .

(٣) ابن حجر العسقلاني، آنها، الفهر، ج٨، ص ١٠٥ .

(٤) ابن شاهين الظاهري، زينة كشف المالك، ص ١٤٥ .

(٥) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٣٦ ، سعيد عاشور، المركبة الصليبية ج٢ ، ص ١٢٣١ - ١٢٣٢ .

### الفصل الثالث

## غزو جزيرة رودس ومحاولات الاستيلاء عليها

اتخذ الصليبيون في أعقاب طردتهم من بلاد الشام سنة ١٢٩١هـ/١٢٩٠ م جزيرة قبرص مركزاً جديداً لهم بتشجيع من الملك القبرصي هنري الثاني الذي وجد فيهم أداة صالحة لتنفيذ سياساته العدوانية ضد دولة المماليك - كما أسلفنا من قبل - وكان من بين الصليبيين فرسان الإسبتارية، وقد اعتبر هؤلاء أن إقامتهم في قبرص هي إقامة مؤقتة ريثما يتمكنوا من إيجاد مركز دائم لهم لا ينضون فيه تحت قيادة ملك قبرص وإنما شركاء له، ليمارسوا من خلاله أعمال القرصنة البحرية ضد السواحل الإسلامية في حوض البحر المتوسط، وفي سبيل ذلك دخلوا في مفاوضات مع الامبراطورية البيزنطية لنقل حقوق ملكية جزيرة رودس إليهم، غير أن القسطنطينية لم ترغب في التخلص عن الجزيرة، ولما لم يتمكن الإسبتارية من تحقيق هدفهم بالطرق الدبلوماسية فقد أخذوا يتحينون الفرصة لاحتلال الجزيرة عسكرياً<sup>(١)</sup>، ولم يطل انتظارهم فقد قصدتهم سنة ١٣٠٦هـ/١٣٠٦ م أحد كبار القرصنة الجنوبيين - واسمه «فيجنولو» - الذي استولى من الامبراطور البيزنطي «أندرونيك» على جزيرتي كوس وليروس في حوض المتوسط، وكان أن عرض ذلك القرصان الجنوبي على مقدم الإسبتارية «فولك فيلات»، مشروعاً ضخماً خلاصته أن يتعاون الطرفان في غزو جميع جزر الدوديكانيز - في بحر الأرخبيل - على أن يكون للإسبتارية ثلاثة الغنيمة وللقرصان الثالث.

وبموافقة من البابوية وبماركتها، شرع الإسبتارية في غزو جزيرة رودس بمساعدة بعض السفن الجنوية، ولم تثبت أن أخذت حصنون الجزيرة تتراصطاً في أيديهم وأحداً بعد الآخر، حتى سقطت مدينة رودس نفسها سنة ١٣٠٨هـ/١٣٠٨ م وبذلك فقدت الدولة البيزنطية جزيرة كبيرة من جزرها في حوض المتوسط، وغدت رودس حصنناً حصيناً للإسبتارية<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاون في مصر، ص ٢٤٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٣٣ - ١٢٣٤.

ولم تلبث رودس أن شكلت قاعدة حربية لجتماع الصليبيين وانطلاقهم لهاجمة السواحل الإسلامية، مثلما فعل الملك القبرصي بطرس لوزجنان عند مهاجمته مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥هـ/٧٦٧م وظلت كذلك بعد استيلاء السلطان برباوي على جزيرة قبرص، مما دفع برباوي نفسه إلى محاولة الاستيلاء عليها لولا توفر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامي من تيموريين (مغول) وعثمانيين (أتراك) وإمارات التركمان بآسيا الصغرى في ذلك الحين، هذا فضلاً عما حلّ بالبلاد المصرية في آخر عهد برباوي من جملة الطواعين والجماعات والقلق الملوكيه وارتفاع الأسعار، فاضطر برباوي إلى إرجاء فتح رودس ريثما تحين فرصة ذلك<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من إرجاء برباوي هذا إلا أن الإستمارية في رودس شعروا بالخطر يحدق بهم بعد النجاح الكبير الذي حققه برباوي في قبرص، فأسرعوا بإنفاذ رسول إلى السلطان سنة ١٤٢٧/٨٣م لطلب الصلح والكف عن القتال، وفي ذلك قال المقرizi «وقدم رسول صاحب رودس يسأل الأمان، وأن يعفى من تجهيز العسكر إليه وأنه يقوم بما يطلب منه، فأركب فرساً، وفي صدره صليب من ذهب وطلع القلعة، وقبل الأرض بين يدي السلطان، وأدى رسالته ثم نزل إلى القاهرة»<sup>(٢)</sup>.

غير أن الإستمارية لم يتزموا بما أخذوه على أنفسهم تجاه الدولة المملوكية، فما لبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في القرصنة والاعتداء، ويبدو أن عدم تمكن السلطان برباوي ومن بعده ابنه السلطان الملك العزيز جمال الدين يوسف من توجيه حملة بحرية لوقفهم عند حدتهم، بسبب الظروف الداخلية والخارجية، قد جعلهم يستمرون في الاعتداء على السواحل الإسلامية، وعندما تولى سلطنة المملوكية السلطان الظاهر جقمق سنة ١٤٣٨هـ/٢٨٤م<sup>(٣)</sup>، استمر الإستمارية في خطهم العدوانى ومن ذلك أن

(١) سعيد عاشور، قبرص والمحروب الصليبية، ص٥٨، محمد زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص١١، ١٠٧ - ١٠٩، ١٩٦، ابراهيم حسن، البحرية في عصر السلاطين المالك،

ص٢٦٨-٣٤٢، Atiya. op. cit, PP 341-342.

(٢) المقرizi، السلوك، ج٤، ص٧٤١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، آنباء الغمر، ج٨، ص١٦ - ١٨ -

أربع سفن لهم أغارت على رشيد سنة ١٤٣٩هـ/١٨٤٣م وأخذت منها أبقاراً وغيرها<sup>(١)</sup>. إزاء ذلك كان لابد للسلطان الظاهر جقمق من أن يواجه الموقف بمحاولة اجتناث الإسبتارية من جذورهم، ولا يكون ذلك إلا بغزو جزيرة رودس حصنهم الحصين، ويقال إن من الأسباب التي شجعته على غزو الجزيرة أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرضه على ذلك، وكان السلطان مراد يهدف إلى صرف الفرسان الإسبتارية كي يجعلهم ينشغلون بالدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي أوشك أن يتكون في أوروبا آنذاك لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين في منطقة البلقان.

على أن أخبار استعدادات السلطان الظاهر جقمق الأولية وصلت إلى فرسان الإسبتارية عن طريق الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم، فأرسل «لاستيك» رئيس الإسبتارية سفينتين إلى السواحل المصرية بغية الوقوف على ما يحدث هناك، وقُنِّي الإسبتارية من معرفة كل ما يدور من استعداد لغزو رودس بواسطة أحد النصارى من أهل دمياط<sup>(٢)</sup>، فأخذوا يستعدون بها خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرص، وإلى النصرانية في أوروبا يستنجدون بها خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرص، وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب في فشل السلطان الظاهر جقمق في إخضاع رودس وجعلها تابعة لسلطنة المماليك في مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرص<sup>(٣)</sup>.

أما الحملات التي أرسلها السلطان جقمق ضد رودس فكانت ثلاث حملات وهي:

#### الحملة الأولى: سنة ١٤٤٠هـ/١٨٤٤م

بعد أن أتم الأسطول الإسلامي المملوكي استعداداته الحربية أبحر من ساحل بولاق في ٩ ربيع الأول ١٤٤٠هـ/١٨٤٤م وكان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة، وعلى متنها مائتان من الجندي بقيادة الأميرين تغري برمش الزركاش السلاحدار ويونس محمودي أمير آخر، وقد انضم إلى الحملة عدد كبير من المتطوعين من

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ١١٦٥، أبو المعاسن، النجوم الظاهرة، ج٢، ٧، ص ١٠٦.

(٢) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٢.

(٣) سعيد عاشور، مصر والشام، ص ٢٤٢.

أهالي القاهرة ودمياط حتى بلغ مجموع المقاتلين قرابة ألف مقاتل<sup>(١)</sup>.  
واتجهت الحملة أولاً إلى جزيرة قبرص حيث زودها الملك حنا الثاني بما تحتاجه من مؤن، ثم تابعت ابحارها باتجاه العلايا شمالاً حيث انضمت إليها سفينتان مشحونتان بالمقاتلين<sup>(٢)</sup>.

ووصلت الحملة إلى جزيرة رودس في أواخر ربيع الآخر، أواخر أيلول من السنة ذاتها، ورست بالقرب من الرأس الرملي بأقصى شمال الجزيرة<sup>(٣)</sup>، وأرسل قادتها من هناك كتاباً موجهاً من السلطان جقمق إلى صاحبها<sup>(٤)</sup>، غير أن الحملة فشلت في تحقيق هدفها، إذ كان الصليبيون مستعدين للمواجهة، كما تبين ذلك لعيون الحملة، وقد انقضت عشر سفن للروادسة على السفن الإسلامية، ويسرب عنصر المبادأة بالهجوم، اضطرت السفن الإسلامية إلى الإبحار في وسط الليل والروادسة يتعقبونها<sup>(٥)</sup>.

وما ليشت أن وقعت في صبيحة اليوم التالي معركة حرية بين الفريقين، على مقرية من ساحل آسيا الصغرى، ولم تكن نتيجتها حاسمة، فتراجعút الحملة بعد أن استطاعت الخلاص من قتال الروادسة<sup>(٦)</sup>، وفي طريق العودة إلى مصر، هاجمت الحملة أحدى القرى وخربتها «فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها»<sup>(٧)</sup> وقد علق ابن حجر العسقلاني على أحداث هذه الحملة ونتائجها بقوله: «وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه (جمادى الأولى) قدم المجاهدون من بحر الفرنج وكانوا أرسوا على رودس وراسلوا أصحابها بكتاب من السلطان، فجاهمهم من أنذرهم أن الفرنج أرادوا أن يبيتوهم، فخرجوا من الساحل فأحاطوا بهم فقاتلوهم إلى الليل، فهبت ريح شديدة ومطر، فأفرجت لهم، فساروا كما هم إلى أن مروا على بعض سواحل البلد،

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٢٠٥ - ١٢٠٦.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤، إبراهيم حسن، البحريبة، ص ٢٧.

(٣) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، إناء الفمر، ج٩، ص ١٢٧.

(٥) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٣.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٢١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٢١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤.

فرأوا في طرفاها معصراً قصب سكر، فنزلوا عليها فنهبوا ما فيها وأسروا من وجده من المزارعين وغيرهم، ورضوا بهذه الغنيمة التافهة، ونجوا بأنفسهم بعد أن قتل منهم نحو الأربعين وجرح جماعة، ولم يظفروا بما خرجوا بسببه - ولله الإرادة يفعل ما يشاء وينصر من يشاء»<sup>(١)</sup>.

الحملة الثانية: سنة ١٤٤٣هـ / ١٨٤٢

لم يضعف فشل الحملة الأولى من عزم السلطان الظاهر حقائق على مواصلة سعيه للاستيلاء على الجزيرة، فشرع يستعد لإرسال حملة أخرى، ولكنه هذه المرة قام بإرسال قوة بحرية استطلاعية إلى رودس مؤلفة من خمس سفن لكشف أخبار الجزيرة ومعرفة مدى استعداد أهلها في أعقاب الحملة الأولى<sup>(٢)</sup>، كما شدد الحراسة في الموانئ المصرية لمنع الفرنج من تسقط الأخبار كما حصل في المرة الأولى، وقد نجح هذا الاحتراز عندما ألقى القبض على جماعة من الفرنج في ناحية رشيد قدموا لتسقط الأخبار، فحملوا إلى القاهرة<sup>(٣)</sup>.

أما إسبتارية رودس فكانوا قد شنوا غارة بحرية على ساحل بيروت في أعقاب الحملة الأولى، بقوة بحرية قوامها عشر سفن، وأخذوا من هناك مركباً مشحوناً بالبضائع وياعوا من أسره من المسلمين أربعين رجلاً، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد<sup>(٤)</sup>. وكانت هذه الإغارة قد قوت عزم السلطان جمق على الإسراع بتجهيز حملته الثانية، وعندما أدرك إسبتارية رودس خطورة الموقف أسرعوا بانفاذ وقد إلى السلطان في أواخر سنة ١٤٤٣هـ / ١٨٤٦م «لطلب الماهنة ومعهم تقدمة وأسرى من المسلمين»، غير أن السلطان الذي خبر مكرهم وخبيثهم خشي من أن يكون ذلك مجرد مخادعة لكي يبطل غزو الجزيرة، فيعودون بعد فترة إلى شن الإغارات من جديد على السواحل الإسلامية، فأمر بحبس وفهم، وفي ذلك يقول السحاوي: لأنه «فهم منهم المخادعة

(١) ابن حجر العسقلاني، آنفه، الفهر، ج٩، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) السحاوي، التبر المسيrok في ذيل السلوك، ص ٤٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، آنفه، الفهر، ج٩، ص ١٥٦.

(٤) المقرني، السلوك، ج٢، ص ١٢٢٧.

لكونهم أحسوا بالتجهيز إليهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تم إعداد سفن الأسطول الإسلامي في موانئ مصر والشام، اتفق قادة الحملة على أن يتم اجتماع العسكريين الشامي والمصري، في ساحل قبرص بين الملاحة (الارنكا) واللمسون (اليماسول) للتزود بالمؤن ثم مهاجمة رودس من هناك، فأبحرت السفن المصرية في شهر ربيع الآخر سنة ١٤٤٢هـ/آب ١٨٦٧م من مينا دمياط بقيادة الأمير اينال الأجرود والأمير ترباي، وزع السلطان جمق الصالحيات العسكرية بينهما بحيث يكون الأمير اينال «باش العسكر المتحد في أمره والنظر فيه برأ وبحراً» ويكون الأمير ترباي «أمير البحر»<sup>(٢)</sup>.

وفي أثناء ابحار السفن المصرية هبت عليها ريح عاصفة فرقت شملها فاتجه بعضها إلى بيروت واتجه البعض الآخر إلى طرابلس، وكان العسكر الشامي قد أبحر في وقت سابق إلى قبرص في خمسة عشر مركب، ثم تجمعت سفن الحملة بأكملها بين الملاحة وليماسول حسب الخطة الموضوعة في أوائل جمادى الأولى/أيلول، وبلغت عدتها ثمانين سفينة «ما بين أغيرة وحملات ومربيات وزوارق وسلامير سوى ما يتبعها من القوارب»،<sup>(٣)</sup> أما عدد القوات فوصل إلى ألف وخمسمائة مقاتل من الماليك السلطانية فضلاً عن «جمع كثير من المطوعة المستعددين بالأسلحة والعدد الكاملة».

ثم أبحرت الحملة بعد أن مكثت في قبرص بعض الوقت إلى العلايا على ساحل آسيا الصغرى، واتجهت بعد ذلك إلى «أنطاليا فاغو»، ثم أبحرت صوب رودس ووصلت إلى جزيرة صغيرة فرست هناك، وعلى الفور حاصرت القوات الإسلامية حصن الجزيرة المعروف بحصن «تشيل الروج» «وهو حصن منيع على جبل رفيع في طرفها»<sup>(٤)</sup> وبعد قتال عنيف مع الصليبيين الذين كانوا يتحصنون به تمكن المسلمين من إحداث ثغرة في سوره، مما دفع الصليبيين إلى طلب الأمان، مقابل عدم تعرضهم للقتل فتم الاتفاق على ذلك، «وبادر المسلمون إلى الحصن فصعدوا إليه وعلوا عليه ونكست

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) م.ن، ص ٦٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٩، ص ٢٠١.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٣.

تلك الأعلام، وانتصبت رايات الإسلام وكسرت الصليبان وعلت كلمة الإيمان وزعم هناك الزمر السلطاني وحمدوا الله لحمد الأمر الشيطاني، وكان يوماً على المسلمين مطيراً وعلى الكافرين عبوساً قمطرياً، وساوت جدران الحصن الأرض... وتقسم أمراً السرية الأبراج فهدمت» وكان ذلك في ١٧ جمادى الآخر ١٢٦٣ شرین أول من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من هذا الانتصار الأولي الذي حققه المسلمين، إلا أنهم لم يواصلوا حملتهم على رودس بسبب شدة هطول الأمطار، فأتفق رأي الأمراء، على أن يمضوا فصل الشتاء في بلدة من بلاد الروم يقال لها «مكري»، ثم ما لبثوا أن غيروا رأيهم بالعودة إلى مصر، بسبب اشتداد الريح العاصفة، وفي أثناء عودتهم هبت الريح ففي وجه سفنهم ففرقت شملها، فمنها ما وصل إلى دمياط ومنها ما وصل إلى الإسكندرية ومنها ما وصل إلى ساحل رشيد، ولم يجتمع شمل الحملة إلا على ساحل بولاق في ١١ شعبان ١٢٦٤ كانون أول من السنة ذاتها<sup>(٢)</sup> وقد علق السحاوي على نتائج هذه الحملة بقوله: «وبالجملة فلم يبلغوا ما كان المسير لأجله لكن على كل حال هي أحسن من السفرة الأولى ولذلك كانت الغزوة الثالثة»<sup>(٣)</sup>.

#### الحملة الثالثة: سنة ١٢٦٤هـ / ١٤٤٤م.

لم يفت فشل الحملة الثانية في عرض السلطان الظاهر جقمق، ولم يؤثر في عزيمته على مواصلة جهوده للاستيلاء على جزيرة رودس، إذ كان يطمح إلى تجديد عهد السلطان برسبياي الذي أخضع جزيرة قبرص بعد حملات متتالية، ولذلك شرع في إعداد حملة بحرية جديدة، وبعد أن اكتملت تجهيزاتها عهد بقيادتها للأميرين اينال الأجرود وترباي، وأناط بهما المهمات والصلاحيات كما في الحملة السابقة، إلا أنه أضاف إليها قائداً جديداً وهو الأمير يلخجا الناصري، وأناط به مهمة محددة إذ «رسم له يكون في البحر وقت الحصار لحفظ المراكب»، وقد شارك في هذه الحملة أكثر من ألف وخمسمائة

(١) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٦٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٩، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

Lane-Poole, op. cit. P339

(٢) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٦٤ - ٦٥، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر ج ٩، ص ٢١٠ - ٢١٣ .

(٣) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٦٥ .

من الماليك السلطانية، «سوى من سافر معهم من المطوعة الفقهاء والقراء وغيرهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن استعرض السلطان الظاهر جقمق وحدات الحملة، أقلعت من بولاق في ٢٢ محرم ١٤٤٤هـ / ٣ تموز ١٩٢٨م إلى الإسكندرية، فدمياط، قم أبحرت صوب طرابلس حيث انضمت إليها بعض القوات الشامية، ومن هناك أبحرت باتجاه رودس<sup>(٢)</sup>، وفور الوصول إلى برجها نزل المسلمون بالقرب من عاصمتها رودس: «فوجدوا أهلها خزام الله قد حصنوا أبراجهم بالآلات والسلاح والمقاللة بحيث صارت في غاية من الحصانة، فأخذ المسلمون في حصار أسوارها ونصبوا المجانين والمكاحل على أبراجها وصار القتال بين الفريقين أيامًا، وقتل من كليهما بالرمي جماعة كثيرين» وفي الوقت ذاته قامت قوة إسلامية بهاجمة القرى والبساتين والضياع المحيطة بالعاصمة فسبوا ونهبوا وأحرقوا، وأقامت قوة عسكرية إسلامية في كنيسة تجاه مدينة رودس لحفظ الطريق، غير أن قوات كبيرة من الصليبيين طرقتهم على حين غفلة، فاستشهد من المسلمين ما يزيد على عشرين مقاتلاً فيما نجا من تبقى منها والتحق بالسفن<sup>(٣)</sup>.

وحاول الإسبتارية بعد أن وصلتهم النجدات البحرية من غرب أوروبا مهاجمة السفن الإسلامية في البحر على حين غرة ظناً منهم بعدم وجود من يحفظها، إلا أن الأمير يلخجا الناصري المكلف بحماية السفن تصدى لهم بن معه من القوات واستطاع دحرهم بعد معركة بحرية عنيفة بالرغم من خسارته لثلاث سفن<sup>(٤)</sup>.

ومع اشتداد مقاومة الإسبتارية لحصار القوات الإسلامية، ولما لاقاه المسلمون من الضيق بسبب كثرة ما أصيب منهم، فقد أرسل قادة الحملة إلى السلطان جقمق يطلبون منه المدد، فأمدتهم بقوة قوامها خمسمائة مملوك على رأسهم ثلاثة من الأمراء الصغار، وكان أن خاض المسلمون آخر معركة كبرى مع الإسبتارية على أمل تحقيق نصر حاسم، غير أن النتيجة كانت على المسلمين فقد خسروا ثلاثة مقاتل وجروح خمسمائة، هذا

(١) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) محمد مصطفى زياد، المحاولات الحربية، ص ٢٠١ - ٢٠٢، إبراهيم حسن، البحري، ص ٢٧٢  
Atiya. op. cit, P475

(٣) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٨٨.

(٤) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٨٨، محمد مصطفى زياد، المحاولات الحربية، ص ٢٠١.

فضلاً عن فرّ من المالك إلى الكفار ارتداداً، بعد اليأس الذي لا قوة لضعف إيمانهم ولفقدان حسّ الجهاد ومعنى الاستشهاد عندهم.<sup>(١)</sup>

أمام ذلك كله اتفق قادة المحلة على فك الحصار عن العاصمة وإيشار السلامة بالعودة إلى مصر، فعادوا أرسلاً، وكان آخر من وصل كبيرهم الأمير اينال<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن هذه الحملة قد أثرت في نفسية المالك لدرجة أن السلطان جقمق لم يحاول بعدها إرسال حملة أخرى، وقد علق السحاوي على ذلك بقوله: «وبالجملة فلم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطويل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، والله عاقبة الأمور»<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من توقف الحملات الإسلامية المملوكية على جزيرة رودس إلا أن الصليبيين وعلى رأسهم البابا، تخوفوا من معاودة الهجمات الإسلامية، فأرسل البابا إلى فرسان الإسبتارية يحثّهم على ايجاد حل مع المالك يكون مقبولاً للطرفين، فاختار الإسبتارية وسيطاً على صلة بالسلطان جقمق وهو التاجر الفرنسي «جاك كير» فقام بهمة الوساطة بينهما، وأرسل مبعوثاً من قبله إلى السلطان ويصحبه مسؤول إسبتاري، وبعد مفاوضات مع السلطان تم الاتفاق على عقد صلح مع الإسبتارية، تعهدوا فيه بعدم الاعتداء على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها<sup>(٤)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك الصلح إلا أن العلاقات ظلت تتراوح بين الهدوء حيناً والعدا، أحياناً أخرى بقية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ولم يحجم الإسبتارية في كثير من الأحيان عن الإغارة على سفن المسلمين، ولما كانت الدولة المملوكية لا تقوى على القيام بعمل حربي كبير ضدهم بسبب ما أصابها من إعياء اقتصادي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه، فضلاً عن الخطر العثماني الذي أخذ يهدد حدودها الشمالية، فقد كانت تكتفي بالقاء القبض على التجار الأوروبيين وبعض رجال الدين -النصارى- مثلما حدث ذلك سنة ٩١٣هـ / ١٥١٠.

(١) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٨٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، آنبا، الغر، ج ٩، ص ٢٢٤.

(٣) السحاوي، التبر المسبوك، ص ٨٩.

(٤) محمد مصطفى زيادة، المحاولات البحرية، ص ٢٠٢، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المالك، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

فقد رد السلطان قونصوه الغوري على اعتداء الإسبتارية في تلك السنة بالقاء القبض على جميع رجال الدين في القدس والأوروبيين في الإسكندرية ودمياط، وأغلق كنيسة القيامة في السنة التالية، ولم يلبث ميزان القوى أن تغير في حوض المتوسط عندما تكنت الدولة العثمانية من اسقاط الدولة المملوكية في مصر وبلاط الشام سنة ١٥١٧ هـ / ٩٢٣ م وما أن أتت سنة ١٥٢٢ هـ / ٩٢٨ م إلا وكانت الدولة العثمانية تستولي على رودس فأضحت دار إسلام بعد أن كانت قاعدة حربية كبيرة للإسبتارية.<sup>(١)</sup>

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج. ٢، ص ١٢٣٦ طرخان، مصر في عهد دولة المالiks المراكسة، ص ١١٤ - ١١٥.

## الفصل الرابع

### اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية ورد المغاربة

تميز القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري، بتطورات كبيرة أدت إلى قلب موازين القوى في قلب العالم القديم (آسيا وإفريقيا وأوروبا) فقد تمكن الأوروبيون من التوصل إلى نتائج هامة في مجال الكشف الجغرافي وفي تاريخ العالم، وقد جاءت هذه الكشوف مدفوعة بدوافع عديدة كان أهمها دافعين اثنين.

أولهما دافع ديني صليبي، إذ سعت أوروبا وعلى رأسها البابوية إلى تطبيق العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، وذلك بعد النجاح الكبير الذي أحرزته الدولة المملوكية في تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي، ونقل المعركة إلى مداخل أوروبا في حوض البحر المتوسط عندما سيطرت على جزيرة قبرص، وحاوت ذلك مع جزيرة رودس، كل ذلك في تعينة جهادية إسلامية رائدة، كان المسلمين قد تاقوا إليها كرد فعل للعدوان الصليبي، وإحياء لفريضة الجهاد.

ويضاف إلى ذلك تلك الفتوحات الإسلامية الكبيرة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان -في قلب أوروبا- ثم التربع على عرش الإمبراطورية البيزنطية التي طوى صفحتها السلطان العثماني محمد الفاتح- وانعم به من فاتح- بفتحه القدسية، عاصمة البيزنطيين سنة ١٤٥٣هـ/١٤٥٣م.

وكانت نتيجة ذلك أن حظيت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من قبل البابوات، أملاً في تحقيق سعيهم إلى تطريق العالم الإسلامي وتحطيمه، فأصدر بعضهم عدة مراسيم تحول ملوك إسبانيا والبرتغال -رواد الكشوف الأولى- الحق في ملكية كل إقليم جديد، وتورط بعضهم في هذه المراسيم، فوصفوا الإسلام بأنه طاعون، وطالعوا ببذل الجهد لتنصير سكان المناطق التي كشفت أو سوف تكتشف، والخلولة بينهم وبين دخولهم الإسلام، كما أن البابوات أخذوا يعدون المشتركين في الرحلات الكشفية بالغفران عند الحساب في اليوم الآخر.

وأرسل البابا نيكولا الخامس سنة ١٤٥٤ م مرسوماً إلى الملك هنري ملك

البرتغال، اشتغل على ما أطلق عليه اسم «خطة الهند» وهي تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية على الإسلام وأهله للقضاء عليه.

أما الدافع الثاني، فكان دافعا اقتصاديا، وقد جاء منشقا من الدافع الأول وخداما له، إذ سعى الغرب الأوروبي إلى ايجاد طريق تجاري لا يمر عبر أراضي الدولة المملوكية ومياهاها، كي يكون مقدمة لإنهاكها اقتصاديا.<sup>(١)</sup>

وقد ساعدت سياسة الاحتكار التجاري التي اتبعها بعض سلاطين الدولة المملوكية على تدعيم ذلك الاتجاه، وإن اختلفت أسباب هذه السياسة، فمن السلاطين من سعى للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالدولة نتيجة لاختلال نظامها الاقتصادي، ومنهم من سعى للحصول على المال من أيسر الطرق، مدفوعا بداعي الجشع والطمع، فاتخذ من سياسة الاحتكار وسيلة لذلك.

ويلغت سياسة الاحتكار هذه أشدتها على عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي، وسک الدينار الأشرفی ليكون أساسا للتعامل مع التجار الأوروبيين. مما أثار أولئك التجار وجعلهم يجدون في البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على حاصلات الشرق من التوابيل والبخور وغيرها مباشرة.<sup>(٢)</sup> دون وسيط تجاري وهو الدور الذي كانت تقوم به الدولة المملوكية بحكم موقعها الجغرافي المتحكم بطريق المحيط الهندي - البحر الأحمر - بربخ السويس - البحر المتوسط.

على أنه يجب ألا يفهم بأن الكشف الجغرافية التي قامت بها أوروبا قد انحرفت في هذا الدافع أو ذاك، وإنما جاءت هذه الكشف بطبعتها نتيجة عملية للنهضة العلمية الأوروبية.

وقد تزعمت البرتغال الجهود الأولى لحركة الكشف الجغرافية، بهدف التجارة والاستعمار أولاً، وللتزعة الصليبية التي كانت تسيطر على روح أميرها هنري الملائج ثانياً، ويظهر هذا الأمر الأخير من خلال المرسوم الذي بعث به إليه البابا نقولا الخامس سنة ١٤٥٤م وجاء فيه أن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه جون بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضى على أعداء

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، حسن ابراهيم، البحريه، ص ١٨٠ - ١٨١ .

الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرا مع سخافة هذا القول طبعاً الذي ينم عن مدى الحقد الدفين ضد الإسلام وأهله، ثم أنها السياسة الأسهل لتحقيق الهدف.

وكانت المخطوات الأولى للكشوفات الجغرافية قد بدأت في عهد الأمير هنري الملائج، فقد وصل البرتغاليون إلى ماديرا ثم جزر الازورا ثم مصب نهر السنغال والرأس الأخضر وذلك حتى سنة ١٤٤٦هـ/١٤٨٥م، ثم واصل البرتغالي بارثلميو دياننهج الأمير هنري، فوصل إلى طرف إفريقيا الجنوبي واجتاز رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦هـ/١٤٩١م. ثم تبعه فاسكودي جاما الذي وصل سنة ١٤٩٠م إلى موانيء شرق إفريقيا وكان منها موزمبيق وبمسة ومالييندي، وكانت هذه التغور غاصة بالتجار العرب، ومن ثغر مالييندي اتجه إلى الهند بمساعدة الملائج العربي «أحمد ابن ماجد» فوصل إلى كاليكوت (فالاقوط) على الساحل الغربي للهند المسمى ساحل مليبار.

وبذلك تحقق أمل الغرب الأوروبي والبابوية في كشف طريق جديد لا يمر عبر أراضي و المياه الدولة المملوكيّة، ومن ثم بدأت البرتغال في إقامة مراكز تجارية مسلحة لها في إفريقيا الشرقية وفي الساحل الغربي للهند، وفي جزر المحيط الهندي والمحيط العربي، وعملت على بسط سيطرتها العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتعاء احتكار تجارة الشرق ونقلها إلى أوروبا عبر الطريق الجديد -المحيط الأطلسي- رأس الرجاء الصالح -الهند-. وبذلك استطاعت البرتغال تحويل التجارة عن البحر الأحمر الذي تسيطر عليه الدولة المملوكيّة، فغدت بذلك الوسيط التجاري الجديد بين الشرق والغرب بدلاً من الدولة المملوكيّة.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنك وفي مذته (السلطان قونصوه الغوري) كان أهل البرتغال اكتشفوا طريق الهند من جهة رأس عشم الخير (رأس الرجاء الصالح)، واستولوا على عدة ثغور بحرية، وقطعوا تجارة الهند عن مصر.<sup>(٢)</sup>

وقد أدى ذلك إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التي كانت تحصل عليها من بضائع الشرق الأقصى المتوجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصريّة إلى أوروبا.<sup>(٣)</sup> فغدت الدولة المملوكيّة منهكة من الناحية الاقتصاديّة بسبب هذا الأمر، وكان

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا، ص ٦٣ - ٦٥.

(٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ص ١٨٨.

(٣) العبادي، تاريخ البحارة الإسلامية، ص ٢٦٦، إبراهيم حسن، البحارة، ص ١٨٨.

ذلك بداية نهايتها، إلا أنها لم تستسلم بسهولة، بل قاومت ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ولم يكتف البرتغاليون بما حققوه من الانتصارات، بل عملوا على الاستحواذ على مراكز المسلمين في الشاطئين الإفريقي والعربي وفي مضيق هرمز وعدن، كي يتمكنوا من مهاجمة الملاحة الإسلامية في جميع وجوه نشاطها.<sup>(١)</sup>

وأخذوا في مهاجمة السفن الهندية المحملة بالبهار والتوابل والمتوجهة إلى مينا، جدة، كما هددوا بغزو بلاد الحجاز وتخربيها بقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق الأقصى بالقوة إلى أسواق عاصمتهم لشبونة.<sup>(٢)</sup>

وحاول السلطان المملوكي قونصوه الغوري منعهم من تنفيذ مآربهم وذلك باللجوء إلى الوسائل السلمية تارة وإلى التهديد تارة أخرى، ذلك أنه أرسل إلى ملوك أوروبا يحدّرهم بأنه سيقوم مكرها بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجارةً ورهباناً، ويبلغ كنيسة القيامة في القدس فيما إذا استمر البرتغاليون في موقفهم العدوانى في مياه المحيط الهندي، غير أن هذه التهديدات لم تجد نفعاً لدى الدول الأوروبية، وقادى البرتغاليون في طغيانهم.<sup>(٣)</sup>

وبلغ خطورهم مداه عندما دخلوا بأساطيلهم إلى مياه البحر الأحمر، أزاء ذلك وخوفاً على طريق مكة المكرمة فقد شيد السلطان الغوري قلعة في جدة - لأنها فرضة الكعبة المشرفة - وشحنتها بالعدد والعساكر، ولم تمض أيام من إتمامها حتى وصلت أساطيل البرتغال أمام جدة واطلقت عليهما المدفع، فقابلتها حامية القلعة بالمثل، فخاف البرتغاليون سوء المنقلب، فاقلعوا بسفنهم عنها.<sup>(٤)</sup>

ونتيجة لهذه الغارة رأى السلطان الغوري ضرورة إنشاء أسطول يكون قادرًا على ردع الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فشرع بإنشاء سفن حربية في مياه السويس وذلك سنة ٩١١ / ١٥٠٥ م<sup>(٥)</sup> كما قام في الوقت ذاته بالاتصال

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا، ص ٦٥.

(٢) إبراهيم حسن، البحريّة، ص ١٨٢، العبادي تاريخ البحريّة ص ٢٦٦.

(٣) إبراهيم حسن، البحريّة، ص ١٨٢.

(٤) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) م،ن،، ص ١٨٩، إبراهيم حسن، البحريّة، ص ١٨٣.

بالبنديقية وبالسامري ملك كاليكوت، للوقوف معاً ضد البرتغال.

وكانت البنديقية توأمة إلى التعاون مع الماليك، غير أنها حرصت في بداية الأمر على عدم التورط في القيام علانية بالمساعدة، ولكنها أبدت بعض الوسائل التي يستطيع السلطان الاعتماد عليها في بناء الأسطول دون أن يؤدي ذلك إلى إظهارها أمام الدول الأوروبية بعزم الدولة التي تساعد دولة الماليك علانية.<sup>(١)</sup>

غير أن التضرر الشديد الذي لحق بالبنديقية جعلها تغير من موقفها فقد اشتركت بأساطولها مع الأسطول المملوكي في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر، وأقامت عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل المياه العذبة إلى حوض عملته هناك على ساحل البحر الأحمر - لتنتفع به سفنها، وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنوك: «وذكر... أن مراكب البنادقة اشتركت مع الأسطول المصري المذكور في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر لإعادة التجارة الشرقية إلى طريقها الأصلي لأن انتقالها إلى طريق عشم الخير (رأس الرجاء الصالح) أضر بالبنادقة جداً لما كانوا ينالونه من فائدة نقلها على سفنهم في البحر الأحمر ونقلها ثانية من ثغور مصر الشمالية إلى أوروبا... وفعل البندقانيون عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل مائها إلى حوض عملوه على ساحل البحر الأحمر لتنتفع به مراكبهم».<sup>(٢)</sup>

وما أن أقتت دولة الماليك صناعة السفن في مينا السويس حتى أمر السلطان الغوري بإنزالها إلى البحر الأحمر وشحنها بالمقاتلين، وأسند رئاسة الأسطول (مسؤولية الإشراف على السفن) إلى أحد رؤساء البحر ويدعى سلمان، فيما أسند قيادة المقاتلين على سفن الأسطول إلى الأمير حسين الكردي، وكان قوام الأسطول ثلاث عشرة سفينة.<sup>(٣)</sup>

واتجه الأسطول المملوكي لطرد الأسطول البرتغالي عن طريق الهند، وكان هذا قد تراجع إلى سواحل الهند عندما علم بوجود الأسطول المملوكي في جدة. وسار الأسطول المملوكي في أثره وهناك انضمت إليه سفن ملك إيس حاكم الجزيرة، ثم التقى بالأسطول البرتغالي في بندر شول ١٥٩١ھـ وانتهت المعركة البحرية بهزيمة الأسطول

(١) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢

(٢) اسماعيل سرهنوك، حقائق الأخبار، ص ١٨٩

(٣) المعيري، تحفة المجاهدين، ص ١٠٧ .

البرتغالي ومقتل قائد «لورنزو دي الميدا» وأسر إحدى سفنه، فيما فرت بقية السفن<sup>(١)</sup> وبهذا النصر سيطر الأسطول المملوكي على الموقف العسكري في المحيط الهندي وأرسل السامري ملك كاليكوت أربعين سفينه إلى الأمير حسين الكردي لتكون في خدمته وفي ذلك قال ابن إياس: «ورجع الأمير حسين تحقق على هامته وعلى سواري أسطوله المصري رايات الظفر وأعلام النصر، فاقام بميناء ديو عدة شهور حتى انقضى فصل الأمطار وأرسل إليه السامري أربعين غرابة لتكون في خدمته».<sup>(٢)</sup>

غير أن الأسطول البرتغالي ما لبث في السنة التالية ١٥٠٩هـ/١٩١٥م أن داهم الأسطول المملوكي في خليج ديو بعد الإمدادات التي وصلته مما كان من الأمير حسين الكردي إلا أن قام بإخراج السفن التي كانت معه من غير استعداد. وخرج معه الهند بسفنه بلا استعداد أيضاً، وانتهت المعركة التي دارت بينهما في خليج ديو إلى تدمير معظم قطع الأسطول المملوكي بشكل خاص، إذ أن البرتغاليين كانوا يهدفون إلى الإنقاذ منه بسبب مقتل ابن قائد أسطولهم «لورنزو دي الميدا» ابن نائب ملك البرتغال بالهند، وبهذه الهزيمة اضطر الأمير حسين الكردي إلى الانسحاب بما سلم معه من السفن إلى جدة.<sup>(٣)</sup>

وكانت نتيجة هذه المعركة البحرية أن أعاد البرتغاليون سيطرتهم على المحيط الهندي من جديد وبخاصة بعد أن وصلت أعداد سفنهما إلى حوالي خمسين سفينة<sup>(٤)</sup> وبهذه السيطرة عاث البرتغاليون فساداً في سواحل الهند والمحيط الهندي، مما جعل ملوك الهند يوفدون إلى السلطان الغوري يستنجدون به لدفع الضرر عنهم<sup>(٥)</sup> غير أن السلطان لم يستطع فعل أي شيء بعد تدمير معظم قطع أسطوله، واستطاع الأسطول البرتغالي في غياب القوة البحرية المملوكية الاستيلاء على جزيرة سوقطراء الواقعة أمام

(١) المعيري، تحفة المجاهدين، ص ٨٣، اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩.

(٢) ابن إياس بداع الزهور ج٤، ص ١٤٢، احمد دراج، الماليك والفرنج، ص ١٣٧.

(٣) م.س، ج٤، ص ١٨٢ - ١٨٥، احمد دراج، الماليك والفرنج، ص ١٣٧.

(٤) ابن إياس، بداع الزهور، ج٤، ص ١٨٥.

(٥) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٤.

مدخل البحر الأحمر، فاحكم البرتغاليون بذلك سيطرتهم على طريق مصر-الهند<sup>(١)</sup> وقد مكنتهم ذلك من إرسال أسطول مؤلف من ست عشرة سفينة إلى مياه البحر الأحمر بقيادة «الفونسو البوكيريك» سنة ١٥١٢ هـ ٩١٩ م، فبدأ بحصار عدن وحاول الاستيلاء عليها، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه بسبب صمود أهل المدينة واستبسالهم في الدفاع عنها، فاتجه البوكيريك بأسطوله إلى اليمن وحاول الاستيلاء على بعض موانئها، فلم ينجع إلا بالاستيلاء على جزيرة قرمان لبعض الوقت ثم انسحب عنها بعد ثلاثة أشهر من احتلالها وعاد إلى الهند.<sup>(٢)</sup>

وأمام استمرار خطر البرتغاليين عمل السلطان الغوري على إعادة بناء الأسطول للوقوف في وجههم، وعلى الرغم من انشغاله بمواجهة غارات فرسان الإسبتارية في حوض البحر المتوسط إلا أنه تمكن من تجهيز أسطول مكون من اثننتين وعشرين سفينة أنفق عليه من ماله الخاص أكثر من أربعين ألف دينار، وحضر بنفسه إنزال السفن إلى مياه السويس<sup>(٣)</sup> وقد ضم إليه عسكراً من الترك والمغاربة، وأربعة الآف مقاتل من أجناد المالك وجعل قياداته للأمير حسين الكردي.<sup>(٤)</sup>

وعندما أخذ الأسطول المملوكي يخرب عباب البحر الأحمر انسحب الأسطول البرتغالي واتجه إلى الهند فاستغل حسين الكردي ابتعاد الأسطول البرتغالي فاستولى على صنعاء وزبيد تحت الدولة العاميرية وضمها إلى الأموال المصرية، وقبل أن يتحرك بالأسطول للاحقة الأسطول البرتغالي أقام حامية في اليمن جعل على رأسها الأمير بربسي<sup>(٥)</sup> ولم يقو الكردي على منازلة الأسطول البرتغالي عندئذ أرسل بطلب النجدة، وكان السلطان الغوري قد وصلته نجدة بحرية أرسلها له السلطان العثماني بايزيد بقيادة سليمان الرومي ليتقوى بها ضد البرتغاليين فأرسلها من فوره إلى الأمير حسين

(١) إبراهيم حسن، البحريّة، ص ١٨٤ .

(٢) ابن اياس، بداع الزهور ج٤ ص ١٨٥-١٨٢ .

(٣) م.ن، ج٤، ص ٣٦٥ المعيري، تحفة المجاهدين . ص ٤١ .

(٤) إبراهيم حسن، البحريّة، ص ١٨٥ .

(٥) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩ .

الكردي.<sup>(١)</sup>

والواقع أن هذه النجدة العثمانية تظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذي كان يتم بين دولتي الماليك والعثمانيين للوقوف معاً في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وعلى الرغم من هذه النجدة إلا أن الأمير حسين الكردي لم يتمكن من إحراز نصر حاسم ضد البرتغاليين، وذلك بسبب القواعد القوية التي أنشأها البرتغاليون على الشاطيء الهندي<sup>(٢)</sup> على أنه لجح في إبعاد خطرهم عن البحر الأحمر، وعندما توجه الأسطول المملوكي إلى عدن سنة ١٥١٦هـ/٩٢٢م التحزم مع بعض قطع الأسطول البرتغالي وألحق به الهزيمة<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من الإعياء الشديد الذي أصاب دولة الماليك إلا أنها ظلت أمينة في الدفاع عن حمى الإسلام، وظلت كذلك حتى انهارت على يد العثمانيين الذين تمكناوا من الاستيلاء على بلاد الشام ثم مصر بين سنتي ٩٢٣-٩٢٢هـ/١٥١٧-١٥١٦م، وقد انبرى العثمانيون لمواجهة البرتغاليين في مياه البحر الأحمر، وتمكنوا من دحرهم، وانتهى الموقف بأن دان البحر الأحمر للعثمانيين فيما دان المحيط الهندي للبرتغاليين.<sup>(٤)</sup>

---

(١) المعيري، تحفة المجاهدين ص ٤٥ .

(٢) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٥ .

(٣) المعيري، تحفة المجاهدين، ص ٤٢ - ٤٦ ، ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٦ .

(٤) المعيري، تحفة المجاهدين، ص ٨٤ - ٨٥ ، ابن ابياس، بدائع الزهور، جه ، ص ١٩٠ ، العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٦٨ ، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٣٣ .

## الخاتمة

مع الانتهاء من هذه الدراسة، لا بد من وقفة نستعرض فيها مجلل النتائج التي أوصلتنا إليها، فقد أوضحت أن دولة المماليك التي قامت في مصر وبلاط الشام قد انقسمت إلى قسمين:

دولة المماليك البحرية: وحكمت بين سنتي ٦٤٨ - ١٢٥٠ / ٧٨٤ - ١٣٨٢ م وكان سلاطينها من الأتراك وأشهرهم - فيما يتعلّق بموضوع هذه الدراسة - الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون.

دولة المماليك البرجية: وحلت محل دولة المماليك البحرية، وحكمت بين سنتي ٧٨٤ - ٩٢٣ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م، وكان سلاطينها من الشركس، وأشهرهم: الأشرف برسباي، الظاهر جقمق، قونصوه الغوري، وانتهت بقضاء العثمانيين عليها.

وأوضحت الدراسة أن مسيرة المجهاد الإسلامي التي قادها المماليك ضد الصليبيين انقسمت إلى ثلاث مراحل:

المراحل الأولى: وهي مرحلة تحرير بلاد الشام وتطهيرها تطهيراً شاملًا، وقد استغرقت الفترة الواقعة بين سنتي ٦٥٩ - ١٢٦١ / ١٢٩١ - ١٣٨٢ م، وقادها ثلاثة من السلاطين على التوالي وهم: السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

وبيّنت الدراسة أن كلاً من السلطان الظاهر والسلطان المنصور قد عقدا عدة مهادنات مع الصليبيين أثناً، هذه المرحلة، وكانت هذه المهادنات خطأً تكتيكياً حررياً دافعه تفتیت القوى الصليبية لمواجهتها بشكل انفرادي، وقد أتت هذه السياسة البارعة أكلها.

المراحل الثانية: وهي سرحة الدفاع والوقوف في وجه تجدد المخوب الصليبية، والتي تجلّت في محاولات أوروبا والبابوية القيام بحملات صليبية جديدة على الشرق الأدنى الإسلامي لاعادة احتلال بيت المقدس وما فقدته في بلاد الشام، وكانت أكثر هذه المحاولات موجهة صوب مصر لإسقاطها والعبور من بوابتها إلى

بيت المقدس، وكان أخطرها ما قام به الملك القبرصي بطرس لوزجنان من هجوم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥هـ / ١٧٦٧م، غير أن كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة نقل المعركة إلى جزر البحر المتوسط التي كانت تنطلق منها الحملات الصليبية نحو مصر وبلاد الشام، وأول هذه الجزر هي جزيرة قبرص، وقد شن السلطان الأشرف برسباي ثلاث حملات متتالية عليها إلى أن تكن من إخضاعها للسيادة المملوكية.

وكان رودس هي الجزيرة الثانية، فبعد أن اتخذوا الصليبيون الإستمارية قاعدة عسكرية لهم لشن الهجمات على السواحل الإسلامية على أثر إخضاع قبرص للسيادة المملوكية، وجه إليها السلطان الظاهر جقمق ثلاث حملات متتالية في محاولة للسيطرة عليها، إلا أن ذلك لم يتحقق له.

وعلى الرغم من هذا الفشل إلا أن المماليك قزموا الصليبيين في رودس، وحدوا من هجماتهم على سواحل مصر وبلاد الشام.

وبيّنت الدراسة أن أوروبا وعلى رأسها البابوية قد سعت إلى تطويق العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، بعد النجاح الكبير الذي حققه المماليك ضد الصليبيين، وتلك الانتصارات الإسلامية العظيمة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان، وقد تفّحص هذا السعي عن ظهور الاكتشافات الجغرافية والتي آلت إلى وصول البرتغاليين إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، ونقلهم التجارة عبر هذا الطريق بدلاً من طريق البحر الأحمر - بربخ السويس - البحر المتوسط - الذي تسيطر عليه دولة المماليك، وحاول البرتغاليون أيضاً تهديد مداخل الجزيرة العربية والدخول إلى البحر الأحمر وضرب مينا، جدة فرضة الكعبة المشرفة، وقد أدى ذلك إلى حرمان المماليك، من الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من بضائع الشرق الأقصى المتوجهة إلى جدة، أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا، مما أصابها بالإعياء والإنهاك الاقتصادي.

لكل هذه الأسباب بيّنت الدراسة أن دولة المماليك قد أنزلت أساطيلها في البحر الأحمر، فلاحت الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي وانتصرت عليها في معركة شول البحريّة سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، وعلى الرغم من هزيمة الأسطول المملوكية من قبل البرتغاليين في معركة خليج ديو في السنة اللاحقة، إلا أن المماليك ظلوا يحكمون

سيطرتهم على البحر الأحمر ومداخله.

وبيّنت الدراسة أنّ نوعاً من التعاون العسكري قد تم بين المالك والبنديقية ضد البرتغاليين، نظراً لأنّ البنديقية قد تضررت تجاراتها بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، وأظهرت كذلك أنّ العثمانيين قد وقفوا بأساطيلهم إلى جانب المالك في حربهم ضد البرتغاليين مما يظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذي كان يتم بين الدولتين للوقوف معاً في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وخلال الموقف أنّ دولة المالك قد اتبعت استراتيجية في مسيرة الجهاد الإسلامي، ضد الصليبيين قامت على ما يلي:

- مع وجود القوى الصليبية في الساحل الشامي،
- مسار عسكري: حروب عسكرية ونفسية مذهلة.
- مسار سياسي: مفاوضات شاقة ومهادنات تكتيكية شائكة.
- النتيجة: تحرير الساحل الشامي وتطهيره من براثن الاحتلال الصليبي تطهيراً شاملأً ونهائياً.
- مع تجدد الحروب الصليبية ومحاولة الالتفاف على العالم الإسلامي:
- منحى دفاعي: صد الهجمات عن السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر والمحيط الهندي.
- منحى هجومي: نقل المعركة إلى أرض الخصم وموارده.
- النتيجة: السيادة على جزيرة قبرص وتحجيم الصليبيين في جزيرة رودس، وفرض نطاق أمني على السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر وبحر العرب وسواحل الجزيرة العربية ضد الاعتداءات البرتغالية.

## - الملحق -

### نص الهدنة المعقودة

**بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإسبتارية  
في حصن الأكراد وحصن المرقب وعكا سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م**

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالحي النجمي، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الإسبتار الفلاني بعكا والبلاد الساحلية، وبين فلان مقدم حصن الأكراد، وبين فلان مقدم حصن المرقب، وجميع الأخوة الإسبتار لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرين ساعتين، أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثاء من أيام سنة الف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيليب اليوناني - على أن جميع المملكة الحمصية والشيرزية والحموية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه المالك المعروفة، وبلادها الموصوفة، وقرابها وضياعها، وسهلها وجبلها وغامرها ومزروعها ومعطليها، وطرقاتها ومياهها، وقلاعها وحصونها - على ما ينصل في كل مملكة، ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها.

وعلى أن المستقر بملكه حمص المحروسة أن جمّيع الموضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات: عامرا وداثراً وبها فيها من الغلات صيفياً وشترياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن كلاً من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواوب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيره، أو القناة كان عليهم العداد كجاري العادة، ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره

وابتعده، ومن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة، وكذلك مقدم بيت الإسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة.

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرياً لرعي دوابه: سواء أقام أو لم يقم، وكان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص، ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات وكان عليه العداد.

وعلى أن يكون أمر فلاحي بلد المناصفات في المحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان باتفاق مع نائب بيت الإسبتار على أن يحكم فيه شريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصراانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد، وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبيين.

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفات المذكورة من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عدداً ولا حقاً من حقوق بلد المناصفات، إلاً ويكون النصف منه للملك الظاهر، والنصف الآخر لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها، والسكن فيها إذا اختاروا العود، وكذلك بيت الإسبتار لا يمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود .

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحد من العربان والتركمان وغيرهم من يؤدي العداد، من الدخول إلى بلد المناصفات، إلاً أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة، فله المنع من ذلك، وأن تكون خشارات (من الدواب) الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلدة ترعى في بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة، وكذلك خشارات بيت الإسبتار وخشارات عسکرهم وغلمانهم وأهل بلدتهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات، وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها، لا يؤخذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض من الجهاتين.

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، كذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، ويكون لبيت

الإسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش، ويكون القش جمیعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختیارهم، ويكون اللینوفر(نوع من الرياحين) مناصفة، النصف منه للملك الظاهر والنصف لبیت الإسبتار، وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بانشاء بیت الإسبتار ايضا يكون مناصفة. وان يكون متولی أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة الإسبتار، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما. وتقرر أن مهما يجده بیت الإسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بیت الإسبتار.

وأما المستقر بملکة شیزر المحروسة، فهي شیزر، وأبو قبیس وأعماله، وعینتاب وأعمالها، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحمایة بیت الإسبتار وأعمالها، وجميع أعمال الملکة الكسریة والبلاد المذکورة بحدودها المعروفة بها وقرابها المستقرة بها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها.

وما استقر بملکة الملک المنصور ناصر الدین (محمد) / بن الملک المظفر أبي الفتح (محمود) بن الملک المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أیوب، فهي: حماة المحروسة وقلاعها ومدنها، وقرابها وسهلها وجبلها وانهارها، ومنافعها وثمارها وعامرها، وبلاط رقیبة وبلاط بارین بحدودها وتخومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها على أن الملک المنصور لا يرخص للترکمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقیبة وبارین سوى ثلاثة بیتاً يحملون الغلة لقلعة بارین، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الإسبتارية والاتفاق معهم على ذلك.

وعلى أنه أن تعدى أحد من أصحابه بأذية، أو تعدى أحد من الفرنجية في بلاده بأذية كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوماً، فإن انكشف الاختيارة اعيدت. والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست، وكما لهم، كذلك عليهم.

والمستقر بملکة الصابین: نجم الدين وجمال الدين، والأمير صارم الدين نائبی الدعوة المباركة، وولد الصاحب رضی الدين وهي: مصیاف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها ودائرها ومدنها وبلاطها وضياعها وطرقاتها، ومباهها ومنابعها، وجميع بلاط الإسماعيلية بجبلی بهرا واللهکام كل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومها أن يكون الجميع آمنین من على الرصیف الذي بشیزر إلى

نهاية الأرضي بحصون الدعوة ولادها، وحماية القرية المعروفة «بعرطمار» يكون له أسوة الإسماعيلية. وإن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الإسبتار لأذيه، أعلموا بيت الإسبتار قبل أن تجري أذية، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به، وإن لم يحللوا يردوا الأذية التي تجري .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الإسبتار رائحين وغادرين ومنصرفين في بيعهم وشرائهم، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم. وكذلك جميع فلاحي بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الإسبتارية، وإن تعدد أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار، تكون المهلة خمسة عشر يوماً، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم، ومن توجهت عليه اليمين حلف، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية. وتكون الضيعة التي رهنتها عبد المسيح رئيس المربك الإسبتار، وهي المشيرقة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه المهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم، ويحمل الأمر في الحقوق.

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الإسبتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة الف ومائتا دينار قرمصية وخمسون مداً حنطة، وخمسون مداً شعيراً، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الإسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ولا منكر ولا ماض ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه.

وتقرر أن تكون جميع المباحثات من الجهتين مطلقة مما يختص بالملكة الحفصية، يسترزق بها الصعاليك، وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاد المذكورة، وإن نواب بيت الإسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلية في هذه المهدنة. ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلية في هذه المهدنة إلى بلاد الإسبتارية بأذية ولا إغارة. ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلية في هذه المهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الإسبتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة.

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحد من يجب عليه العداد وامتنع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضراً: أما عداد ديوان الملك الظاهر، وأما عداد بيت الإسبتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المتنع عن

العداد أو الخارج من بلد المناسفات رهنا بقدر ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناسفات، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد.

وإن خرج أحد من يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عنأخذ رهنه: فإن دخل بلد من بلاد الملك الظاهر، كان على النواب اتصال بيت الإسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد. وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الإسبتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد. وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وببلاد الدعوة المحروسة.

وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين: الجهة الإسلامية، والجهة الفرنجية والنصرانية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - وعلى النفوس والأموال والدواوب وما يتعلق بهم، يحميهم السلطان ونوابه، ويعاهدون بلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلاد المناسفات - من جميع المسلمين، ويحميهم بيت الإسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناسفات - من الفرنج والنصارى كافة.

وعلى أن يتعدد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، وببلاد معاهدية، وببلاد المناسفات، وخاصة بيت الإسبتار والمناسفات، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمى كل جهة الجهة الأخرى.

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات: الإسلامية، والفرنجية الإسبتارية لا يكون عداؤاً على مالها في المناسفات: من الدواوب والغنم والبقر والجمال وغيرها، على العادة المقررة في ذلك.

وعلى أن اطلاق الرؤساء باتفاق من الجهتين: الإسلامية والفرنجية الإسبتارية، ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً، فإن ظهرت أعيدت إلى صاحبها، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر من يختارهم صاحب الدعوى، على ما يعلمه في تلك الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها، وإن كان قد تعرض عنها أعيد العوض.

وعلى أن يكشفوا عن الأخذة بجهدهم وطاقتهم. ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعى، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء، وكذلك يجري الأمر في القتل: عوض الفارس فارس، وعوض الراجل راجل، وعوض البركيل بركيل وعوض التاجر تاجر، وعوض الفلاح فلاح. وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعى وجوب عليه العوض حتى يرد، وإن رد اليمين على المدعى ومضى على ذلك عشرة أيام ولم يحلف صاحب الدعوة بطلب دعواه وحكمها، وإن حلف أخذ العوض. ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود. وإن هرب عبد وخرج عن دينه، أعيد ثمنه، وإن كان باقياً على دينه أعيد. وعلى أن لا يدخل من القاطنين في بلد المناصفات: من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم، وإلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لاغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وببلاد معاهدية ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لاغارة ولا أذية بعلم بيت الإسبتار ولا رضاهם ولا إذنهم.

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الإسبتار. وعلى أن هذه المهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقص بهوت أحد من الجهتين ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة. وهي: عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرين ساعات، أولها يوم تاريخه.

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتتركون أحداً من التركمان ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الإسبتار أو رضاه، إلا أن يكتفوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله، لثلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد في بلد المناصفات وببلد النصارى. ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الإسبتار في غد نزولهم المكان، أن كان المكان قريباً، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاويبون بيت الإسبتار.

وعلى أن المهدنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات والمحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ المهدن، أو ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت. وعلى أن تخلي أمور المملكة الحمسية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر»

هذا ما وقع الاتفاق والتراسي عليه من الجهتين، وبذلك جرى القلم الشريف  
السلطاني الملكي الظاهري: حجة بمقتضاه، وتأكيداً لما شرح أعلاه. كتب في تاريخ كذا  
وكذا.<sup>(١)</sup>

**نص الهدنة المعقودة  
بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت سنة  
١٢٦٩ هـ / ١٢٦٩ م**

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة  
الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية  
مدة عشر سنين متوالياً، أولها يوم الخميس السادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة  
الموافق لثامن أيام شهر أيلول سنة الف وخمسمائة وثمانين يونانية على بيروت وأعمالها المضافة  
إليها، المجاري عاداتهم في التصرف فيها أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام  
ولده الملك العظيم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز،  
والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك  
مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي الموضع الآتي  
ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها،  
وسن الفيل بحدودها والريح والشريف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والمحديدة  
بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها،  
وقرينة بحدودها والنصرانية بحدودها، وجلاها بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس  
الفيق، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعایا والتجار  
ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس  
الناس والمرتددين إلى بلاد السلطان فلان، وهي الحمير وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل  
ما هو مختص بها، والملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها  
وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار  
وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة

(١) القلقشندي، صبع الأعشى، ج١٤، ص ٣١ - ٣٩.

الربحية وما هو مختص بها: من قلاع وبلادها، والملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها ومالكها، والملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والملكة القدسية وما يختص بها، والملكة الخلبية وما يختص بها، والملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والملكة النابلسية، والملكة الصرخدية، وملكة الديار المصرية جمیعها: بشغورها وحصونها ومالكها، وبلادها وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والساکنین في جميع هذه المالك المذکورة وما لم یذكر من مالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله على يده ويد نوابه وغلمانه یكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ويضائعهم، من الملكة فلاته وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رعية الملكة فلاته وغلمانها یكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم ويضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً: في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عدم لأحد من الجانبيين مال، أو أخذت أخيذه، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن كان لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر من يختارهم المدعى، ويرتئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبي المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعى، وأخذ ما يدعى. وإن قتل أحد من الجانبيين خطأ أو عمداً كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركيل ببركيل، ورجل براجل، وغلام بغلام، وإن هرب أحد من الجانبيين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلاطها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجربين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقصها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ولا تنقص بموت أحد من الجانبين. وعند انتصاء الهدنة تكون التجارة آمنة من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا.<sup>(١)</sup>

### نص الهدنة المعقودة

**بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد برقة  
مع الإستمارية في قلعة لد سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م**

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قسم أمير المؤمنين، وبين المباشر المقدم الجليل أفريز أولد كال مقدم جميع بيت الإستمار. سراجون بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الإستمارية لمدة عشر سنين كواحد متواتيات متتابعتات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية المافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسين واثنتين وثمانين لإسكندر بن فيليب اليوناني، على أن تكون قلعة لدبكمالها وريضها وأعمالها وما هو منسوب إليها ومحسوب بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان وما استقر لها الآن، ويتعلق بذلك من المواقع والمصايد والملحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر: سهلها وجبلها وعامرها ودائرها، وما يجري بها من أنهار وينبع منها من عيون وما هو مبني بها من عمائر، وما استجدد بها من القراب، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها، وحصن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناسفة تكون جميع بلده

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ١٤، ص ٣٩ - ٤٢ .

وما يناسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناسفة تكون جميع بلداته وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر، ولا يكون لبيت الإسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجهه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجية فيها تعلق ولا طلب بوجهه ولا سبب، وكذلك مهما كان مناسفة، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الإسبتار، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الإسبتار.

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلائعها من القرى لا تكون فيها مناسفة لبيت الإسبتار ولا للمرقب ولا حق. ولا رسم ولا شرط ولا طلب في جميع بلاد الدعوة، مصياف الحمرؤسة والكهف والمنية والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناسفة، يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر، وليس لبيت الإسبتار ولا الفرنجية فيه حديث ولا طلب.

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لد ومقرئاً إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها، والداخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف، وحد البيوت المحاذية لسور الرياض، تستقر جميعها مناسفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار نصفين بالسوية، وما في جميع هذه البلاد، من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه العين والمستفلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة، وما هو مزروع من الفدن لأهل الرياض وبساتيرها: يكون ذلك مناسفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار سرجوان بالسوية نصفين.

وما هو داخل الرياض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر للمقدم الكبير أفريز أولد كال مقدم الإسبتار سراجون وخياته، ورجاله ورعايته، يرسم إقامتهم وسكناتهم من داخل الأسوار، وعن سور الرياض المحاذية للسور تكون مناسفة جميعها بما فيه من حقوق طرق وأحكام، ومراعي المواشي على اختلاف أصواتها وأوبارها وجميع السخريات، وكل أرض مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عدد يكون مناسفة.

وكل ما هو من الموانئ والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصن المراقب: من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مرقية، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار. وما ينعقد عليه ارتفاعها، وتشهد

به المحسبيات- جميعه مناصفة، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الإسبتار المقرب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة.

يعتمد ذلك في كل ما يصل للمترددين والمقيمين بالقلعة والريض: من عامة وغير عامة، وخيالة على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للأخوة ولغلمانهم المعروفين بالأخوة الإسبتارية من الحبوب والمثونة والكسوة، والخيل التي هي برسم رکوبهم خاصة، ولا يكون عليها حق بشرط أنه لا يكون فيها للتجاري شيء، من ذلك وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه.

وعلى أنه لا يحمي أحد من الأخوة الخالية والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئاً عن اسم بيت الإسبتار ليستطلق الحق وينبع من استياداته، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم. إذا أظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين، للديوان السلطاني المعور ولبيت الإسبتار، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً ووارداً، وكذلك في البر صادراً ووارداً بعد المحافظة على ذلك وصحته.

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الإسبتار، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم بجميع ما يتعلق بهم ، وكذلك غلماننا وولاتها ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بلادنا آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر المعاشرات والطرق والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها وكذلك الرأسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها .

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الإسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشيء، إلا باتفاق وتزيل في دفاتر الديوان المعور وديوان بيت الإسبتار، ولا يطلق ولا يحبس إلا باتفاق من الجهتين. ولا ينفرد واحد دون آخر.

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأدبه، يعتمد ذلك فيه نائباً، من شنق يجب عليه أو قطع، وأدب بحكم الشرع

الشريف: من شنق وقطع وكحل أعين، بحيث لا يعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الإسبتار حاضر يعاين ذلك بعينه، ويكون قد عرف الذنب وتحققه، وإن كان ذنبه يستوجب جناءة أو غرامات دراهم أو ذهب أو مواشي أو غير ذلك على اختلاف أجناسه، يكون ما يستأدي مناصفة للديوان المعمور لبيت الإسبتار وصاحب المربك. فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه، وصاحبها مسلم، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور لبيت الإسبتار، وإن لم يعرف صاحب البضاعة وكانت لسلم أعيدت للخزانة السلطانية ولا يكون لبيت الإسبتار تعلق، وإن كان صاحب البضاعة نصريانياً على اختلاف أجناس النصارى: تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهةنا بعد الحق، وإن لم يعرف صاحب البضاعة، وكانت لنصراني، تبقى تحت يد بيت الإسبتار، خلا ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه: إن كان نصرياناً أو ذمياً، على اختلاف جنس دينه، ليس لبيت الإسبتار عليهم اعتراض، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور.

وعلى أنه متى انكسر مركب، وظهر إلى بر الموانئ بضاعة، وقصد صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر، ولا يتبع، فيؤخذ الحق منه: إن باع يؤخذ الحق، ويكون الحق للجهتين، وهو الحق المعروف الجاري به العادة.

وعلى أن التجار السفاره والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانئ المحدودة في أعلى، يتوجهون بخفاره الجهتين من غير حق: لا يتناول من الخفاره شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المربك آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين، ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المربك وموانيها، فالترتيب على الخفاره من الجهتين مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرق صادرًا ووارداً، بحيث أنهم يحضرون إلى بلاد المربك وإلى الموانئ بالمرقب المحددة أعلى، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفاره من الجهتين على ما شرحناه.

وعلى أن غلمان المباشر المقدم لبيت الإسبتار والأخوة والخيالة والرعاية المقيمين بقلعة المربك والريض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر، منا ومن نوابنا بالمملكة والبلاد الجارية في حكمنا، ومن ولدنا الملك السعيد ومن ارثنا

وعساكرنا المنصورة، وإن قتل قتيل أو أخذت أخيذة في حدود المناصف ببلاد المربك فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوماً، فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوماً فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخذة وقتل القتيل، إن كان أخذ وقتل فكان من قتل القتيل أو أخذ الأخذة - أقرب القراء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلاً، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عن إحضاره بعد عشرين يوماً، يلزم أهل نواب الجهتين من الغرباء، الأقرب لذلك المكان بألف دينار صورية: للديوان السلطان النصف، ولبيت الإسبتار النصف، ولا تتكلس الولاة في طلب ذلك، ويكون طلبه يداً واحدة ولا يختص الواحد دون الآخر ولا يحابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاسمة الغلال وطلب المفسدين ليلاً ونهاراً.

وعلى أن لا تغير الهدنة المباركة بأمر من الأمور، ولا من جهة ولدنا الملك السعيد إلى انقضائه مدتها المعينة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الإسبتار الحاكم على المربك وغيره، وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا، ويتحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شعب، ويكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحد، وإذا تغير النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المعاصفة وإذا تسحب أحد من المسلمين على اختلاف أجناسه، إن كان مملوكاً أو غير مملوك أو معتوقاً أو غير معتوق، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلام - يرد، بجميع ما يوجد معه، إن كان قليلاً أو كثيراً يرد، ولو أن المتسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه، وإن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحته، وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما حضر معه: من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً يمسكه لنوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب. وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه باحضور معه.

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ولا الرعية الذين فيها، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها: لا بكتاب ولا بمشافهة ولا برسالة ولا بقول: ولا يطبع

أحد من جهتهم إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة، ولا تسير إليهم مثونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه، ولا تكون بينهم معاملة، وإن حضر أحد من جهة العلية إليهم يسكن ويسلمون لنوابنا ويأخذون بذلك خطرطمهم.

وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة، ولا في البدنة ولا في أبراجها، ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ولا يجددون عمارة في ريضها ولا في سورها ولا في أبراجها، ولا يجددون حفر خندق وعمارة خندق، أو تجدد بناية خندق، أو قطع جبل أو تحصن عمارة أو تحصن بقطع جبل، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ولم ناذن لهم بسوى البناء على أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الريض على أثر الأساس القديم.

وعلى أن صهيون وأعمالها ولرومة (١) أعمالها والقليعة وأعمالها وعيذوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون-يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة بحكم أن بلاده المذكورة جارية في مالكنا الشريفة.

وعلى أنه لا يمكن بيت الإسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا بأذية ولا ضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحصوننا ورعايتنا، إلا أن يكونوا أيد غالبة صحبة ملك متوج.

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة وهو برج معاوية الذي عند المحاصلة الداخلة في مناصف المربق الآن يخرب ما يخصنا فيه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه، وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الإسبتار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعصور دون بيت الإسبتار، وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المربق برسم الماستر المقدم الكبير الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالمحجارة والكلس لا تكمل عمارتها ويبقى على حاله، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه.

وعلى أن نواب الإسبتارية بالمرقب لا يخفون شيئاً من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الإسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً، وكل

ما كان يستأدي من البلاد في أيدي الإسبتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك.

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المربق الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والخرامية من هو في حكمه وطاعته، وكذلك الماستر المقدم أفريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى، ومتى وقع - والعياذ بالله - فسخ بسبب من الأسباب، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم، ولا ينعوا من السفر إلى أماكنهم من الجهتين، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً. وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة، مستقرة بقواعدها المسطورة للمرة العينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل، أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها متتابعة متوالبة، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والـ وقيام غيره موضعه ولا زوال رجل غريبة ولا حضور يد غالبه، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وأخراً، والخط أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى. في تاريخ كذا وكذا.<sup>(١)</sup>

### نص الهدنة المعقودة

بين السلطان المنصور تلاوون وبين متملك طرابلس سنة ١٢٨١ هـ / ١٢٨٠ م

تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام « بيمند بن بيمند » - ملك الفرنج - لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة (١٢٨٠ هـ - ١٥ يوليو ١٢٨١ م) - الموافق للخامس من شهر قوز سنة ألف وخمسة واثنين وتسعين لإسكندر اليوناني - وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده قريبها ويعيدها، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قدیها ومستجدتها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها، وقرها الرحلية والجبيلية. وجبال الفينيين والعقبيين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد وأنليس والقليلعات، وصافيتا وميسعار، واطليعا وحصن عكار ومرقية، ومدينتها وببلادها ومناصفاتها، وهي بلاد الملكية.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٤٢ - ٥٠ .

وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المربى التي دخلت في الصلح مع بيت الإسبار وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومحبوب بها من حصون وقرى وبلاطنس وبلاطها وجبلة والاذقية، وأنطاكيا والسويدية، وبلاط ذلك، وحصن بغراس وحصن ديركوش، وصهيون، وبرزية، وحصن الدعوة، وغير ذلك من سائر المالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى الموانئ والسواحل، والأبراج، وغير ذلك. وعلى بلاد الإبرنس وعلى طرابلس. وما هو داخل فيها وأنفة البترون، وجبيل، وبلاط ذلك، وعرقا وبلاطها، المعينة في الهدنة وعدتها إحدى وخمسين ناحية. وما هو للخيالة. والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلدا. وما هو للفارس «روجار ولا لولاي» من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية، وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلال وغيرها مناصفة، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركينة، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً، وهم المشد والشاهد والكاتب، وثلاث غلمان لهم، وعشرون رجالة في خدمة المشد. ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا وبلاطها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق.

ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس، ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مما وقعت الهدنة عليه بناءً يدفع ولا يمنع وكذلك السلطان لا يستجد بناءً قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشوانى من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن لا يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة. وتقرر الحالة على ذلك، وعادت الرسل.<sup>(١)</sup>

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٢١٠ - ٢١١ .

## **نَصُّ الْهِدْنَةِ الْمُعْتَوِّدَةِ**

**بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُنْصُورِ تَلَاقُونَ وَوْلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ**

**وَبَيْنَ حَكَامِ عَكَا وَصِيدَا وَعَثْلِيتِ، سَنَةُ ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٢ م**

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين علي - خلد الله سلطانهما - وبين الحكام بملكة عكا وصيدا وعثليت وببلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة. وهم السنجالي أود، كفيل المملكة بعكا، والمقدم افريير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية، والمقدم افريير فيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افريير كورات نائب بيت مقدم اسبتار الأمن لمدة عشر سنين كواهل، وعشرة شهور وعشرين ساعات أولها يوم الخميس الخامس شهر ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، الموافق الثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين لغبة الإسكندر ابن فليب اليوناني. على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين علي، جميع القلاع والمحصون والبلاد والمالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضي، وهي مملكة الديار المصرية وما بها من الشغور والقلاع والمحصون الإسلامية، وتغير دمياط وتغير الإسكندرية ونستورية وستيرية وما يناسب إلى ذلك من الموانئ والسواحل والبرور، وتغير فوة وتغير رشيد، والبلاد المحجازية، وتغير غزة المحروس وما معها من الموانئ والبلاد، والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، وبصرى وأعمالها، ومملكة الخليل صلوات الله وسلمه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، والأردن وبيت لحم وأعماله، وببلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل ومملكة نابلس، وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها وميناها، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وببلادها، ولد وأعمالها، وأعمال العوجا وما معها من الملاحة وببلاد الفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها، وبيسان وأعمالها وببلادها والطور وأعماله واللجنون وأعماله وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله، وما ينسب إليه وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصدقية، وما يناسب إليها، وتبنين، وهوئين، وما معها من البلاد والأعمال، والشقيف المعروف بشقيق أرنون وما معه من البلاد والأعمال، وما هو منسوب إليه، وبلاط القرن وما معه خارجاً عما في هذه

الهدنة، ونصف مدينة إسكندرونة، ونصف ضيعة مارن بقراهما وكرومها وبساتينهما وحقولهما، وما عدا ذلك (من أعمال إسكندرونة المذكورة) يكون جميعه بحدوده وبلاده مولانا السلطان ولولده والنصف الآخر لملكة عكا، والبقاع العزيزي وأعماله، ومشغرا وأعمالها وشقيف تيرون وأعماله والعامر جميعها في لايا وغيرها وبانياس وأعمالها، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والملكة الدمشقية وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها، وملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود وملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرزية وأعمالها، وفتحات حصن الأكراد وأعمالها وصافيتا وأعمالها، وميغار وأعمالها والعريمة وأعمالها وقدفيا وأعمالها ومرقية وأعمالها وحلب وأعمالها، وحصن عكار وأعماله وبلاده والقلية وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها وأفامية وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قبيس وأعماله، والملكة الخلبية، وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والمحصون، وأنطاكيا وأعمالها وما دخل في الفتحات المباركة، ويغراس وأعمالها، والدرسيك وأعماله، والرواندان وأعمالها وجازم وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها، وسبخ الحديد وأعماله، قلعة نجم وأعمالها، وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسويداء وأعمالها، والباب وزراعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والرجية وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميميس وأعمالها، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إلى جميع ذلك وما لم يعين من الحكام بملكة عكا. وهم كفيل المملكة، والمقدم افريكليلام ديبياجوك مقدم بيت الديوينة، والمقدم افريز نيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افريز كورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم (ما) تحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بري ويعمر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاط ولده السلطان الملك الصالح ولا حصونهما ولا قلاعهما، ولا بلادهما، ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما، ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياها على اختلاف الأجناس والأنفار ولا ما تحويه من الماشي والموال والغلال وسائر الأشياء منهم

ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية أيديهم، وكذلك كل ما يستفتحه مولانا السلطان الملك المنصور ولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات برأ وبحراً، سهلاً وجبراً، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي مدينة عكا ويساتينها وأراضيها وطواحينها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة، وعدتها «بما فيها من مزارع» ثلاث وسبعين ناحية خاصة للفرنج، وكذلك حيفا والكروم والبساتين والعدة بعضاً سبع نواحي وكذلك ما رسا بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج. وكذلك دير السياج، ودير مارلياس يكربن للفرنج. ويكون مولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصة، عفا والمنصورة وباقى بلاد الكرمل وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج، وعشليث القلعة والمدينة، والبساتين التي قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها، ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصة مولانا السلطان ما يذكر وهو قرية الهراميس بكمالها وحقوقها ومزارعها، وبقية بلاد عشليث تكون مناسبة خارجاً عما للخاص الشريف، وعما لخاص عشليث يكون مناسبة وهي ثمان نواحي. وفلاحة الإسبتار بعمل قيسارية يكون خاصة للفرنج بما فيها، ونصف مدينة إسكندرونة ونصف قرية مارن بما فيها للفرنج وما عدا ذلك يكون خاصة مولانا السلطان. ومهمما كان في إسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلة يكون مناسبة. وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصة للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصة خمس عشرة ناحية، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون ويساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قدية تسقي أراضيهم يكون خاصة لهم. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون مولانا السلطان ولولده بكمالها. وتكون هذه البلاد العكارية وما عُين في هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة وما هو خاص وما هو مناسبة آمنة مطمئنة ومن بها، وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا وعشليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سراً ولا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قدماً ولا مستجداً، وعلى أن شوانى مولانا السلطان وشوانى ولده متى عمرت وخرجت لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشوانى المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاها

للحكم بملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها ولا تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهاً للحكم بملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها، وإن انكسر شيء من هذه الشواني - والعياذ بالله - من ميناء من الموانئ التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهداً أو مع مقدمها فيلزم كفيل الملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسلامية، وببطل حركة ما ينكسر منها أو يرميه البحر فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتجه إلى الجهة المرسوم بقصدها. ويعتمد هذا الفصل من الجهتين. وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجية وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لحضرمة مولانا السلطان أو حضرة ولده في بلادهما المنعقدة عليها هذه الهدنة فليلتزم نائب الملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بدة شهرين وأن وصلوا بعد انتصاء مدة شهرين فيكون كفيل الملكة بعكا والمقدمون برأء من عهدة اليمين في هذا الفصل، وإن تحرك عدد من جهة البر من التقار وغيروهم فأي من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله - عدد من التمار وغيرهم في البر وانحازت العساكر قدامهم، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بحضرمة فلكفيل الملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيتهم وبладهم بما تصل قدرتهم إليه. فإن حصل جفل - والعياذ بالله - من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونوا أمنين مطمئنين بما معهم وعلى أن نائب الملكة بعكا والمقدمين يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها أنهم لا يمكنون حراماً البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ما وإن ظفروا بأحد منهم يسكنون، وإن باعوا عندهم بضائع يسكنوا حتى يحضر صاحبها وسلم إليه، وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحراماً هذا الاعتماد. وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحاج وغيروهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلون بالكنيسة الأقباء والرهبان. وتكون

البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الراخلة في هذه الهدنة. وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة ترمى برأولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء، ولا يتعرض إلى الأقصى والرهبان في ذلك على وجه الهيئة بغير حق. وتضمنت الهدنة تقرير الشروط المباري بها العادة.

ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب والقاضي بدر الدين بن رزين لتحليف الفرزنج فحلقووا واستقر ذلك<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٣٤ - ٤٣ .

نص الهدنة المعقودة  
بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولديه  
الملك الصالح والأشرف خليل وبين ملكة صور سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم. استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين قسم أمير المؤمنين وولده، وولي عهده المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا علي خليل أمير المؤمنين، وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل خلد الله سلطانهما وأدام دولتهم - وبين الملكة الجليلة دام مارييت بنت سير هري بن الإبرنس بيمند مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة ونائبيها بملكة صور، وهو القومص الجليل سير ريمون يسكند لمدة عشر سنين كواحد متواتيات متتابعات أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، صلوات الله على صاحبها وسلمه، الموافق لثامن عشر قوز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للياسكender بن فيليبس اليوناني، وأخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق للشامن عشر من قوز سنة ألف وستمائة وخمسة للإسكندر، يتبع بعضها بعضاً، على حكم ما استقر عليه الحال إلى آخر أيام الملك الظاهر - رحمه الله - متواتيات الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسم أمير المؤمنين، وببلاده وقلاءه ومدنه وحصونه، وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية، وما فيها من الشغور والسواحل والقلاع والمدن، والمملكة الشامية وما اشتملت عليه من الشغور والقلاع والمحصون والمدن، والشغور الساحلية، وما اشتملت عليه من الحصون، ومن بور ومن موانيه، ومن بلاده. والبلاد البعلبكية والحمصية والحموية والفتحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكار، وما يضاف إليها، ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهديه وحصون وبور وسواحل، والمملكة الخلبية والفتحات الأنطاكية، وما هو مجاور لصور من المملكة الصفدية والشقيفية وغيرها من القلاع والمحصون والبلاد، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاء وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانيه وبور، قربها ويعيدها، سهلها وجبلها، عامرها

ودائرها، غورها ونجدتها، شرقها وغربها، يمنها وحجازها، شاميها ومصرها، وما تشمل عليه من قرى ومزارع وأنهار وطواحين وأبراج ويساتين، وعلى من حوطه هذه المالك وتحويه من عساكر وجند ورعايا وعرب وتركمان وأكراد وفلاحين وسائـر أجناس الناس على أجتمعـين على اختلاف أجناسـهم وتغاير أشكالـهم وأديانـهم، وعلى أموالـهم ومواشـيمـهم على تغايرـ أصـوفـها وأـوـيـارـها والأـمـوالـ على تـغاـيرـ أجـنـاسـها.

تكون هذه المالك المذكورة. وما اشتـملـتـ عليهـ، ومنـ فيهاـ منـ سـائـرـ النـاسـ أجـمـعـينـ السـاكـنـينـ بـهـاـ والـقـاطـنـينـ والـمـتـرـدـدـينـ إـلـيـهاـ، وـمـنـ وـفـيـهاـ منـ التـجـاوـ والـسـفارـ آـمـنـينـ مـطـمـنـينـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ وـمـوـاـشـيـهـمـ فـيـ حـالـتـيـ صـدـورـهـمـ وـوـرـودـهـمـ وـسـفـرـهـمـ، وـإـقـامـتـهـمـ، وـمـاـ لـمـاعـاهـيـهـ مـنـ الـبـلـادـ وـالـجـهـاتـ، وـمـاـ سـيـفـتـحـهـ اللـهـ عـلـىـ يـدـ مـولـانـاـ السـلـطـانـ الـمـلـكـ الـمـنـصـورـ وـعـلـىـ يـدـ أـوـلـادـهـ وـيـدـ عـسـاـكـرـهـمـ وـجـنـوـدـهـمـ، وـجـيـوشـهـمـ مـنـ الـخـصـونـ وـالـبـلـادـ وـالـقـلـاعـ يـجـريـ عـلـيـهـاـ وـعـلـىـ مـنـ فـيـهـاـ، وـمـاـ فـيـهـاـ حـكـمـ هـذـهـ الـهـدـنـةـ الـمـبـارـكـةـ إـلـىـ آـخـرـ مـدـتـهـاـ، وـعـلـىـ بـلـادـ الـمـلـكـةـ دـامـ مـرـارـيـتـ بـنـتـ سـيـرـهـرـيـ بـنـ إـلـيـرـنـسـ بـيـمـنـدـ الـمـعـيـنـةـ لـهـاـ خـاصـاـ، وـمـنـاصـفـةـ فـيـ هـذـهـ الـهـدـنـةـ، وـهـيـ مـدـيـنـةـ صـورـ وـمـاـ دـارـتـ عـلـيـهـ أـسـوارـهـاـ وـضـواـحـيـهـاـ خـاصـةـ، وـمـاـ فـيـهـاـ مـنـ الـأـرـاضـيـ الـتـيـ فـيـهـاـ الـبـقـولـ وـالـأـقـصـابـ وـالـمـعـاـصـرـ الـتـيـ لـاـ دـمـنـةـ لـهـاـ، وـهـيـ الـمـعـوـقـةـ وـرـشـمـونــ أـرـاضـيـ الـرـيـتونــ مـنـ الضـواـحـيـ الـتـيـ لـاـ دـمـنـةـ لـهـاـ، وـبـيـسـتـانـ الـعـوـجاـ الـذـيـ لـاـ دـمـنـةـ لـهـ، وـالـمـكـورـاتـ وـالـطـواـحـيـنـ الـتـيـ حـولـ مـدـيـنـةـ صـورـ تـكـوـنـ هـذـهـ الـضـواـحـيـ خـاصـةـ لـصـورـ، وـذـلـكـ بـشـرـطـ أـنـ تـكـوـنـ رـشـمـونــ وـالـمـعـوـقـةـ وـبـيـسـتـانـ الـعـوـجاـ أـرـاضـيـ مـنـ ضـواـحـيـ صـورـ بـغـيـرـ دـمـنـ، وـلـاـ قـرـىـ، وـعـلـىـ أـنـ يـكـوـنـ لـمـولـانـاـ السـلـطـانـ الـمـلـكـ الـمـنـصـورـ وـلـأـوـلـادـهـ السـلـطـانـ الـمـلـكـ الـصـالـحـ وـالـمـلـكـ الـأـشـرـ فـنـصـرـهـمـ اللـهـ خـاصـاـ لـهـمـ الخـمـسـ الـضـيـاعـ مـنـ ضـيـاعـ صـورـ مـنـ أـجـودـهـاـ وـأـكـشـرـهـاـ مـتـحـصـلـاـ مـنـ عـيـنـ وـغـلـةـ الـتـيـ اـسـتـقـرـتـ فـيـ الـخـاصـ الشـرـيفـ السـلـطـانـيـ مـنـ الـأـيـامـ الـظـاهـرـيـةـ وـهـيـ: قـانـاـ وـمـزـرـعـتـهـاـ، الـقـرـوـيـةـ، إـصـرـيفـيـاـ وـمـزـرـعـتـهـاـ، حـانـاـ يـخـنـ وـمـاـ بـكـمالـهـاـ، الـمـجـادـلـ بـكـمالـهـاـ، كـفـرـ دـبـيـنـ بـكـمالـهـاـ عـلـىـ مـاـ اـسـتـقـرـ عـلـيـهـ الـحـالـ إـلـىـ آـخـرـ الـأـيـامـ الـظـاهـرـيـةـ، تـكـوـنـ هـذـهـ الـخـمـسـ الـقـرـىـ خـاصـاـ جـمـيعـهـاـ بـأـرـاضـيـهـاـ وـحـدـودـهـاـ وـحـقـوقـهـاـ، وـكـلـ مـاـ هـوـ دـاـخـلـ فـيـهـاـ وـمـنـسـوبـ إـلـيـهـاـ لـمـولـانـاـ السـلـطـانـ الـمـلـكـ الـمـنـصـورـ وـلـأـوـلـادـهـ مـنـ غـيـرـ مـشـارـكـةـ لـهـمـ فـيـ ذـلـكـ.

وـتـكـوـنـ لـلـمـلـكـةـ مـرـارـيـتـ مـالـكـةـ صـورـ مـنـ ضـيـاعـ صـورـ، عـشـرـ ضـيـاعـ مـنـ قـرـايـاـ مـرـجـ صـورـ خـاصـاـ لـهـاـ عـلـىـ مـاـ هـوـ مـسـتـقـرـ فـيـ الـهـدـنـةـ الـظـاهـرـيـةـ: أـنـ هـذـهـ العـشـرـ ضـيـاعـ تـكـوـنـ

خاصة لملكة صور حسبما عينت بأسمائها فيها وهي: عين أبي عبدالله، القاسمية، سدس، قحلب، المرفوف، الجارودية، الجمادية، مرفلة، رأس العين، برج الإستمار، تكون هذه العشر الضياع المذكور بحقوقها وحدودها وأراضيها وما هو داخل فيها خاصة لملكة صور دام مواريت مالكة صور، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جمبعها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثمان وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي : الطالية، درتيه، الدهرية، الفنونية القيمة، وادي الحجاج، العربية، المالكية، دير عمران، التقبيبة، الكبيبة، بابولية، الحمية، دير قالون، غرايفال، الزيادات، وحيوية، ربعين،بني دفعن، مارنين، عبا، صديقي، رسكيانية رفلية، عثليث ومزرعتها، المل hakat، السحنونية، الفراخية، طرقات الدير، المعلية، الخميراء، روتية، بابوح، فقعة، البارورية، كفرد هال، حربا ومزرعتها، سرفية، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد، ركنا، مارون، طرسنحات، كفرناري،بني باقتلة، مغولة، طفلة، أشحور، الرمر، الفهرون، دورغيا، ابروخية، هرين، الصوانى، حلوبية، معروب، بعليث، درفانون، طردية، بدليس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفينيات، بردىيل الجديدة، العباسة، الخيشة، السفلسة، أشحور، الفاه، شادسة، العجبلة، المصرية، وذلك خلا المعرفة، ورشمون، ويستان العوجا التي ذكرناها ليست بقراء، وأن المعرفة اسم المعاصرة، ويستان العوجا غير قرية، ورشمون غير قرية، وإن كانت قرى كانت من جملة بلاد المناصفات، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها.

وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة، وقرية دير عمران، وبرج وادي الحجاج، والعربية، وريف، وباري، ومن الشرق عنادة، سكاسه، ومجدل شرقية، والسحنونية الداخل ذلك المناصفات، وقانا، ومحروما، والمجادل، وكفر دبين الداخل في الخاص الشريف، ومن الشمال أصر يفيا الداخلة في الخاص الشريف، ونهر القاسمية، ومن الغرب تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها وحقوقها، وأنهارها، ويستانها ودمنها، ومتحصلات مغلاتها من وجوه العين، والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مواريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة، وحقوق، وزكوات وعداد وحكومات، وأجر وضمادات، وخراجات وجبايات، ومواريث، وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية.

ويستقر الحال في جميع الأشياء، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية، وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفات المذكورة والمستخرج لأموالها وغلالها نواب مولانا السلطان الملك المنصور عز نصره باتفاق مع نواب الملكة دام مارييت مالكة صور بحيث لا تنفرد جهة باستخراج درهم ولا غيره، وعلى أن يستمر الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة بالملكة صوراً آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخياطتها ورجالاتها ورعايتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواشيهم في حالي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه الهدنة، وعلى أن التجار والسفار والمترددين من الجهتين يتربدون ويبيعون ويشترون وبيوردون ويصدرون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وعلى أنهم لا يحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين، وأن المنوعات مستقر حالها في البيع على حالتها، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة منها من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والراسى والدخول والخروج، تلتزم كل طائفة من الجهتين كف الأذية عن الجهة الأخرى، وعلى أنه متى انكسر مركب من الجهتين إن كان مسلم تسلمه له إن كان موجوداً، ولنواب مولانا السلطان إن كان مفقوداً، وإن كان لنصاراني من بلاد مولانا السلطان -عز نصره -فالحكم فيه كحكم المسلم، وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجوداً، ولديوانها إن كان مفقوداً. وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ولم يكن له وارث يجري عليه هذا الحكم من الجهتين ولا يخفى ماله، وعلى أنه متى قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل مسلماً يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور -نصره الله - بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المظيرة، وإن كان نصارانيا من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مارييت مالكة صور، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكام الجهتين، وذلك يكون الحكم في كل من تعدى وأسرف وأغتال، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم، وتأديب النصاراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور، وإن خفي أمر القتيل كانت دية الفارس من الجهتين ألفاً ومائة صورية، و التركبلي مائتي درهم، والفلاح مائة دينار، والتاجر تكون ديته على قدر جنسه وأصله ومقدراته، يؤخذ ذلك من أهل القرايا التي يقتل فيها ذلك الشخص جنائية لهم وتأديباً جملة واحدة، يعتمد ذلك من الجهتين وإن كان المقتول في

المناصفات كان متحصل الجنایة مناصفة، وعلى أنه متى أخذت أخيذة ترد بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمر القتيل أو أمر الأخذة كانت المهلة في الكشف عن أمره أربعين يوماً، وإن لم يظهر له خبر حلف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار من تختارهم الجهة الأخرى. وإن امتنعوا من اليمين لزمت الجنایة المذكورة وقيمة الأخذة، وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبيين يرد بما معه، ومتى هرب ملوك من أي جنس كان يرد بجميع ما معه ذكرأً كان أو أنشى، عبداً كان أو حراً. يعتمد ذلك على الجانبيين. على أن الملكة دام مارييت مالكة صور لا تستجد بنا، قلعة ولا تجديد سور ولا حفر خندق ولا ما يتحقق به مما يمنع أو يدفع.

وعلى أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره ولا من جنوده ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر لا في بحر ولا بحر ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مارييت مالكة صور لا في نفسها ولا في خياتها وأصحابها خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان. ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد، وعلى أن الملكة دام مارييت مالكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من مجرم أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة أو فساد أو عدوان.

وعلى أن الملكة دام مارييت مالكة صور لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو على مالكه أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ولا تساعد أحداً على ذلك يرمز ولا كتابة، ولا إشارة، ولا رسالة إلى حين انقضاء هذه الهدنة. ولها من مولانا السلطان مثل ذلك، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو وقع - والعياذ بالله - فسخ من أحد من الجهتين كانت المهلة للتجار والسفار والمرتدين أربعين يوماً حتى يعود كل واحد بهاله إلى مأمنه ووطنه آمنين مطمئنين مخفيين من الجهتين. تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقررة، لا تنتقض أحکامها، ولا ينفك نظامها ببوت أحد من الجهتين ولا بعزل وال ولا تزييه غيره، ولا برجل غريبة ولا بيد غالبة، بل تستمر مدتها وتوفى عدتها، وهي عشر سنين كواحدة مرتثاليات، أولها الرابع عشر من جمادي الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز من سنة ألف وخمسمائة وآخرها الرابع عشر من جمادي الأول من سنة

أربع وتسعين وستمائة المواقف الثامن عشر من قوّز من ألف وستمائة وخمسة للإسكندر بن فيليبيس اليوناني.

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها والخط الشريف أعلاه بمقتضاه إن شاء الله تعالى.<sup>(١)</sup>

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٠٣ - ١١٠ .  
- ١٨٩ -

**نص رسالة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون إلى الملك ليو - ارجون**

**سرمان - ملك أرمينية الصغرى وذلك بعد فتحه عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

نعلم الملك أرجون سرمان وفقه الله في سره وجهه، وجعله من يلتقي المصيبة في آهل ملته إذا عجز أن يلتقيها بصدره، أما بعد: فإننا فتحنا عكا التي هي دين الصليب، في هذا الأحد القريب، فلو رأيت خندقها العميق مرسوماً، وكل برج كان بها منيعاً قد عاد مهدودماً، وفرسانها في خنادقها جاثية، قد أصبحوا بسيوفنا «صرعى» كأنهم أحجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية؟<sup>(١)</sup> ولما أحاط بها ركابنا المنصور، كما يحيط بها السور، أظهروا الجلادة في القتال، ورموا بالمجانيق والنبال، وحسبوا أن بأسمهم يصونهم، وأن مانعتهم حصونهم، فما نفعهم الحديد، ولا كثرة العدد والعديد، لما قومنا لهم كل سنان، وجاهم الموت من كل مكان، أشرفنا عليهم من الأسوار، وأحاطنا بهم كما يحيط بالزند السوار، فولوا من بين أيدينا منهزمين، وأصبحوا على ما فعلوا نادمين، فكل منهم يرى طريحاً أو أسيراً، لما دمرناهم وديارهم تدميراً

أما الديوية فما منعهم طارقة ولا جنوية، وأما الإسبitar فأفناهم سيفنا البثار، وأما الزنادقة البنادقة، القوا بأنفسهم في البحر لما رأوا حملاتنا الصادقة، وأنت أيها الملك، إذ لم تعتبر بعكا لأنكيناك على أقصى وجودك، وأعدمناك بعد وجودك، وتندمندمة آهل عكا حيث لا نفعهم الندم، وتتصبح بعد الوجود في العدم، فتحمل القطبيتين الأولية والثانوية، وتحضر بنفسك إلى أبوابنا العالية، وإن خالفت وأطعت إبليس لنطيلن حزنك على بلاد سيس، ويكون رأيك على نفسك وبيس، فكل منكم يقل: لم يبق بعد عكا إلا أنا، فانجو بنفسك قبل أن تقع في الويل والعناء، وافهم هذا الكلام والسلام.<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الحاقة الآية ٧-٨.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

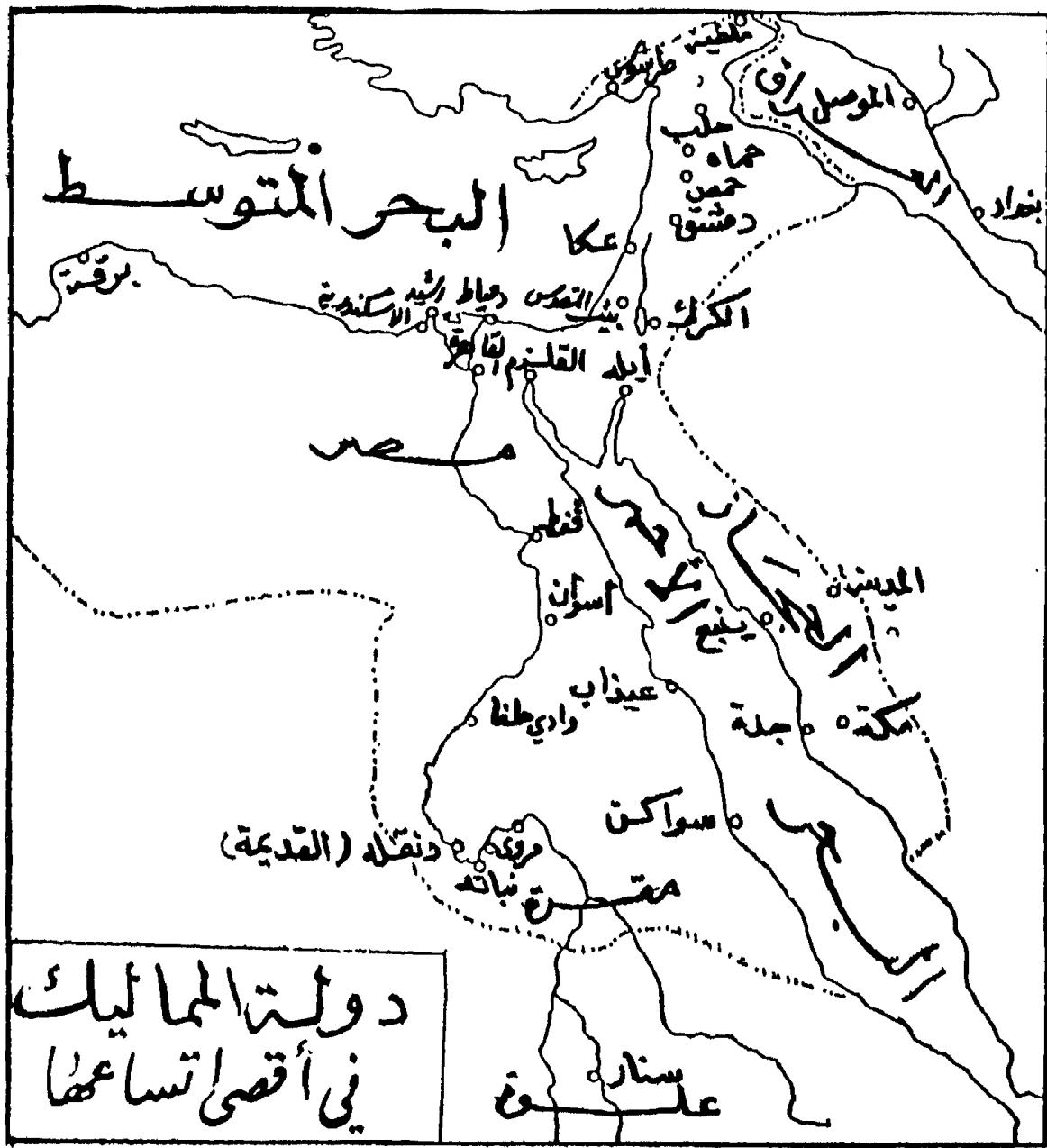
**نص مرسوم الأمير يلبيها الخاصكي**  
**الصادر إلى الأمير سيف الدين منكلي بما نائب دمنق**  
**حول أخذ ربع أموال النصارى في عقاب واقعة الإسكندرية**  
**سنة ١٣٦٥هـ / ١٣٦٥م ، وموقف ابن كثير من ذلك**

... وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوها من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوها، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للجتماع ببنائب السلطنة، وكان اجتماعاً بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنساً كثيرة، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له : هذا مما لا يسوع شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتني بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية متزمنين بالذلة الصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد - الفرد - فرق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير، فقال : كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام : «إتنوني بالسكنين أشقة نصفين»، كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه وأنني كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتتجي، حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمة الله، ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشر في أنه قد رسم بعمل الشوانسي والمراكب لغزو الفرنج والله الحمد والمنة ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين إجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعين ألفاً فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء ربع من أموالهم، فإن الله وإنما إليه راجعون، وقد أمرروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالى البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراً، النواحي

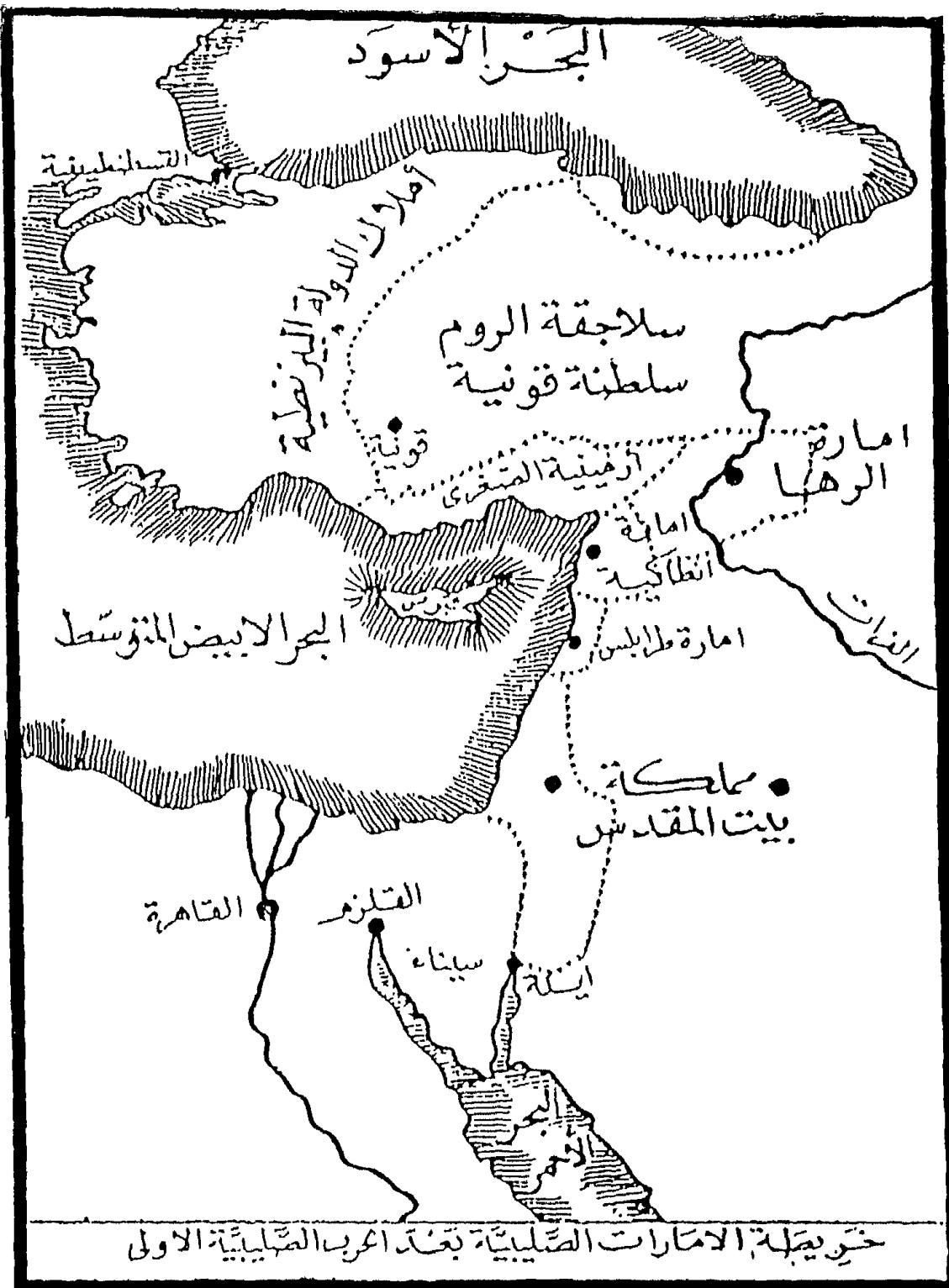
لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

---

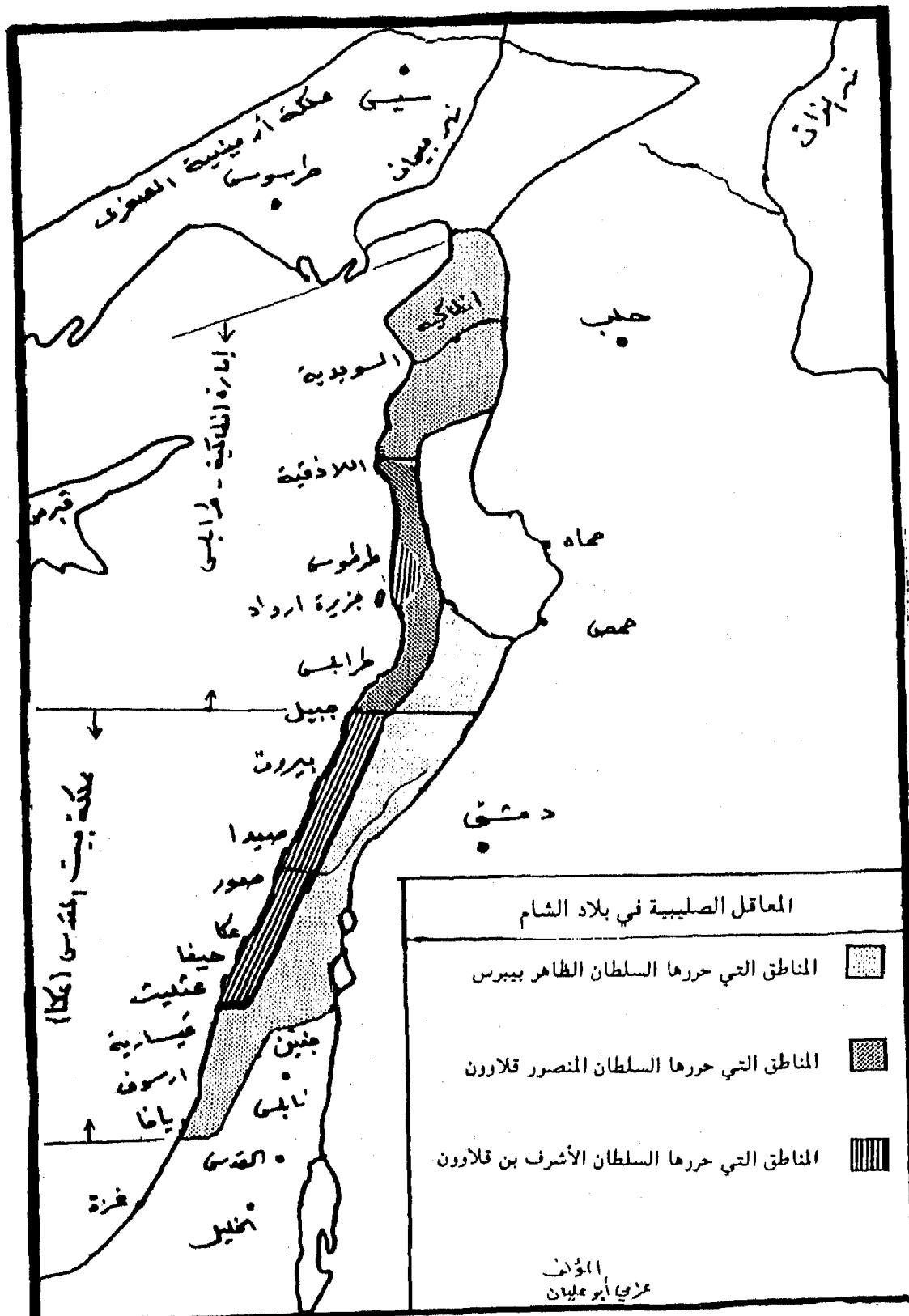
(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣١٤ - ٣١٥

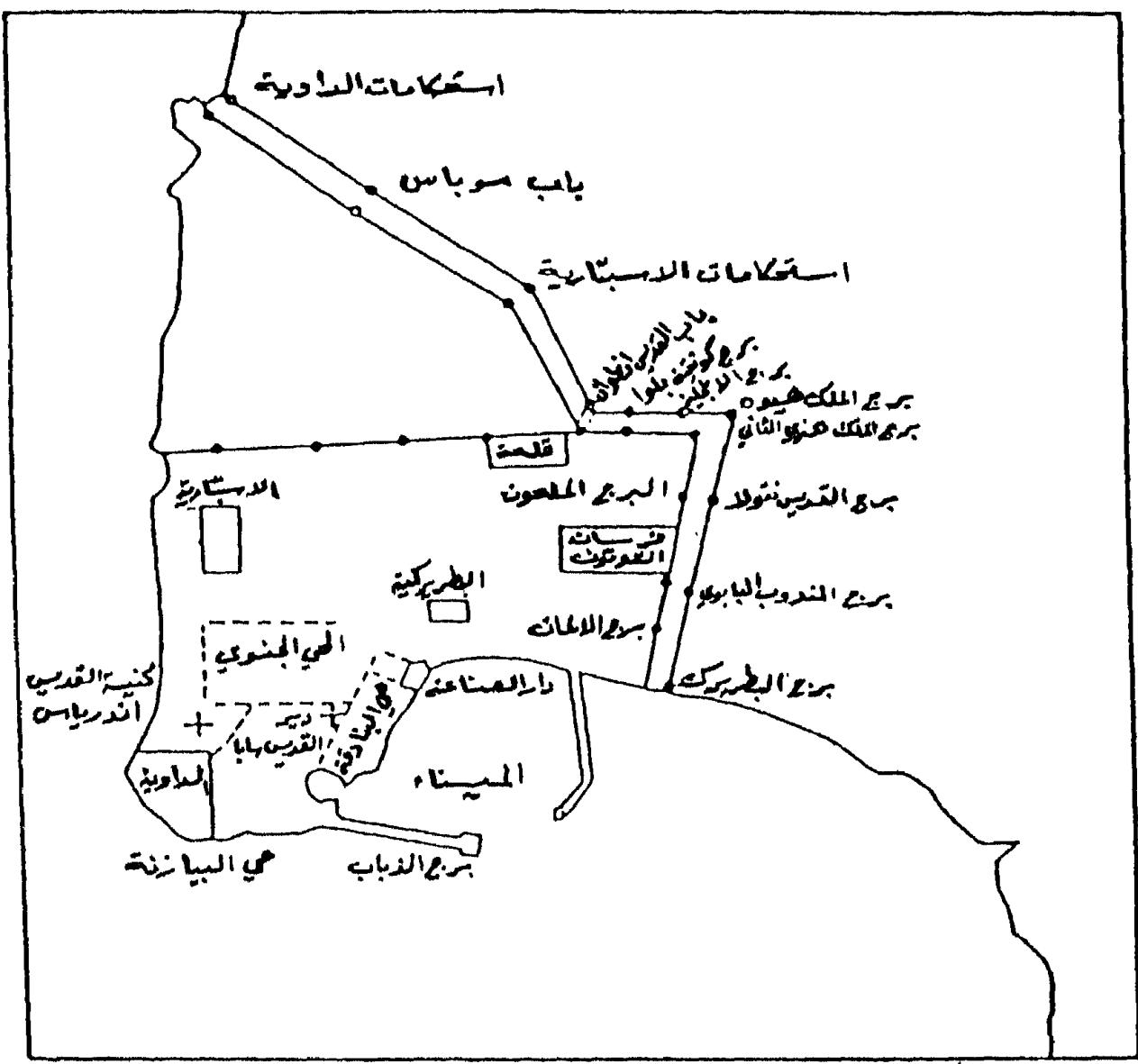


عن كتاب مصر وبلاد الشام في عصر الأيوبيين والمالويك - مؤلفه سعيد عاشور



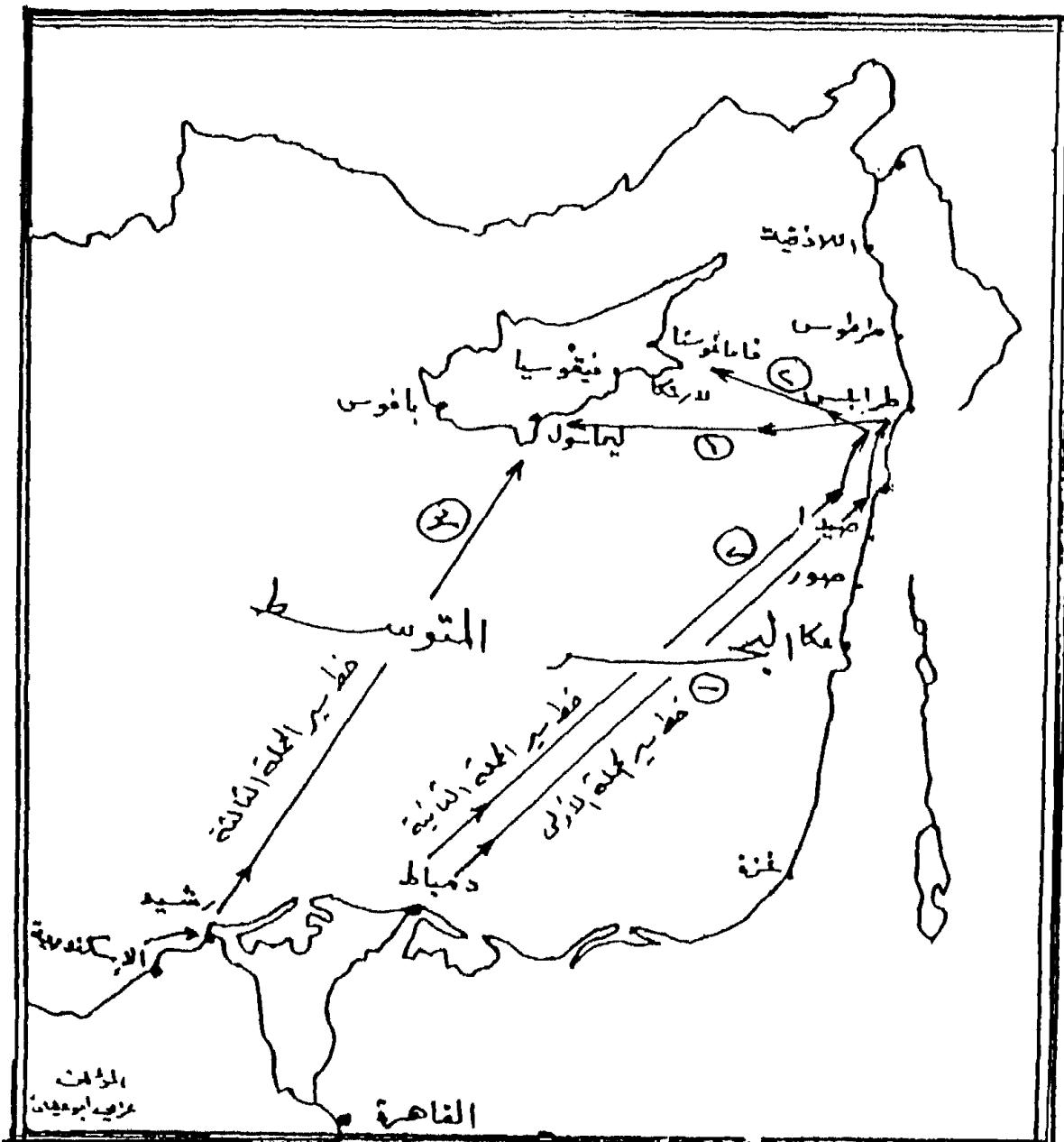
عن كتاب تاريخ الحروب الصليبية في الشرق - مؤلفه سعيد برجاوي



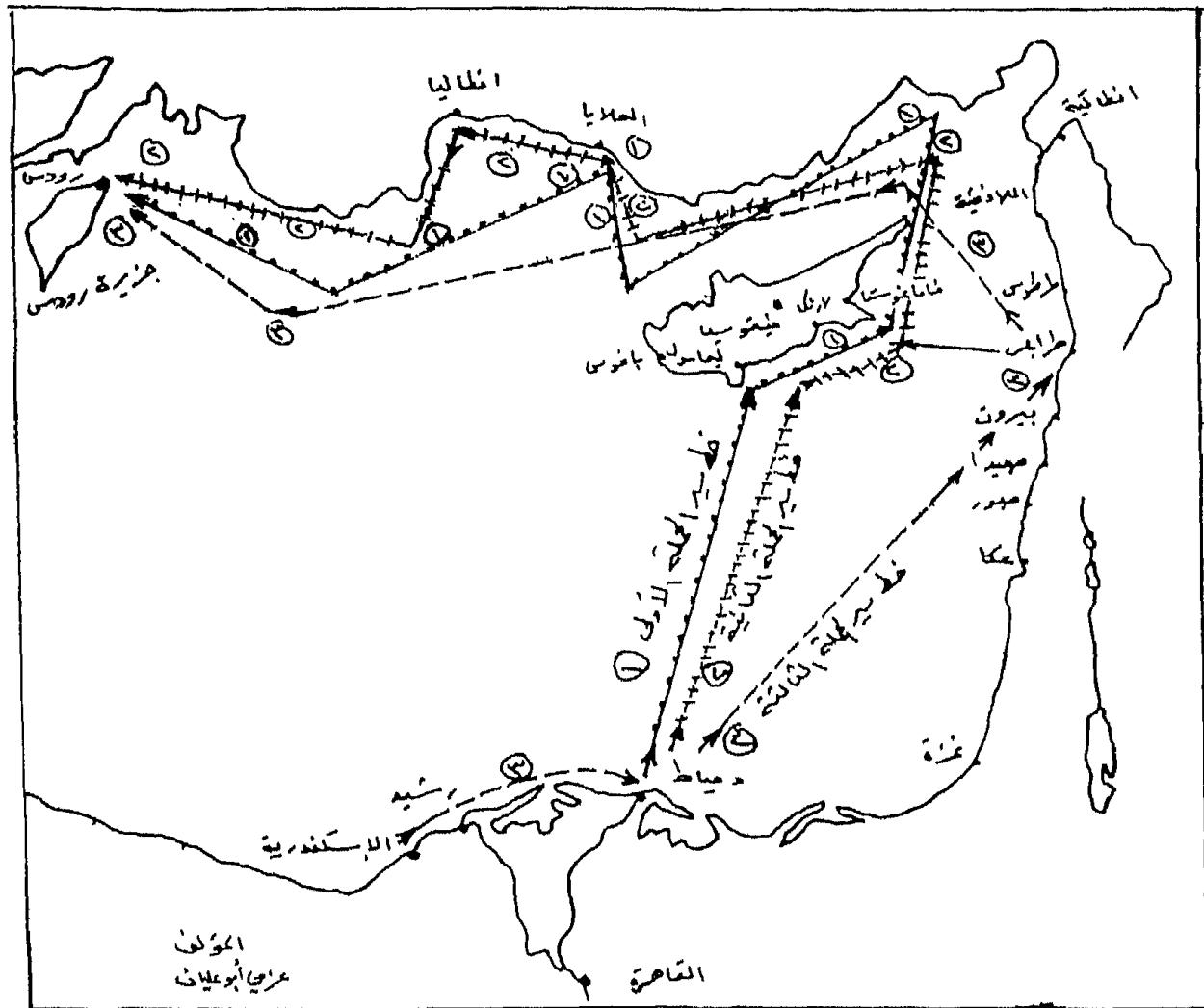


١٩٩١      عکاسة

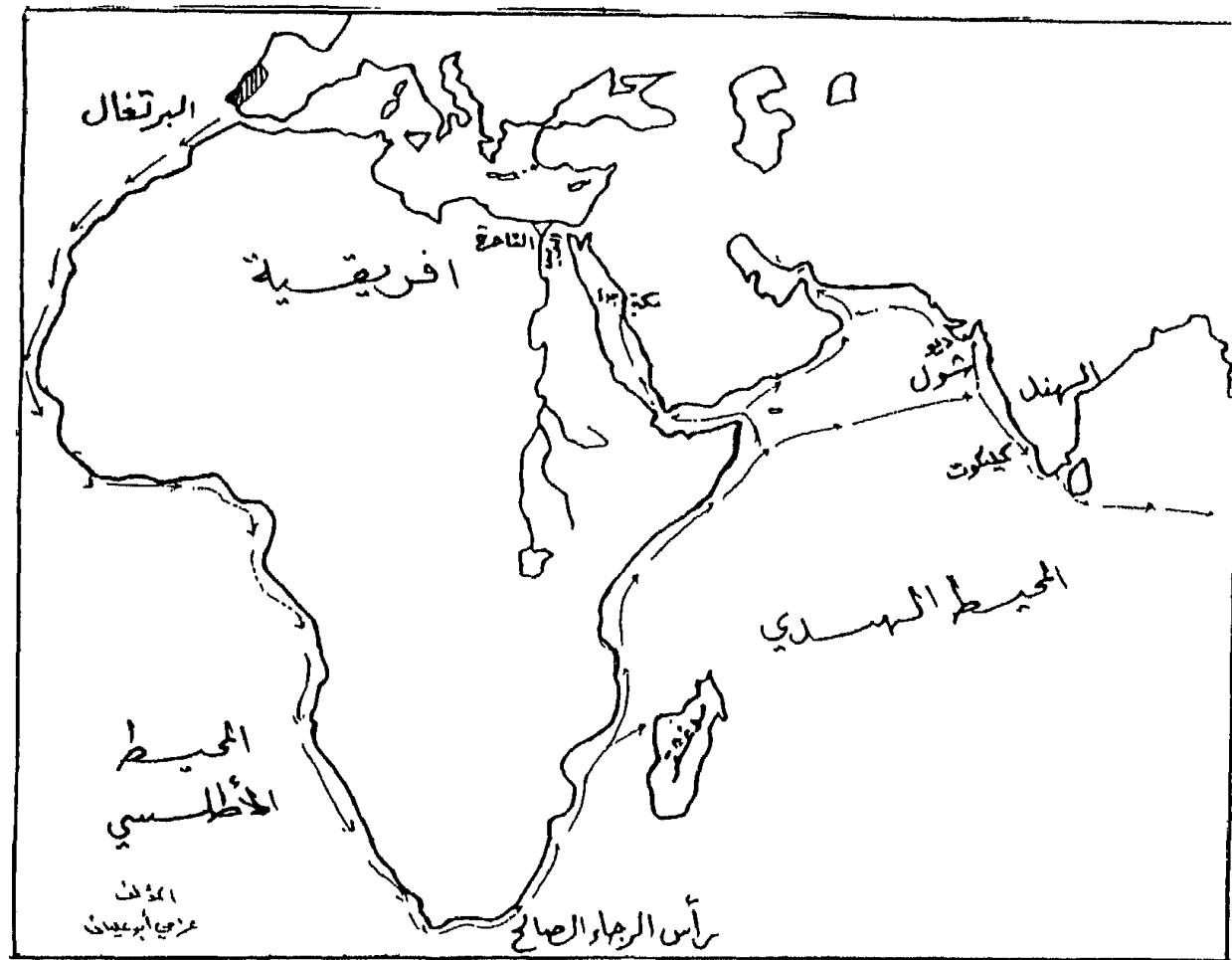
عن كتاب تاريخ المروء الصليبية - لمؤلفه رنسیمان



حملات الماليك على جزيرة قبرص



حملات المالك على جزيرة رودس



اعتدوا،ات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية، بعد اكتشافهم رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

- ١ ابن الأثير: عز الدين محمد بن عبد الكريم (ت. ١٢٣٢هـ / ١٢٣٠م)،  
الكامل في التاريخ - بيروت (دار الكتاب العربي) ط٢،  
١٩٦٧هـ / ١٣٨٧م.
- ٢ ابن أياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت. ١٥٢٤هـ / ١٩٣٠م)،  
بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (مطبعة  
لجنة التأليف) ١٩٦٠ - ١٩٧٤م.
- ٣ ابن أبيك الدوادارى، أبو بكر عبدالله (ت. ١٣٣٤هـ / ١٧٣٤م)،  
الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - تحقيق اولريخ هارمان - القاهرة  
(مطبعة عيسى البابي وشركاه) ١٩٧١هـ / ١٣٩١م، ج. ٨.
- ٤ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر - تحقيق هانس روبرت رومير، القاهرة،  
(مطبعة لجنة التأليف) ١٩٦٠، ج. ٩.
- ٥ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد  
(ت. ١٤٤٩هـ / ١٤٤٩م)، أنباء الغمر ببناء العمر - تحقيق عبد المعيد خان،  
بيروت (دار الكتب العلمية) ط٢، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٦ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. ١٤٠٦هـ / ١٤٠٨م)  
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم  
من ذوى السلطان الأكبر: بيروت (مكتبة المدرسة، دار الكتاب  
اللبناني)، ط٣، ١٩٦٧م.
- ٧ ابن خلkan، أبو العباس أحمد (ت. ١٢٨٢هـ / ١٢٨١م)  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق احسان عباس، بيروت (دار  
الثقافة)، ١٩٦٨ - ١٩٧٢م.
- ٨ ابن شاكر الكتبى، محمد بن شاكر بن أحمد (ت. ١٣٦٤هـ / ١٣٦٣م)  
عيون التواریخ - تحقيق فیصل السامر ونبیلة عبد المنعم، بغداد (مکتبة  
الرشید) ١٩٨٠م، ج. ٢٠.

- ٩- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ١٤٦٨هـ / ١٨٧٣م) زيدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك - تحقيق بولس رويس، باريس (المطبعة الجمهورية) ١٩٨٤م.
- ١٠- ابن شداد الحلبي، عز الدين محمد بن علي (ت ١٢٨٥هـ / ١٢٨٤م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزر - الجزء المنشور بعنوان تاريخ لبنان والأردن وفلسطين - تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢م.
- ١١- تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد خطيط. فرانز شتاينر بفيسبادن ١٩٨٣هـ / ١٤٠م.
- ١٢- ابن الصيرفي، على بن داود الخطيب الجوهري (ت ٩٠هـ / ١٤٩٤م) نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان - تحقيق حسن حبشي، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٣ - ١٩٧٠م.
- ١٣- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٤هـ / ١٥٤٦م)، مفاكهه المخلان في حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (المؤسسة المصرية) ١٩٦٤ - ١٩٦٢م.
- ١٤- ابن عبدالظاهر، محي الدين عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - تحقيق مراد كامل، راجعه محمد على النجاشي، القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر)، ١٩٦١م.
- ١٥- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ١، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- ١٦- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) تاريخ الدول والملوك - نشر بعنوان، تاريخ ابن الفرات - تحقيق قسطنطين زريق - بيروت (المطبعة الأميركانية)، ١٩٣٦ - ١٩٤٢م.
- ١٧- ابن قاضي شبهة، تقى الدين أحمد (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شبهة - تحقيق عدنان درويش، دمشق (المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية) ١٩٧٧م، ج ٣.
- ١٨- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ / ١١٥٥م)،

- ذيل تاريخ دمشق - تحقيقه، أمدروز، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م.
- ١٩- ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢) البداية والنهاية في التاريخ - بيروت (دار الفكر).
- ٢٠- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)، مفرج الكروب في أخباربني أيوب - ج ١-٣ تحقيق حسنين محمد ربيع وراجعه سعيد عاشور، القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ - ١٩٧٧ م.
- ٢١- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى الشافعي (ت ٦٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)، تتمة المختصر في أخبار البشر - تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت (دار المعرفة) ١٩٧٠ م.
- ٢٢- ابن يحيى، صالح (ت ٨٤ هـ / ١٤٣٦) تاريخ بيروت - تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، (دار الشرق).
- ٢٣- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) الذي على الروضتين، بيروت (دار المجلل) ط ١، ١٩٤٧ - ١٩٧٤ م.
- ٢٤- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) المختصر في أخبار البشر، بيروت (دار المعرفة).
- ٢٥- أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة (المؤسسة المصرية).
- ٢٦- الدواداري المنصوري، بيبرس (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م)، زيادة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، الجامعة الأردنية، ميكروفيلم رقم ٢٠.
- ٢٧- الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيساز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)، سير أعلام النبلاء - تحقيق بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان، بيروت (مؤسسة الرسالة)، ط ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٢٨- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي (ت ٦٥٤ هـ / ١٣٥٦ م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - حيدر - اباد الدكن (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية)، ط ١، ١٩٥٢، ج ٨.

- ٢٩ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٢٠٢ هـ / ١٤٩٧ م)،  
التبـر المسـبـوكـ فـي ذـيلـ السـلـوكـ، نـشـرـهـ أـحـمـدـ زـكـيـ، الـقـاهـرـةـ (المـطـبـعـةـ  
الأـمـيرـيـةـ) ١٨٩٦ م.
- ٣٠ السـيـوطـيـ، الـحـافـظـ جـلالـ الدـينـ (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)،  
تـارـيخـ الـخـلـفـاءـ - بـيـرـوـتـ (دارـ الفـكـرـ) ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
- ٣١ حـسـنـ الـمـاحـضـرـةـ فـيـ أـخـبـارـ مـصـرـ وـالـقـاهـرـةـ - تـحـقـيقـ مـحـمـدـ أـبـوـ الـفـضـلـ  
أـبـرـاهـيمـ، الـقـاهـرـةـ، ١٣٢٧ هـ.
- ٣٢ شـافـعـ بـنـ عـلـيـ، نـاـصـرـ الدـينـ (ت ٣٠٠ هـ / ١٣٣٠ م)،  
حـسـنـ الـنـاقـبـ السـرـيـةـ الـمـنـتـزـعـةـ مـنـ السـيـرـةـ الـظـاهـرـيـةـ - تـحـقـيقـ عـبـدـ الـعـزـيزـ  
الـخـوـيـطـرـ، الـرـيـاضـ، ١٩٧٦ م.
- ٣٣ الصـفـديـ، صـلـاحـ الدـينـ خـلـيلـ بـنـ أـبـيـكـ (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)،  
الـوـافـيـ بـالـوـفـيـاتـ، جـ٩ـ تـحـقـيقـ يـوـسـفـ خـانـ، جـ١ـ تـحـقـيقـ جـاـكـلـيـنـ سـوـيـلـةـ  
وـعـلـيـ عـمـارـةـ، فـرـانـزـ شـتـايـنـرـ بـفـيـسـبـادـنـ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- ٣٤ العـيـنيـ، أـبـوـ مـحـمـدـ بـدـرـ الدـينـ مـحـمـودـ بـنـ أـحـمـدـ (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢ م)،  
عـقـدـ الـجـمـانـ، جـ١ـ حـقـقـهـ مـحـمـدـ مـحـمـدـ أـمـيـنـ، الـقـاهـرـةـ، (الـهـيـئـةـ الـمـصـرـيـةـ)،  
١٤٠٧ هـ.
- ٣٥ الـقـرـمـانـيـ، أـبـوـ الـعـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ يـوـسـفـ (ت ١٩١٠ هـ / ١٦١٠ م)،  
أـخـبـارـ الـدـولـ وـأـثـارـ الـأـوـلـ فـيـ التـارـيـخـ، بـيـرـوـتـ (عـالـمـ الـكتـبـ).
- ٣٦ الـقـلـقـشـنـدـيـ، شـهـابـ الدـينـ أـبـوـ الـعـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـلـهـ (ت ٨٢١ هـ /  
١٤١٨ م)، صـبـحـ الـأـعـشـىـ فـيـ صـنـاعـةـ الـأـنـشـاـ، الـقـاهـرـةـ (الـمـؤـسـسـةـ الـمـصـرـيـةـ).
- ٣٧ الـمـعـبـريـ، زـينـ الدـينـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ (ت ١٠١٦ هـ / ١٩٠٠ م)،  
تـحـفـةـ الـمـجـاهـدـيـنـ فـيـ بـعـضـ أـخـبـارـ الـبـرـغـالـيـنـ - تـحـقـيقـ أـمـيـنـ تـوـفـيقـ الـطـبـيـيـ،  
طـرـابـلسـ - لـيـبـيـاـ - (كـلـيـةـ الدـعـوـةـ الـأـسـلـامـيـةـ)، ١٩٨٧ م.
- ٣٨ مـفـضـلـ بـنـ أـبـيـ الـفـضـائـلـ (ت ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م).
- ٣٩ النـهـجـ السـدـيدـ وـالـدـرـ الـفـرـيدـ فـيـماـ بـعـدـ اـبـنـ الـعـمـيدـ، بـارـيسـ، ١٩٢٠ مـ.  
الـمـقـرـيـزـيـ، تـقـيـ الدـينـ أـبـوـ الـعـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ مـ)،  
الـسـلـوكـ لـعـرـفـ دـوـلـ الـمـلـوـكـ، جـ١ـ ٢ـ تـحـقـيقـ مـحـمـدـ مـصـطـفـيـ زـيـادـةـ، الـقـاهـرـةـ،

- (لجنة التأليف) ١٩٥٦ - ١٩٥٨، جـ٣-٤ تحقيق سعيد عاشور، القاهرة  
 (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٠ - ١٩٧٢ م.
- ٤٠- الموضع والاعتبار في ذكر الخطط والأثار - لبنان (مطبعة الساحل الجنوبي).
- ٤١- النويري السكندرى، محمد بن قاسم بن محمد (ت بعد سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٢م) الإمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية بدأ تحقيقه اتيين كومب واتم تحقيقه عزيز سوريان عطيه، حيدر أباد الدكن (دائرة المعارف العثمانية)، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م).
- ٤٢- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبر اليقظان، حيدر أباد الدكن (مطبعة دار المعارف النظامية) ط١، ١٣٣٩هـ.
- ٤٣- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد الدكن (مطبعة دائرة المعارف العثمانية) ١٩٥٤م.

#### ثانياً: المراجع العربية :

- ٤٤- برجاوي (سعيد أحمد) الحروب الصليبية في الشرق، بيروت، (دار الأفاق الجديدة) ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- ٤٥- توفيق (عمر) الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة)، ١٩٨٦م.
- ٤٦- حسن (إبراهيم) البحرينية في عصر سلاطين المماليك، مصر (دار المعارف) ١٩٨٣م.
- ٤٧- دارج (أحمد) المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٩٦١م.
- ٤٨- رنسيمان (ستيفان) تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العربي (دار الثقافة)، ١٩٦٧ - ١٩٦٩م.
- ٤٩- زيادة (محمد مصطفى) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، مجلة الجيش المصري، ينایر (كانون ثانی) ١٩٤٦م.

- ٥٠ زباده (نقولا) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت ١٩٤٣م.
- ٥١ سالم (عبد العزيز) دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي - الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٨٦م.
- ٥٢ طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية، ١٩٦٧م.
- ٥٣ سرهنك (اسماعيل) حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٣١٢هـ / ١٣٣٤هـ.
- ٥٤ سرور (محمد جمال الدين) دولة بنى قلاوون في مصر، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.
- ٥٥ طرخان (إبراهيم علي) مصر في عصر المماليك الجركسة، القاهرة ١٩٥٩م.
- ٥٦ عاشر (سعید عبدالفتاح) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، (دار النهضة العربية) ١٩٧٢م.
- ٥٧ الحركة الصليبية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ط١، ١٩٦٣م.
- ٥٨ العصر الماليكي في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٦٥م.
- ٥٩ قبرس والخروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م.
- ٦٠ مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.
- ٦١ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمالويك، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٧٠م.
- ٦٢ العبادى (أحمد مختار) بالاشتراك مع عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨١م.
- ٦٣ العبادى، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩م.
- ٦٤ عبد السيد (حكيم أمين) قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- ٦٥ عمر (عبد العزيز عمر) أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، بيروت (مطبعة كريدينة اخوان) ١٩٧٦م.
- ٦٦ العمروسي (محمد) الخروب الصليبية في المشرق والمغرب - بيروت (دار

- الغرب الإسلامي) ط٢، ١٩٨٢ م.
- ٦٧- ماهر (سعاد) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة (دار الكاتب العربي).
- ٦٨- موير (وليم) تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة (مطبعة المعارف) ١٩٢٤ م.
- ثالثاً: المراجع الأجنبية :

- 69- Atiya. A.S  
The Crusade in The Later Middle ages, London. 1938
- 70- Holt .P. M  
Qalawan,s 'Treaty with Acre in 1283' The English History Review Vol, Xcl, October, 1976. No cccixi, PP 802-812.
- 71- Khowiter, Abdul-Aziz  
Baibars the First  
London, The Green Mountain Press, 1978
- 72- King  
The Knights hospitallers in Holy Land.  
London 1931
- 73- Lane-Poole, Stanley  
A History of Egypt in the Middle ages  
London, 1924

## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع	
٤	الأهداف .....	-
٧	المقدمة .....	-
٩	الباب الأول: تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي .....	-
١١	الفصل الأول: قيام دولة المالكية .....	
٢١	الفصل الثاني: المعاقل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المالكية .....	
٢٧	الفصل الثالث: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس .....	
٣٠	الفصل الرابع: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان المنصور قلاون .....	
٨٥	الفصل الخامس: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون .....	
١٠١	الباب الثاني: تجدد الحروب الصليبية ورد المالكية .....	-
١٠٣	الفصل الأول: اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاد الشام .....	
١٢٨	الفصل الثاني: غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المالكية ...	
١٤٢	الفصل الثالث: غزو جزيرة رودس ومحاولات السيطرة عليها ...	
١٥٢	الفصل الرابع: اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية ورد المالكية .....	
١٦٠	الخاتمة .....	-

	نص الهدنة المعقدة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإستبارية	-
١٦٣	في حصن الأكراد وحصن الم Cobb وعكا سنة ١٢٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ....	-
	نص الهدنة المعقدة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة	-
١٦٩	بيروت سنة ١٢٦٧ هـ / ١٢٦٩ م .....	-
	نص الهدنة المعقدة بين السلطان الظاهر بيبرس وولده الملك	-
١٧١	السعيد بركة مع الإستبارية في قلعة لد سنة ١٢٦٩ هـ / ١٢٧١ م....	-
	نص الهدنة المعقدة بين السلطان المنصور قلاوون وبين متملك	-
١٧٧	طرابلس سنة ١٢٨٠ هـ / ١٢٨١ م .....	-
	نص الهدنة المعقدة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده	-
	السلطان الملك الصالح وبين حكام عكا وصيدا وعشليث	-
١٧٩	سنة ١٢٨٢ هـ / ١٢٨٣ م .....	-
	نص الهدنة المعقدة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولديه الملك	-
١٨٤	الصالح والأشرف خليل وبين مالكة صور سنة ١٢٨٤ هـ / ١٢٨٥ م..	-
	نص رسالة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إلى الملك ليو	-
	-أرجون سرمان - ملك أرمينية الصغرى، وذلك بعد فتحه	-
١٩٠	عكا سنة ١٢٩٠ هـ / ١٢٩١ م .....	-
	نص مرسوم الأمير يلبغا الخاصكي الصادر إلى الأمير سيف الدين	-
	منكلي بغا نائب دمشق حولأخذ ربع أموال النصارى في	-
	أعقاب واقعة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ هـ / ١٢٦٧ م. وموقف ابن كثير	-
١٩١	من ذلك .....	-
١٩٣	<b>الخاتمة</b> .....	-
٢٠٠	<b>المصادر والمراجع</b> .....	-



## هذا الكتاب

خلاصة للدور الهام والكبير الذي لعبه الماليك في مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين بأسلوب أكاديمي مبسط وموثق مبني على أهم المصادر المعاصرة للأحداث ، وعلى المراجع ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، وبين الكتاب الإستراتيجية التي اتبعها الماليك في مسيرة الجهاد والتي قامت على ما يلي :

- مع وجود القوى الصليبية في الساحل الشامي
    - مسار عسكري : حروب عسكرية ونفسية مذهلة .
    - مسار سياسي : مفاوضات شاقة ومهادنات تكتيكية شائكة .
  - مع تجدد الحروب الصليبية ومحاولة الالتفاف على العالم الإسلامي .
    - منحي دفاعي : صد الهجمات عن السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر والمحيط الهندي .
    - منحي هجومي : نقل المعركة إلى أرض الخصم ومواقعه .
- ★ سيادة ونطاق أمني .

**To: www.al-mostafa.com**